

ك. س. هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : سعيد محيول صالح الحظري كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الفقيدة
الأطروحة مقدمة لبل درجة : الماجستير في تخصص : الفقيدة
عنوان الأطروحة : ((ملأ علي المقاري وآراءؤه الاعتقادية في المبادئ عرض ونقد))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١١/٩/١٤٤١ هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المناقش الداخلي

المناقش الداخلي

المشرف

الاسم : د/ أحمد سعيد / صفا

الاسم : د/ أحمد عبد الرحمن لفافدي الاسم : د/ محمد عمر محمد ح

التوقيع : أحمد سعيد

التوقيع : محمد عمر محمد ح

التوقيع : أحمد عبد الرحمن لفافدي

يعتمد

رئيس قسم : الفقيدة
الاسم : د/ عبد العزيز / أحمد أحمد

التوقيع : عبد العزيز

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم العقيدة

ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات

عرض وتقدّم

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

مساعده بن مجبول بن صالح المطرفي

إشراف الأستاذ الدكتور :

أحمد بن سعيد حمدان

الأستاذ في كلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة قسم العقيدة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

المجلد الأول

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : (ملا علي القاري وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات عرض ونقد).

تناول البحث في هذه الرسالة آراء ملا علي بن سلطان محمد القاري المتوفى سنة (١٠١٤هـ) في الإلهيات من مسائل العقيدة، ويعد القاري من أبرز علماء القرن الحادي عشر، لذا كان له اليد الطولى في التأليف في علوم شتى، وقد وقعت منه مخالافات في باب الإلهيات أوجب دراسة آرائه الاعتقادية من منظور عقيدة السلف .

وقد اشتمل البحث على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة : -

المقدمة: كانت في دواعي اختيار الموضوع ومنهج البحث فيه .

الباب الأول: في ترجمة القاري، تحدثت فيه عن عصره من الناحية السياسية والعلمية والاجتماعية، وعن سيرته الشخصية والعلمية وعن منهجه في الاستدلال على مسائل العقيدة .

وأما الأبواب الأربعة الأخرى : فهي في عرض الإلهيات عند القاري ونقدها وتتلخص فيما يلي :

الباب الثاني: أوردت فيه عقيدة القاري في توحيد الربوبية، واشتمل على المسائل التالية: (تعريف التوحيد، معرفة الله عزوجل، دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته).

الباب الثالث: أوردت فيه عقيدة القاري في توحيد الألوهية، واشتمل على المسائل التالية: (مفهوم توحيد الألوهية، العبادة، بعض صور الشرك ووسائله).

الباب الرابع: أوردت فيه عقيدة القاري في أسماء الله وصفاته، واشتمل على المسائل التالية: (الاسم والمسمى، هل أسماء الله توقيفية أم اجتهادية؟، أسماء الله ليست محصورة في عدد معين، حقيقة الإلحاد في أسماء الله، معنى الإحصاء الوارد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مذاهب الناس في صفات الله، مجمل كلام القاري في نصوص الصفات، تقسيم الصفات عند القاري، أقوال القاري المفصلة لبعض نصوص الصفات).

الباب الخامس: أوردت فيه عقيدة القاري في القضاء والقدر، واشتمل على المسائل التالية: (تعريف القضاء والقدر، التحذير من الخوض في القدر بمجرد العقل، مراتب القدر، أفعال العباد).

وكان منهجي في عرض هذه المسائل هو إيراد قول القاري ثم التعقيب عليه ببيان موافقته للسلف أو مخالفته.

وقد خلصت الدراسة إلى أن القاري في باب الإلهيات ما يريدي العقيدة في الجملة، لكن عنده اضطراب في بعض المسائل، فأحياناً يوافق المذهب السلفي بل ويدافع عنه، فمن أمثلة ذلك: تصريحه بتقديم النقل على العقل عند توهم التعارض، وقوله بأن معرفة الله فطرية ...

وفي بعض المسائل يوافق أهل التفويض كما في صفة الاستواء والوجه ...

هذا وقد ذيلت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها وبفهارس علمية .

** والله أعلم **

(Study Summarized.)

Study title (Mula Ali Gari and his beliefs opinions in Elahyat, presenting and criticize)

The search hand in this study the opionions of Mula Ali bin Sultan Mohammad Gari who was dead in 1014 H. in Elahyat of Agyda Cases, Mula Gari who was the best of the eleventh century specialist , so he has the longest hand in composition in different knowledges . He has dissents in Elahyat , so I have studied his beliefs opinions of Agedat AL-Salaf view .

- Research contains of introdction , five sections and conclusion :

- Introduction :choosing the research and the study method.

(1) First Section : Traslation of Gari , I talked about his peiod of politics, knowledge and socials side . Although , his autobiography , knowledge and his method in deductively of Ageda cases .

(2) Second section : I wrote about AL- Gari Ageda of Tawheed AL – Robobiya , it contains (the defintion of Tawheed , Allah Knowledge , senses of Allah , proof his single .)

Third section : I wrote about Tawheed AL-Robobiya , it contains (Tawheed AL-Awlohaih ,concept Eibada, views of Sherk and its ways)

(4) Four section : I wrote about AL-Gari Ageda of the names and the features of Allah , it contains (the name and the named , Are the names depending at or interpretive ,they are not limited. The truth of Elhad of the names of Allah, the meaning of counts of Abu Hurairah Hadeeth , the faith of people of feature of Allah ,count of AL-Gari of features text. Dividing the features , AL_Gari saying of some features texts.

(5) The fifth section : I wrote about AL-Gari Ageda of AL –Gadha and AL-Gadar, it contains the definition of AL-Gadha and AL-Gadar , worning of saying AL-Gadar reasonably, AL-Gadar numbers ,AL-Ebad doing .

My way of exposing these cases is which AL-Gari said then commentary , Is he with Salaf or not .

The summary of this study in AL-Elaheyat Materedy AL-Agdah as awhole , he has confusion in some cases , sometimes he agree with Salaf as the knowing of Allah as nature , sometimes agree with Tafweedh as AL-Estwa and the face .



الشكر والتقدير

الحمد لله على إنعامه، والشكر له على إحسانه، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله. أما بعد :

فانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^(١)﴾ أتوجه بالشكر لله تعالى الذي أنعم عليّ بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا^(٢)﴾، وإن من نعم الله عليّ أن وفقني لإتمام هذه الرسالة، فأسال الله جل وعلا أن يجعلني ممن إذا أعطى شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا أذنب استغفر .

وإن من تمام شكر الله تعالى أن أذكر بالثناء وألهج بالدعاء لكل من مدّ إليّ يد العون في هذا البحث، مع اعترافي بالعجز عن تقدير الشكر الذي أكنه في ضميري لهؤلاء في عبارات أسطرها إذ لا توفيهم بعض حقهم .

فأتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ الدكتور أحمد بن سعد حمدان الغامدي المشرف على هذه الرسالة، على ما أولاني به من اهتمامه، وأحاطني به من رعايته وأسدى إليّ ملاحظاته وأتخفني به من تصويباته القيمة في تواضع جمّ، وأدب رفيع، وكان له أثره البالغ في إنجاز الرسالة وتقويمها، فأسال الله جلّ جلاله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجزيه عني أحسن الجزاء، وأن يبارك له في وقته وعمله وذريته، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

(١) سورة إبراهيم، آية (٧) .

(٢) سورة إبراهيم، آية (٣٤) .

ولا يفوتني أن أشكر الدكتور: عبدالعزيز بن عبداللطيف المرشدي
الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث في بدايته، وفتح لي قلبه وبيته، فجزاه
الله عني خير الجزاء. كما أشكر أيضاً جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة
وأصول الدين قسم العقيدة لما تقدمه من تسهيلات للدارسين بها على أداء
رسالتهم وتحقيق طموحاتهم .

* * * * *

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد :

فإذا كانت العلوم تقاس بشرف موضوعاتها، فإن موضوع علم التوحيد أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم .

فأشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد الذي من أجله خلق الله الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، ومن أجله أرسل الله الرسل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٢).

وقد بين النبي ﷺ أمور التوحيد أتم بيان، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فأقام الله به الحجة وأوضح به المحجة، فما مات ﷺ حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١) سورة الذاريات، آية (٥٦) .

(٢) سورة النحل، آية (٣٦) .

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١﴾، فخلفه من بعده الصحابة -رضوان الله عليهم- فكان منهجُ التلقي عندهم في مسائل التوحيد وغيره كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فاهتموا بهذين المصدرين حفظاً وفهماً وعملًا، ودعوا الناس إليهما فأعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم، فكان عصرهم أزهى العصور وأفضلها على الإطلاق، فهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا يعرفون غير اتباع النبي ﷺ واتباع النور الذي أنزل معه مستمسكين لما جاء به من الحق .

وتتابع على ذلك الأفاضل من كل جيل وبقيت راية الحق مرفوعةً وطريقها مسلوكة .

ولكنه قد تخلل ذلك انحرافات في كل جيل أخذ بها طوائف من الأمة واتسعت دائرتها حتى كاد الحق يخفى في العصور المتأخرة .

فظهرت مدارس فكرية عقدية، كل مدرسة اتخذت لونا يخصصها في طرائق التفكير والنظر، وهذا الاختلاف مصداق لما أخبر به الصادق المصدوق: «... وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة» (٢).

وهذه الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة السائرون على منهج السلف الصالح السالمون من البدع والأهواء في الدين، فكل ما خالف أهل السنة والجماعة فهو باطل مردود على صاحبه، مهما كان صاحب ذلك القول. ولا يخفى على كل من أمعن النظر في كتب التفسير وشروح

(١) سورة المائدة، آية (٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه كتاب الإيمان، باب ما جاء في اقتراف الأمة (٥/٢٦/ رقم ٢٦٤١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحدث العصر الألباني (١/٣٥٨/ رقم ٢٠٤) ورقم (٢٠٣)، (١٤٩٢)، والمشكاة (١٧١) .

الأحاديث النبوية أن من هؤلاء المفسرين، وشراح الأحاديث النبوية من قد تأثر في تفسيره لنصوص الوحيين ببعض المدارس التي حادت عن الصراط المستقيم، فصاروا يقررون مسائل العقيدة إثباتاً أو نفيّاً على ما هو مقرر عند أصحاب تلك المدارس، ولذا كان من الضروري على أهل العلم وطلاب الدراسات العليا المتخصصين في العقيدة، أن يهتموا بهذا الجانب للكشف عن الأخطاء العقيدية التي وقع فيها أولئك، نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ودفاعاً عن العقيدة الإسلامية من خلال كلام المحققين من أهل العلم وحملة الشريعة .

ولقد وقع اختياري في أول وهلة على علم من أعلام المعتزلة ألا وهو "الزمخشري"، وذلك من خلال تفسيره الكشاف، ولكن بعد البحث وجدت أن أحد الباحثين قد أخذ المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصار لابن المنير، ثم وقع الاختيار أخيراً على علم من أعلام المدرسة الماتريدية، وهو العلامة ملا علي بن سلطان محمد القاري أحد علماء القرن الحادي عشر .

ولمّا كان القاري من العلماء الذين تعددت مواهبهم، وتنوعت مساهماتهم في علوم كثيرة - إذ ألف في التفسير، وعلوم التفسير، والحديث وعلومه، والعقيدة، والفقه، والسيرة، ونحوها - فقد اهتم بعض الباحثين في هذا العصر بكتبه، فحقّقوها في رسائل علمية^(١)، كما قام بعضهم بدراسة

(١) - قام الباحث: عبدالله بن علي حسن الملا بتحقيق كتاب "رد الفصوص لملا علي القاري" في جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة .

- وقام الباحث: عبدالله رجب الفيلكاوي - رحمه الله - بتحقيق "رسالة فتح الأسماع في شرح طلبه =

شخصيته وأثره في علم الحديث ^(١)، كما أخذ منهجه في التفسير ^(٢)، ولكن لم تُدرس آراؤه الاعتقادية في رسالة علمية فيما أعلم، فأوجد ذلك عندي رغبة في أن أكتب عن آراء القاري الاعتقادية، لا سيما أن هذا الموضوع يتعلق بأصل الأصول وهو التوحيد، ولكن سعة هذا الموضوع تحول دون تلك الرغبة، لذا قصرت الكلام على جزء من مباحث العقيدة وهو ما يتعلق بـ "الإلهيات".

* * * * *

❖ أسباب اختيار الموضوع :-

مما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع - إضافة إلى ما سبق - ما يلي :

=

السماع" لملا علي القاري، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

- وقام الباحث: عبدالرحمن السديس، بتحقيق كتاب "المبات السنية العلية على أبيات الشاطبية الرائية" للقاري، في جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة .

(١) قام الباحث: خليل بن إبراهيم قوتلاي، بإبراز شخصية القاري في علم الحديث في رسالته "الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث" في جامعة أم القرى بمكة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

(٢) قام الدكتور: عبدالباقي ثوران، بإبراز منهج القاري في التفسير في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه، من جامعة أرضروم بتركيا، كلية الإلهيات، وعنوانها: "علي القاري، حياته وآثاره، ومنهجه في تفسير أنوار القرآن وأسرار الفرقان". وهذه الرسالة باللغة التركية، ولم تُترجم إلى العربية.

(١) كون القاري من أبرز علماء القرن الحادي عشر الهجري، الذي أثري المكتبة الإسلامية بمؤلفات واسعة وعميقة في مجال العقيدة بخاصة، والعلوم الإسلامية بعامة متأثراً بعقيدة الماتريدية، مما دفعني للكتابة عن الجانب العقدي في الإلهيات في فكر القاري .

(٢) اغترار بعض الناس بمدافعة القاري عن شيخي الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية -رحمهما الله- فيما رماه به ابن حجر المكي من التجسيم، فظن بعض الناس أن القاري موافق لمنهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات جملة وتفصيلاً .

(٣) أن في دراسة آراء القاري الاعتقادية في الإلهيات تيسيراً على الباحثين للاستفادة من كتبه دون توجّس مما خالف فيه القاري عقيدة السلف في بعض المسائل عن اجتهاد منه، وحسن نية .

(٤) أنني أحببت وأنا في بداية التخصص، أن يكون موضوعُ بحثي شاملاً لكثير من مسائل العقيدة، لكي يتأتى لي الإمام بمسائلها والإطلاع على كلام أهل العلم فيها، فوجدت في هذا الموضوع ما يحقق تلك الرغبة.

* * * * *

هذا وقد تكونت الرسالة من مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة .

أما المقدمة: فبينت فيها أهمية علم التوحيد وبيان منزلته وشرفه وعلو مرتبته، وذكرت أسباب اختيار الموضوع، وخطته، ومنهج العمل فيه.

وأما الباب الأول: فخصصته لترجمة القاري، ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: عصر القاري ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: عصر القاري من الناحية السياسية .

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية بمكة المكرمة .

المبحث الثالث: عصر القاري من الناحية العلمية .

الفصل الثاني: سيرة القاري الشخصية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: اسمه، ونسبه، وكنيته .

المبحث الثاني: ولادته، ونشأته .

المبحث الثالث: وفاته، وثناء العلماء عليه .

الفصل الثالث: سيرة القاري العلمية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: طلبه للعلم ورحلاته .

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه .

المبحث الثالث: ثقافته ومؤلفاته .

الفصل الرابع: منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: قواعد القاري في الاستدلال .

المبحث الثاني: عرض القواعد التي ذكرها القاري على منهج السلف.

وأما الباب الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، فهي في عرض الإلهيات

عند القاري ونقدها وهذا بياها : -

الباب الثاني: عقيدة القاري في توحيد الربوبية، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريف التوحيد ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف التوحيد لغة .

المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً .

المبحث الثالث: تعريف توحيد الربوبية .

الفصل الثاني: معرفة الله ﷻ ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أقوال القاري في معرفة الله ﷻ .

المبحث الثاني: عرض القضايا التي وردت في كلام القاري على مذهب السلف .

المبحث الثالث: الميثاق الأزلي .

الفصل الثالث: دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: أقوال القاري في دلالات معرفة الخالق .

المبحث الثاني: عرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق على مذهب السلف .

الباب الثالث: عقيدة القاري في توحيد الألوهية، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم توحيد الألوهية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية .

المبحث الثاني: حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: الأدلة العقلية النقلية لتوحيد الألوهية .

الفصل الثاني: العبادة ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: تعريف العبادة وشروط قبولها .

المبحث الثاني: بعض أنواع العبادة .

الفصل الثالث: بعض صور الشرك ووسائله ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: التوسل .

المبحث الثاني: التبرك .

المبحث الثالث: شد الرحل إلى القبور والمشاهد .

الباب الرابع: عقيدة القاري في توحيد الأسماء والصفات، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأسماء ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول: الاسم والمسمى .

المبحث الثاني: هل أسماء الله توقيفية أم اجتهادية ؟.

المبحث الثالث: أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .

المبحث الرابع: حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

المبحث الخامس: معنى الإحصاء الوارد في الحديث .

الفصل الثاني: الصفات ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: مذاهب الناس في صفات الله ﷻ كما ذكرها القاري .

المبحث الثاني: مجمل كلام القاري في نصوص الصفات .

المبحث الثالث: تقسيم الصفات عند القاري .

المبحث الرابع: أقوال القاري المفصلة لبعض نصوص الصفات .

الباب الخامس: عقيدة القاري في القدر ، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإيمان بالقدر ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف الإيمان بالقدر والقضاء .

المبحث الثاني: التحذير من الخوض في القدر بمجرد العقل .

المبحث الثالث: الإيمان بمراتب القدر الأربعة .

الفصل الثاني: أفعال العباد ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: رأي القاري في أفعال العباد .

المبحث الثاني: رد القاري على طائفتين ممن ضل في مسألة أفعال العباد
وهما الجبرية والقدرية .

الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

* * * * *

❖ منهج البحث : -

يتضح منهج عملي الذي سلكته في بناء هذه الرسالة وإعدادها في
النقاط التالية : -

(١) قمت بجمع ما طبع من كتب القاري، والبحث عما لم يطبع منها مما قد
يكون مخطوطاً حبيس الخزائن والدور، وقد استغرق ذلك مني زمناً
طويلاً؛ ذلك لأن بعض كتب القاري المطبوعة في حكم المفقود؛ لأنه
مضى على طباعتها وقت طويل، ولم تطبع مرة أخرى مما دعاني إلى
الرجوع إلى المخطوطات التي لها صلة بموضوعي، فلما اجتمع عندي ما
تيسر من كتبه المطبوعة والمخطوطة، انصبّ عملي على قراءتها واستخراج
المسائل التي لها علاقة ببحثي في بطاقات حتى تحصل لدي من هذه
القراءات جمع مادة وافرة - ذات صلة بموضوعي - استعنت بها في عرض
آراء القاري في الإلهيات، وتحليلها، والتعقيب عليها حسب قدرتي العلمية،
ومبلي من الفهم والمعرفة.

(٢) اجتهدت في عرض آراء القاري كما وردت في كتبه ورسائله،
والتزمت بألفاظه حتى تكون العبارة أدق في التعبير عن المراد .

(٣) بعد عرض رأي القاري ثنيت بالنقد والتعقيب، ومناقشته وتقويمه على
ضوء كلام المحققين من أعلام المذهب السلفي .

(٤) مناقشة القاري في كلامه قد أفرد لها بمبحث مستقل أو مطلب مستقل، وقد أجعل التعقيب والمناقشة في نفس المبحث أو المطلب الذي عرضت فيه رأي القاري .

(٥) عند إحالتي لمخطوطة أنوار القرآن وأسرار الفرقان فإنني أرمز للنسخة المصورة من الجامعة الإسلامية بـ [خ ق] ثم أذكر رقم الصفحة، وهذه النسخة تبدأ من سورة الكهف إلى آخر المصحف. وأما النسخة المصورة من قسم المخطوطات بجامعة أم القرى فإنني أقول [رقم اللوح] وهذه النسخة تبدأ من فاتحة الكتاب إلى سورة الإسراء .

(٦) عزوت الآيات الواردة في البحث إلى مواضعها في القرآن الكريم بذكر اسم السورة، ورقم الآية .

(٧) خرجت الأحاديث والآثار التي وردت في الرسالة إلى مصادرها من كتب السنة المعتمدة، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به، وإلا خرجته من كتب السنة حسب الطاقة والوسع، والطريقة التي سلكتها في العزو تكون بذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث في الكتب التي التزمت هذه القاعدة، وإلا ذكرت ما به يتبين موضع الحديث.

(٨) شرحت ما رأيت الحاجة إلى شرحه من الألفاظ الغريبة .

(٩) عرفت بالفرق التي ورد ذكرها في الرسالة .

(١٠) ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في صلب البحث ما عدا الصحابة لشهرتهم وقد أحيل عند الترجمة لذلك العلم إلى مصدر أو أكثر .

(١١) تعاملت في بعض المراجع التي رجعت إليها مع أكثر من طبعة، وسأين تلك الطبعات في فهرس المصادر .

(١٢) ما ذكرته في هذا المنهج هو غالب صنيعي المتبع، وقد أخالفه -أحياناً-
لاعتبارات ومناسبات تقتضي ذلك .

(١٣) ذيلت البحث بتسعة فهارس، كلها مرتبة حسب حروف المعجم سوى
الأول والأخير منها، وجاءت على النحو التالي :

- أ - فهرس الآيات القرآنية، معزوة إلى سورها، ومرتبة حسب ورودها
في القرآن الكريم .
- ب - فهرس الأحاديث النبوية .
- ج - فهرس الآثار .
- د - فهرس الأشعار .
- هـ - فهرس الألفاظ .
- و - فهرس الفرق والطوائف .
- ز - فهرس الأعلام .
- ح - فهرس المصادر والمراجع .
- ط - فهرس الموضوعات .

وختاماً.. فإني لا أدعي أنني وفيت الموضوع حقّه، ولا أنني أصبت في كل
ما قلت وقصدت، لأن الخطأ والنقصان من طبيعة البشر، ولكن حسبي أنني
بذلت وسعي، فما كان فيه من صواب فمحض فضل الله وتوفيقه، وما كان فيه
من خطأ ومجانبة للصواب فلأن من طبيعة البشر الخطأ والنقصان .

هذا وأسأل الله جل وعلا أن يرزقني حسن القصد وصحة الفهم، إنه ولي
ذلك والقادر عليه .

الباب الأول

ترجمة القاري

وفيه أربعة فصول :-

- ❖ الفصل الأول : عصر القاري .
- ❖ الفصل الثاني : سيرة القاري الشخصية .
- ❖ الفصل الثالث : سيرة القاري العلمية .
- ❖ الفصل الرابع : منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة .

* * * * *

الفصل الأول :

عصر القاري .

وفيهِ ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: عصر القاري من الناحية السياسية .
- المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية بمكة المكرمة .
- المبحث الثالث: عصر القاري من الناحية العلمية .

* * * * *

المبحث الأول : عصر القاري من الناحية السياسية^(١).

شهد مطلع القرن العاشر الهجري وجود ثلاث دول إسلامية كبيرة تتصارع وتتقاتل من أجل السيطرة على الحكم على العالم الإسلامي. وهي: الدولة العثمانية، والدولة الصفوية (الرافضة)، ودولة المماليك .

ولعلّي ألقى الضوء والحديث من الناحية السياسية على أفغانستان، حيث ولد القاري في إحدى مدنها، ثم على مكة المكرمة البلدة التي هاجر إليها فاراً بدينه .

❖ الأول : أفغانستان :

لقد عانت أفغانستان خلال قرنين من الزمان (القرن العاشر، والحادي عشر) اضطرابات سياسية، وفوضى أمنية، من عدم الاستقرار السياسي، ويرجع ذلك إلى الصراع بين الدول المجاورة ذات الأطماع السياسية والاقتصادية، وذلك مثل :

- المغول في الهند .
- والصفويون (الرافضة) في إيران .
- وقبائل الأوزبك في ما وراء النهر .

ولما كانت مدن كابل، وقندهار، وهراة محل أنظار تلك الدول أو القبائل المجاورة لما تتمتع به من شهرة كبيرة، وصدى واسع، ومحل مرموق، ومكانة

(١) انظر: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٣٨٥-٣٨٦، ٤٠٤) وما بعدها، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث، لخليل قوتلاي (١٢-١٦) .

عظيمة، أضف إلى ذلك ما يرمي إليه أولئك من نشر ما هم عليه من مذاهب. فقد بدأت فكرة الدولة الصفوية -المتثلة في حاكمها الشاه إسماعيل- القضاء على جميع من ينازعه أو يشاركه في أمر تلك الدول .

- فبدأ يفكر في أمر الأسرة التيمورية (المغول) التي تركزت في هراة، وجزء من إقليم خراسان، وفي أمر قبائل الأوزبك التي تركزت في منطقة ما وراء النهر .

- وفي الوقت نفسه كان المغول يخشى من قبائل الأوزبك الهجوم عليه، وكذلك العكس .

- الأمر الذي جعل الأمراء التيموريون يحدثون صداقة مع الشاه إسماعيل (الصفوي) كي تقيهم شر هجمات الأوزبك .

- ولما خشي (بأبر) المغولي هجوم الأوزبك حاول أن يستولي على ما وراء النهر (مقر الأوزبك) في سنة ٩٠٧هـ. لكن هزمه (شيبك خان) رئيس الأوزبك، ثم استولى شيبك على سمرقند، وبخارى، وطاشقند، ثم قندهار وغيرها، واستقر فيها إلى سنة ٩١١هـ، ثم رجع إلى ما وراء النهر، ثم بعد ذلك بثلاث سنوات رجع شيبك للمرة الثانية إلى خراسان فطلب الأمير المغولي (بديع الزمان ميرزا) المساعدة من الشاه إسماعيل ضد الأوزبك .

- فالتقى الجيشان الصفوي والأوزبكي في محمود أباد سنة ٩١٦هـ. في معركة قوية وطاحنة انتصر فيها الشاه إسماعيل، وقتل شيبك خان، فدخل الشاه إسماعيل مرو فقتل من فيها، وأعلن في هراة المذهب الشيعي مذهب رسمياً، ونصب على مرو حاكماً، وكان الشاه

لا يدخل مدينة ويفتحها إلا ويقتل من فيها، وينهب أموالها ويمزقها، وقد قتل خلقاً لا يحصون يربو على ألف ألف نفس، وقتل من العلماء العدد الكثير، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم .

- وفرض على الخطباء سب الصحابة على المنابر إلى غير ذلك من المنكرات والبدع والخرافات؛ مما دفع العلماء، وطلبة العلم إلى الهجرة إلى بلاد الهند أو إلى الحرمين الشريفين، وكان ملا علي قاري ممن توجه إلى أرض الحرمين إلى مكة المكرمة .

❖ الثاني : مكة المكرمة^(١) :

كانت مكة المكرمة ضمن الحجاز خاضعة للدولة العثمانية، وقد تسولى الحكم في الحجاز عدداً من الأشراف، ولما جاء القاري مهاجراً من بلده إلى مكة كان يحكمها آنذاك الشريف أبو نبي الثاني محمد بن بركات (٩٣١-٩٧٤هـ)، وامتاز وقت هذا الحاكم بالهدوء التام، والأمن، فقد هابته الأعراب والأهالي، واحترمه الحجاج والمجاورون .

واستمر أبو نبي حاكماً على مكة إلى سنة ٩٧٤هـ . حيث تنازل عن إمارته لكبر سنه لابنه الشريف حسن بن أبي نبي الذي حكمها من (٩٧٤-١٠١٠هـ) الذي تميزت ولايته بالعدل والاستقامة، حيث كان الشريف محباً للعلم والعلماء، راعياً ومشجعاً لهم، وكان جواداً يشجع المؤلفين، ويمنح الشعراء، وقد ساد الأمن والطمأنينة، والهدوء والاستقرار في الحاضر والبادي،

(١) انظر: تاريخ مكة لأحمد السباعي (٢/٣٩٥-٤٠٥)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (١٨-٢١).

بل كانت القوافل التجارية تسير دون حراسة .

واستعان الشريف بأكبر أولاده أبي طالب في الحكم، ثم عيّن عبدالرحمن ابن عبدالله الحضرمي وزيراً له، لكن الوزير أساء إلى الشريف فقد كان ظالماً، شديد الجراءة في الباطل، أكّالاً لأموال الناس والحجاج، ولما توفي الشريف حسن بن أبي نمي تولى ابنه أبو طالب بن حسن حكم مكة (١٠١٠-١٠١٢هـ) الذي بادر إلى القبض على وزير أبيه، وسجنه حيث قتل نفسه في السجن .

ثم أعاد نشر العدل في أرجاء البلاد، واشتهر بالدين والتقوى والصلاح، ثم بعد وفاته نشبت خلافات على الحكم بين أبناء الشريف في آخر عمر الشيخ ملا علي قاري، واستمرت تلك الخلافات وتغير الأوضاع إلى الأسوأ، والله المستعان .

* * * * *

المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية بمكة المكرمة .

❖ ا - الناحية العمرانية والتجارية :

كانت مكة في عهد المماليك (قبل الدولة العثمانية) صغيرة جداً، بل محدودة معالمها تبدأ من المعلاة وتنتهي إلى الشبيكة، وكان الناس قليلين جداً، بل كان سوق المسعى في وقت الضحى خالياً من الباعة، والأسعار كانت رخيصة جداً، ثم بعد أن تولت الدولة العثمانية الخلافة اختلف الأمر، فكثر الناس، وتوسع الرزق .

ففي عهد الشريف حسن بن أبي نمي كثر وفود الحجاج، وكثر المهاجرون إلى مكة المكرمة، والمجاورون فيها، فتنوعت أصنافهم، وتضاعف عدد السكان، وكان المعروف أن ينادي ولاية مكة بعد الفراغ من الحج (يا أهل الشام شامكم، يا أهل اليمن يمنكم)، فلما تولى الشريف حسن الغنى ذلك، مما رغب الكثير في المجاورة^(١).

أما العمارة ودور مكة فقد ازدهرت وبلغت أعلى درجاتها، ويكفي في وصفها ما قاله القطبي^(٢) في معرض كلامه عن عمارة مكة : (وهي الآن

(١) الأعلام بأعلام البيت الحرام (٣٩) .

(٢) هو قطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان بهاء الدين بن يعقوب بن حسن بن علي النهرواني الهندي، ثم المكي، الحنفي. ولد سنة (٩١٧هـ). من مصنفاته: البرق اليماني في الفتح العثماني، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام. انظر: شذرات الذهب (٦١٧/١٠).

بحمد الله - تعالى - في دولة السلطان الأعظم ... مرادخان خلد الله ملكه،
وجعل بساط البسيطة ملكه في أعلى درجات العمارة، والأمن والرخاء، بحيث
ما رأينا من أول العمر هذه العمارة ولا قريباً منها ^(١).

❖ ٢- مساعدة السلطان الخزانة لأهل الحرمين ^(٢) :

اهتم السلاطين العثمانيون بالحرمين وأهلها، لما لها من المكانة والشرف
والمنزل المرموق، ففي عهد السلطان سليم الأول :

١- أمر بإرسال سبعة آلاف أردب قمح (لأهل الحرمين: ألفان لأهل المدينة،
 وخمسة لأهل مكة) وتوزع بموجب قيود تدرج فيها أسماء البيوت في كل
محله، مع بيان عدد الأفراد لكل بيت، ما عدا التجار والسوقه والعسكر كل
فرد يأخذ أربع كيلات من القمح، إضافة على ذلك دينار من ذهب .

٢- أمر بشراء قرى من مصر بأمواله ووقف غلّتها لأهل الحرمين .

٣- أمر السلطان سليم الثاني بزيادة الغلة سبعة آلاف أردب تُحمل من
الأوقاف السلطانية في مصر إلى مكة .

❖ الطوافه ^(٣) :

لم تكن الطوافه معروفة عند سلفنا ويرى بعض الباحثين أن الطوافه

(١) الأعلام بأعلام البيت الحرام (٤٠) .

(٢) انظر: تاريخ مكة لأحمد السباعي (٣٩٢/٢-٣٩٥)، والإمام على القاري وأثره في علم
الحديث لخليل قوتلاي (٢٤٠) .

(٣) انظر: تاريخ مكة (٥٣٠/٢)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث لقوتلاي (٢٣) .

أحدثت في عهد المماليك وكان يتولى أمر الطوافة قاضي مكة .

ثم جاءت الدولة العثمانية، فأتسع أمر الطوافة، فكانت مهنة تطويف كبار ورجال الدولة يتولاها بعض العلماء، أو الكبراء، أو الأشراف من أهل مكة .

* * * * *

المبحث الثالث : عصر القاري من الناحية العلمية ^(١).

نشطت الحركة العلمية في عهد الشيخ علي القاري بمكة المكرمة خاصة بعد دخول الحجاز تحت سيادة الدولة العثمانية في مطلع القرن العاشر الهجري، حيث بدأت الهجرة إلى مكة المكرمة تُفتَح أبوابها، فكثر المهاجرون ومنهم علماء كان لذهابهم أن يجاوروا بيت الله الحرام، وينشروا ما أكرمهم الله به من علوم ومعارف لما يتمتع به الحرمان الشريفان من المكانة والشرف والكرامة، مما جعلهما مركزين مهمين للمسلمين علمياً وثقافياً عبر العصور، أيّاً كانت الظروف السياسية والاجتماعية والعلمية .

< ومن أهم الأنشطة العلمية في مكة المكرمة : -

أ (حلقات الدروس العلمية في المسجد الحرام ^(٢) :

ولقد كان المسجد الحرام يزخر بحلقات الدروس العلمية في مختلف العلوم الشرعية لشيوخ وعلماء مكة، فمن علماء مكة :

- ١- الشيخ أبو الحسن البكري محمد جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الصديقي الشافعي المصري نزيل مكة (٩٥٢هـ) .

(١) انظر: تاريخ مكة للسباعي (٥٣١/٢) وما بعدها، وشرح ألفاظ الكفر لابن رشيد، تحقيق: الطيب بن عمر (٤٦) .

(٢) تاريخ مكة للسباعي (٥٣١/٢) وما بعدها، الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٣٦-٣٢) .

٢- الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي (ابن حجر الهيتمي) الأزهري المكي (٩٧٣هـ)^(١).

٣- الشيخ علاء الدين علي بن حسام الدين عبدالملك بن قاضيخان المعروف بـ(علي المتقي الهندي) صاحب كنز العمال (٩٧٥هـ)^(٢).

وهناك غيرهم الكثير من العلماء والمشايخ من أهل العلم والفضل.

ب (الإفتاء)^(٣) :

كان منصب الإفتاء يشغله العلماء من أهل مكة، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مفتٍ خاص، ويتولى رئاستهم جميعا مفتي الأحناف .

وقد تعاقب منصب الإفتاء عائلة آل القطبي، ثم أعقبهم الشيخ عبدالرحمن المرشدي وهو من تلامذة الشيخ علي القاري وذلك في سنة (١٠٤٤هـ).

ج (المدارس السلিমانيّة)^(٤) :

بدأ تأسيس المدارس السلیمانيّة بأمر السلطان سلیمان بن سلیم بن بايزيد العثماني، وكانت تشمل أربع مدارس على المذاهب الأربعة، يدرس فيها علماء مكة المكرمة العلوم الشرعية، ولم تكتمل تلك المدارس وتفتح إلا في عهد ابنه السلطان سلیم بن سلیمان العثماني .

(١) انظر: (٣٣-٣٤) .

(٢) انظر: (٣٤-٣٥) .

(٣) راجع: الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٣٨-٣٩) .

(٤) انظر: المرجع السابق (٣٩-٤٠) .

ولقد كان لهذه المدارس العثمانية دور بارز، وأثر ملحوظ، في الحياة العلمية في هذا العصر بمكة المكرمة، فقد نشأ فيها وأخرجت علماء أجلاء، ومشايخ أفاضل قاموا بنشر العلم وتدريسه، والإفتاء، والقضاء، والدعوة والإرشاد في بلاد الحرمين وما جاورها من البلاد الإسلامية .

* * * * *

الفصل الثاني:

سيرة القاري الشخصية .

وفيهِ ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: اسمه، ونسبه، وكنيته .
- المبحث الثاني: ولادته، ونشأته .
- المبحث الثالث: وفاته، وثناء العلماء عليه .

* * * * *

المبحث الأول : اسمه، ونسبه، وكنيته .

هو العلامة الشيخ علي بن سلطان محمد القاري الهروي، ثم المكي الحنفي، المعروف بـ "ملاّ علي القاري" المكنى بأبي الحسن، الملقب بنور الدين^(١).

واختلف المترجمون له في إدخال "ابن" بين سلطان ومحمد .
فبعضهم أثبتها^(٢)، وبعضهم لم يثبتها^(٣)، وفصل الخطاب في ذلك هو

(١) انظر ترجمته في كل من: -

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لعبدالمملك العصامي المكي (٣٩٤/٤) .
- وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحيي محمد أمين بن فضل الله (١٨٥/٣-١٨٦) .
- والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (٤٤٥/١-٤٤٦) .
- والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، لأبي الطيب صديق بن حسن الفتوجي (٣٩٨) .
- وهدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي (٧٥١/١-٧٥٣) .
- والأعلام، لخير الدين الزركلي (١٢/٥-١٣) .
- والمختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، للشيخ عبدالله مرداد أبو الخير (٣١٨/٢-٣٢١) .
- والبضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، للشيخ محمد عبدالحليم الجشتي (١/١-٢) .
- والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، لخليل إبراهيم قوتلاي (٤٢-٦٢) .

(٢) انظر: سمط النجوم للعصامي (٣٩٤/٤)، والبدر الطالع للشوكاني (٤٤٥/١) .

(٣) انظر: خلاصة الأثر للمحيي (١٨٥/٣)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥١/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٨/٢) .

ما ذكره القاري عن نفسه، فقد ورد اسمه على كثير من مصنفاته "علي بن سلطان محمد" ^(١).

وعلى هذا يكون اسم أبيه "سلطان محمد" وهو علم مركب من لفظين، وهذا جارٍ على عادة الأعاجم، فإن دأبهم جعل أكثر الأسماء مركبة نحو محمد صادق، ومحمد أسعد، ونحو ذلك ^(٢).

واشتهر علي بن سلطان بالقاري؛ لأنه اشتغل بعلم القراءات حتى صار حاذقاً فيها، عالماً بوجوه القراءات ^(٣).

قال الشيخ محمد عبدالحليم بن عبدالحكيم الجشتي: (وقرأ القرآن العظيم بمكة المكرمة على القراء الأجلاء، وأتقن الحفظ أبدع إتقان، وحفظ الشاطبية،

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر: مخطوطة أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (١/أ)، ومخطوطة شرح الأربعين النووية رقم اللوح (١/أ)، ومخطوطة تميم المقاصد وتكميل العقائد رقم اللوح (١/أ)، وشرح الفقه الأكبر (٧)، والرد على القائلين بوحدة الوجود (١٣)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣/١)، والمصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٤٣)، والمنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية (٢)، وتسليية الأعمى على بلية العمى (٢٣)، وفصول مهمة في حصول المتمة، تحقيق: مشهور حسن (٣٤)، وتحقيق: الكبيسي (٣٣)، وشفاء السالك في إرسال مالك (١٩)، ومعرفة النساك في معرفة السواك (٣٥)، وجمع الوسائل في شرح الشمائل (٢/١)، وفتح باب العناية بشرح النقاية (٣١/١).

ففي هذه الكتب التي ذكرتها -وما لم أذكره من الكتب- نجد القاري ينص على اسمه بأنه (علي بن سلطان محمد القاري) دون إدخال (ابن) بين سلطان ومحمد. مما يدل على أن (سلطان محمد) علم مركب من لفظين.

(٢) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر، للشيخ عبدالله مررداد (٣٢١/٢)، والبضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، للشيخ محمد عبدالحليم الجشتي (١/١).

(٣) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣٢١/٢).

وقرأ السبعة من طريقها، وأتقن القراءات بوجوهها، وتلا ورتل القرآن العظيم أحسن ترتيل، حتى اشتهر بالقاري (١).

والقاري ذكر سنده للقراءات في آخر كتابه "المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية" حيث قال: (أما سندي في تحقيق القراءات، وتدقيق الروايات فعلى المشايخ العظام والقراء الكرام، من أجلهم في هذا الفن الشريف، وأكملهم شيخ القراء بمكة الغراء وحيد عصره، وفريد دهره، العالم العامل، والصالح الكامل الشيخ سراج الدين عمر اليميني الشوافي بلغه الله - سبحانه - المقام الوافي وجزاه عني وعن سائر المسلمين الجزاء الكافي. وقد قرأ على جماعة قرءوا على الإمام العلامة محمد بن القطان خطيب المدينة المنورة وإمامها) (٢).

وقيل له: "الهروي"؛ نسبة إلى هراة، وهذه المدينة من أشهر مدن خراسان، والقاري نسب إليها؛ لأنه ولد فيها، ونشأ في ربوعها (٣).

و"المكي" : نسبة إلى مكة؛ حيث إن القاري رحل إليها، واستوطنها، وتشرف بالسكن في بلد الله الحرام، وتوفي بها (٤).

و"الحنفي" : نسبة إلى المذهب الذي كان يعتنقه وهو المذهب الحنفي (٥).

(١) البضاة المزجة (٣/١) .

(٢) المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية (٨٢) .

(٣) انظر: الإمام القاري وأثره في علم الحديث، لخليل إبراهيم قوتلالي (٤٦-٤٧) .

(٤) انظر: خلاصة الأثر (١٨٥/٣)، سمط النجوم العوالي (٣٩٤/٤)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية (٢٥) .

(٥) انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي المكي (٣٩٤/٤)، وخلاصة الأثر للمحسي (١٨٥/٣)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥١/١) .

مذهب النعمان بن ثابت^(١)، وقد نص القاري على ذلك في كتابه "فتح باب العناية بشرح النقاية"، فقال: (أما بعد، فيقول الملتجئ إلى حرم ربه الباري، علي بن سلطان محمد القاري الحنفي الحنفي، عاملهما الله بلطفه الخفي، وكرمه الوفي)^(٢).

وكلمة "ملاً" كلمة فارسية، يستخدمها أهل إيران، وتركستان، وتركيا، وأفغانستان، والهند، وباكستان. وقيل: هي عربية مأخوذة من المولى، ومعناها العالم الكبير^(٣).

وكنيته أبو الحسن^(٤)، وقد نص القاري على اسم ولده هذا في شرحه لحديث أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: أن ابناً لي قبض فأتنا. فأرسل يُقرئ السلام، ويقول: "إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلُّ عنده بأجلٍ مسمى، فلتصبر ولتحتسب"، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتيها، فقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب،

(١) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ابن زوطي التيمي، الكوفي، مولى بني تيم بن ثعلبة، فقيه الملة، عالم العراق. ولد سنة (٨٠هـ)، وتوفي في ليلة النصف من شعبان سنة (١٥٠هـ). قال عنه الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة.

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤٤٩/٨)، والسير (٣٩٠/٦-٤٠٣).

(٢) (٣١/١)، وانظر: الاستدعاء في الاستسقاء (١٠).

(٣) انظر: الإمام القاري وأثره في علم الحديث (٤٨).

(٤) كما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١٠٥٠/١)، والكتاني السيد محمد بن جعفر كما في الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة (١١٥)، والسيد عبدالحفي الكتاني الفاسي في التراتيب الإدارية (١٧/١).

وزيد بن ثابت ورجالاً، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتفققع^(١)، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: " هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء " ^(٢).

قال القاري: (ومن الأمور الغريبة، والقضايا العجيبة أنه في أثناء كتابتي هذا الكتاب، وقع من قضاء رب الأرباب أن مات لي ابن اسمه حسن وفي الصورة والسيرة حاوي الفواضل، وجامع الفضائل، حسن الله مثواه، وزين مضجعه ومأواه، فحصل لي بهذا الحديث تعزية كاملة، وتسلية شاملة، ونرجو من الله حسن الخاتمة مع الإثابة التامة) ^(٣).

فما ذكره المترجمون له بأن كنيته أبو الحسن موافق لما ذكره القاري عن نفسه كما في هذه القصة، فاسم ابنه الحسن ثابت بنان القاري كما سطره في مرقاته .

* * * * *

(١) تتفققع: أي تضطرب وتحرك، ولا تثبت على حالة واحدة. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٨٨/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ " يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته " (٣٩٦/١ / رقم ١٢٨٥). ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٦٣٥-٦٣٦ / رقم ٩٢٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٢٠٥/٤) .

المبحث الثاني : ولادته، ونشأته .

اتفق جميع من ترجم للقاري بأنه ولد في مدينة "هراة"، ولكن لم تحدد تلك السنة التي ولد فيها القاري، فاكتمى جميع من ترجم له بذكر محل ولادته فقط^(١).

أخذ القاري يطلب العلم على علماء هذه المدينة العريقة "هراة" فتعلم القرآن الكريم، وحفظه عن ظهر قلب، وجوده، وتلقى علومه الأساس فكون بنيته العلمية في تلك المدينة العريقة^(٢) التي انتسب إليها جمع من أهل العلم والفضل^(٣).

عزم القاري على الهجرة من بلدة "هراة" إلى بلد الله الحرام "مكة المكرمة" ليكون من أهل البيت وساكنيه، وذلك حينما تغلب الشاة إسماعيل الصفوي -الرافضي- على هراة في سنة (٩١٦هـ)، وأحدث فيها فتناً عظيمة من قتل للمسلمين ظلماً وعدواناً، ومن نشر لشعائر الرافضة، وإلزام للعلماء بأن يظهروا هذه الشعائر على المنابر، حين ذاك اضطر كثير من العلماء، وطلاب العلم إلى الهجرة من بلد أهل البدعة والخرافة إلى بلد الإسلام والسنة، وكان من هؤلاء المهاجرين علي بن سلطان محمد القاري، فقد هاجر إلى مكة،

(١) انظر: خلاصة الأثر للمحيي (١٨٥/٣)، وسمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، والبدر الطالع للشوكاني (٤٤٥/٢)، وهدية العارفين (٧٥١/١-٧٥٣).

(٢) انظر: البضاعة المزجاة (٣-٢/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر، للشيخ عبد الله مرداد (٣١٨/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٥٢)، ومقدمة الكبيسي لكتاب القاري فصول مهمة في حصول المتمة (١٨).

(٣) انظر بعض أسماء هؤلاء الأعلام في: كتاب الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٤٧).

وطاب له المقام بها، بل وحمد الله على ذلك كما في رسالته "شم العوارض" حيث قال:

(الحمد لله على ما أعطاني من التوفيق، والقدرة على الهجرة من دار البدعة إلى خير ديار السنة، التي هي مهبط الوحي وظهور النبوة، وأثبتني على الإقامة من غير حول مني ولا قوة)^(١).

وفي مكة المكرمة لازم القاري جماعة من علماء البلد الحرام، وأخذ عنهم العلم، ويأتي بمشيئة الله - تعالى - الكلام عن طلبه للعلم ورحلته في سيرته العلمية.

وأما ما يتعلق بمورد عيشه فالقاري كان متعافياً زاهداً فيما عند الناس، يأكل من عمل يده^(٢)، وقد ذكر بعض من ترجم له أنه كان يكتب كل عام مصحفاً بخطه الجميل وعليه طُرُر^(٣) من القراءات والتفسير، فيبيعه، ويكفيه قوتاً له من العام إلى العام^(٤).

* * * * *

(١) شم العواض (٩٤) .

(٢) ولعل القاري كان متأسيماً بحديث " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده " . أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (٢/٨٠ / رقم ٢٠٧٢) .

(٣) الطرر: بالضم، جانب الثوب الذي لا هُدْبَ له، وطُرَّةُ النهر والوادي: شفيره، وطُرَّةُ كل شيء: حرفه، والجمع طُرُرٌ. انظر: الصحاح للجوهري (٢/٧٢٤-٧٢٥)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٥٥٣) .

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (١٢/٥)، ومقدمة المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (١٠)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٥٦-٥٧) .

المبحث الثالث : وفاته، وثناء العلماء عليه .

وفيهِ مطلبان :

- المطلب الأول: وفاته .
- المطلب الثاني: ثناء العلماء عليه .

* * * * *

المطلب الأول : وفاته .

توفي القاري - رحمه الله - بمكة المكرمة في شهر شوال^(١) سنة أربع عشرة وألف (١٠١٤ هـ)^(٢) على الصحيح^(٣)، ودفن بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة، ويذكر المحيي^(٤) أنه لما بلغ خبر وفاة القاري علماء مصر صلوا عليه بجامع الأزهر صلاة الغيبة في مجمع حافل يجمع أربعة آلاف نسمة فأكثر^(٥).

وهذا الصنيع من علماء مصر يدل على أن القاري كانت له مكانة في نفوس العلماء، وأن شهرته قد بلغت الأقطار الإسلامية، رحمه الله القاري رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته .

* * * * *

(١) انظر: خلاصة الأثر للمحيي (١٨٦/٣)، والتعليقات السنية على الفوائد البهية، لعبدالحى اللكنوي (٢٥)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٦٥) .

(٢) انظر: البدر الطالع (٤٤٦/٢)، وهدية العارفين (٧٥١/١)، والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول (٣٩٨)، وخلاصة الأثر (١٨٦/٣)، والتعليقات السنية على الفوائد البهية (٢٥) .

(٣) وقيل: إنه توفي سنة (١٠١٠ هـ)، وهذا يردده قول القاري في آخر كتابه عين العلم وزين الحلم (٣٩٠/٢) حيث قال: (وكان الفراغ منه على يد مؤلفه ... آخر يوم الخميس المشرف على ليلة الجمعة المسماة بليلة الرغائب من شهر الله المعظم رجب المرجب أحد الأشهر الحرم من شهور عام أربعة عشر بعد الألف من هجرة خير البشر) .

وقيل: (١٠١٦ هـ)، وقيل: (١٠٤٤ هـ). وهذه التواريخ الثلاثة رفضها العلامة اللكنوي. انظر: الرفع والتكميل في الجرح والتعديل (٧٧).

(٤) هو محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحيي، الحموي الأصل، باحث أديب، عني كثيراً بتراجم أهل عصره، فصنف خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، توفي بدمشق سنة (١١١١ هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٤١/٦) .

(٥) خلاصة الأثر (١٨٦/٣) .

المطلب الثاني : ثناء العلماء على القاري .

أثنى على العلامة القاري كثير من أهل العلم، فوصفوه بصفات حميدة منهم المحيي فقال فيه :

(أحد صدور العلم، فريد عصره، الباهر في التحقيق وتنقيح العبارات، وشهرته كافية عن الإطراء بوصفه) ^(١) .

وقال أيضاً: (واشتهر ذكره، وطار صيته، وألف التآليف الكثيرة، اللطيفة التأدية، المحتوية على الفوائد الجليلة) ^(٢) .

وقال العصامي ^(٣) في وصفه :

(الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام) ^(٤) .

وقال اللكنوي ^(٥) :

(وقد طالعت تصانيفه المذكورة)، وسرد بعضاً منها ثم قال: (وغير

(١) خلاصة الأثر (٣/١٨٥) .

(٢) المصدر السابق (٣/١٨٥) .

(٣) هو عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، المؤرخ، ولد في مكة سنة (١٠٤٩هـ)، وتوفي بها سنة (١١١١هـ). من مصنفاته: الفوائد والعوائد، وسمط النجوم العوالي. انظر: الأعلام للزركلي (٤/١٥٧-١٥٨) .

(٤) سمط النجوم (٤/٣٩٤) .

(٥) محمد عبد الحلي بن محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي، أبو الحسنات، عالم بالحديث والفقه والتراجم. من مؤلفاته: "الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة"، و"الفوائد البهية في تراجم الحنفية"، و"الرفع والتكميل في الجرح والتعديل". انظر: الأعلام للزركلي (٦/١٨٧) .

ذلك من رسائل لا تعد ولا تُحصى، وكلها مفيدة، بلغته إلى مرتبة المجددية^(١) على رأس الألف^(٢).

وقد أشار القاري إلى أنه مجدد عصره كما في كتابه "شم العوارض في ذم الروافض" فقال بعد ذكره لحديث "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها"^(٣) ما نصّه :

(فوالله العظيم، ورب النبي الكريم، إني لو عرفت أحداً أعلم مني بالكتاب والسنة، من جهة مبناهما، أو من طريق معناهما لقصدتُ إليه -ولو حبواً- بالوقوف لديه، وهذا لا أقوله فخراً، بل تحدثاً بنعمة الله وشكراً، وأستزيد من ربي ما يكون لي ذخراً)^(٤).

ونقله ابن عابدين^(٥) في "تنبيه الولاة والحكام" ضمن رسائله، وعلق عليه بقوله: (وفي كلامه إشارة إلى أنه مجدد عصره، وما أجدره بذلك، ولا ينكر

(١) لا شك أن القاري كان من العلماء المشهورين والأخيار المعترين الذين أضافوا عشرات المؤلفات إلى المكتبة الإسلامية، والتي تدل على سعة علمه وتنوع ثقافته. لكنه -رحمه الله- لم يصفو له منهجه في الجانب العقدي لمخالفته السلف في بعض مسائل الاعتقاد وتأيدته لبعض طرق الصوفية مما يعكر على دعواه التجديد رحمه الله، وعفا عنا وعنه، ورفع درجته في جنات النعيم .

(٢) الفوائد البهية (٢٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤/٤٨٠ / رقم ٤٢٩١). والحاكم في المستدرک، کتاب الفتن والملاحم (٤/٥٢٢). والحديث صححه العلامة الألباني رحمه الله . انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥٠-١٥١ / رقم ٥٩٩) .

(٤) شم العوارض (٧٤-٧٥) .

(٥) هو إمام الحنفية في عصره محمد أمين بن عمر بن عبدالعزيز عابدين الدمشقي، ولد في دمشق سنة (١١٩٨هـ)، وتوفي بها سنة (١٢٥٢هـ). من مصنفاته: "رد المحتار على الدر المختار"، و"الرحيق المختوم". انظر: الأعلام للزركلي (٦/٤٢).

عليه ما هناك إلا كل متعصب هالك) ^(١).

فهذه نبذ من أقوال أهل العلم في الثناء على القاري، وثمة أقوال أخرى تنتقد القاري، بل وتصف مصنفاته بأنها ليس عليها نور العلم! فمن ذلك ما قاله العصامي: (لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة، لا سيما الشافعي وأصحابه، واعترض على الإمام مالك في إرساله يديه؛ ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم! ومن ثم نهي عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء) ^(٢).

أقول: الناس في القاري قديماً وحديثاً بين الغالي والجافي، فمنهم من جفى في حق القاري ووصف كل كتبه بأنها ليس عليها نور العلم! ومنهم من غلا في كتب القاري ووصفها بأنها كلها مفيدة بلغت إلى مرتبة المجددية على رأس الألف، والحق في القاري أن لا نغلوا فيه ولا نجفوه بل إنه من العلماء المجتهدين، فما وافق فيه الحق قبلناه، وما خالفه رددناه، وبينّا خطأه مع مراعاة الأدب في ذلك .

فالقاري له رسائل وكتب نافعة ومفيدة كرسالته "أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبي الرسول عليه الصلاة والسلام"، و"سلالة الرسالة في ذم الروافض من أهل الضلالة"، و"فصول مهمة في حصول المتمة"، و"تطهير الطوية بتحسين النية"، إلى غير ذلك من كتبه، وله رسائل وكتب فيها الغث والسمين، كشرحه "عين العلم وزين الحلم"، وشرحه للفقهاء الأكبر، وتفسيره ومرقاته، وضوء المعالي، ونحو ذلك .

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين (٣٦٨/١) .

(٢) سمط النجوم (٣٩٤/٤)، وانظر: خلاصة الأثر (١٨٥/٣) .

فإن هذه الكتب فيها حق وباطل، لا سيما ما يتعلق بصفات الله ^(١)، فإن القاري نحى فيها منحى أهل التأويل من الماتريديّة ^(٢)، والأشاعرة ^(٣) ومن ضاهاهم، كما ستراه في فصل الصفات، وطالب الحق يأخذ من كتب القاري ما وافق الكتاب والسنة، ويرد ما يخالفهما .

* * * * *

(١) هم الذين ينتسبون إلى أبي منصور الماتريدي الحنفي، المتوفى سنة (٣٣٣هـ)، كان صاحب جدل وكلام، ولم يكن من أهل السنن والآثار، تابع ابن كلاب في مسائل من الصفات منها: القول بالكلام النفسي، والقول عن القرآن بأنه حكاية عن كلام الله .

انظر: الماتريديّة دراسةً وتقويماً، للحربي (٧٩، ٢١٩، ٣٧٥)، والعقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية، للجديع (٢٧٩-٢٨٠)، والماتريديّة وموقفهم من الأسماء والصفات، للشمس الأفغاني رحمه الله (٢٠٩/١-٢٥٥) .

(٢) اسم لفرقة تنتسب إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المتوفى في البصرة سنة (٣٢٤هـ). وذكر أهل العلم أن أبا الحسن الأشعري مرّ بأطوار ثلاثة: طور اعتزالي، وطور كلابي، وطور سلفي. وهذا هو الذي استقر عليه في آخر حياته.

انظر: مقدمة الشيخ حماد الأنصاري لكتاب "الإبانة عن أصول الديانة" لأبي الحسن الأشعري (٩-٤٢)، وتعليق الشيخ محب الدين الخطيب على المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي (٤٤) هامش رقم (٢) .

الفصل الثالث:

سيرته العلمية .

☞ وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: طلبه للعلم ورحلاته .
- المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه :
- المبحث الثالث: ثقافته ومؤلفاته .

* * * * *

المبحث الأول : طلبه للعلم ورحلته .

اهتم القاري بالعلم وتحصيله منذ نعومة أظفاره، ويمكن تقسيم طلبه للعلم إلى قسمين :

الأول : طلبه للعلم في مسقط رأسه "هراة" .

والثاني : طلبه للعلم في مُهاجره "مكة المكرمة" حيث أخذ عن زمرة من أهل العلم والتحقيق .

أما القسم الأول: وهو طلبه للعلم في مدينة "هراة"، فقد حفظ القاري القرآن في هذه الفترة، وتعلم علم التجويد، والقراءات، وتلقى مبادئ العلوم عن شيوخ عصره في بلده "هراة". ولهذا يقول الجشتي في القاري: (وقرأ الكتب الدراسية، وأخذ العلوم المتعارفة عن شيوخ عصره بهراة)^(١).

ولكن لم تذكر المصادر التي بين أيدينا هؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم القاري إلا ما ذكره القاري عن نفسه، فقد نص على بعض مشايخه منهم الشيخ معين الدين بن الحافظ زين الدين الهروي، فقد ذكره القاري في رسالته "شم العوارض" حيث قال: (أستاذي المرحوم في علم القراءة، مولانا معين الدين بن الحافظ زين الدين)^(٢).

وكما نص على أستاذه ابن معين الدين بن الحافظ زين الدين الهروي حيث قال: (وكان ولد الخطيب - يقصد ابن معين الدين - الذي هو أستاذي

(١) البضاعة المزجاة (٣/١) .

(٢) شم العوارض () .

الأديب، كان يقول إن زيادة التعصب والعناد في هذه الطائفة اللعينة -يعني الرافضة- إنما وقعت من تعصبات الطائفة الأزبكية (١).

وأما ما يتعلق بالقسم الثاني: وهو طلبه للعلم في مُهاجره مكة، فالكلام فيها يكون من جهتين : -

الأولى : رحلته إلى مكة : -

رحل القاري من بلده "هراة" -بعد أن أخذ عن جملة من العلماء بعض العلوم الشرعية- إلى مكة، حيث طاب له المقام بها، واستوطنها إلى أن توفي بها، ولكن لم تذكر لنا المصادر التي بين أيدينا تأريخ هذه الرحلة، ومضى قدم القاري مكة؟ ولكن من المؤكد أن القاري في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (٩٣٥هـ) وما بعدها كان موجوداً بمكة؛ لأن أقدم مشايخه وفاة هو الشيخ محمد بن علي بن أحمد الجناحي -كما ستأتي ترجمته في شيوخه (٢)- وقد كانت وفاة هذا العالم في السنة المذكورة، وأما احتمال وجوده قبل هذه السنة في مكة فهو وارد.

الثانية : طلبه للعلم بمكة : -

لما استقرّ القاري بمكة أخذ يطلب العلم على علمائها، فقرأ القرآن على القراء الأجلاء، وأتقن الحفظ أبدع إتقان، وحفظ "الشاطبية"، وقرأ السبعة من طريقها، وأتقن القراءات بوجوهها، ثم بعد ذلك اشتغل بسماع الحديث، ودرس الفقه، والأصول، والتفسير، والتصوف، والمعقول حتى حذق فيها،

(١) شم العوارض () .

(٢) انظر: (٣٦) .

وصار إماماً شهيراً، كما برع وحذق في علوم اللغة، والبلاغة، والنحو^(١).
 وأما هؤلاء الأعلام الذين أخذ عنهم القاري ببلد الله الحرام فسيأتي
 الحديث عنهم - بمشيئة الله تعالى - في المبحث الثاني .

* * * * *

(١) انظر: البضاعة المزجاة (٣٠/١) .

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه .

له وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : شيوخه .
- المطلب الثاني : تلاميذه .

* * * * *

المطلب الأول : شيوخه .

سبق أن ذكرت أن المصادر التي بين أيدينا لم تذكر شيوخ القاري الذين أخذ عنهم في مدينة "هراة" إلا ما ذكره عن نفسه من أنه أخذ علم القراءات والقرآن من الخطيب في جامع "هراة"، وعن ابن الخطيب المذكور.

وأما شيوخه الذين أخذ عنهم في "مكة المكرمة" فكثيرون، يتعذر استقصاؤهم؛ ذلك لأن القاري من منة الله عليه أنه استوطن بلد الله الحرام "مكة المكرمة" التي يقصدها الناس من كل فج عميق لأداء شعيرتين من شعائر الإسلام الحج والعمرة .

وقد ذكر الله ﷻ أن من فوائد زيارة بيت الله الحرام أن فيه منافع كثيرة دينية، ودنيوية، كما قال تعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿ (١)

فـ"منافع" : نكرة في سياق الامتنان، فتفيد العموم منافع دينية، ومنافع دنيوية، وإن من المنافع الدينية: هي قدوم العلماء لينهل طلاب العلم من علومهم.

ومما لا شك فيه أن القاري قد أخذ منهم بالخط الوافر ما داموا باقين في بلد الله الحرام إلى أن ينصرفوا إلى ديارهم وأوطانهم، كيف لا يكون القاري قد أخذ بالخط الوافر وهو القائل عن نفسه بعدما بلغ من العلم ما بلغ

(١) سورة الحج، آية (٢٧-٢٨) .

أنه لو علم أن أحداً أعلم منه بالكتاب والسنة من جهة مبناهما، أو معناهما،
لقصده ولو حبواً كما سبق النقل عنه .

والكلام عن هؤلاء الأعلام الذين أخذ عنهم القاري ببلد الله الحرام يطول
جداً، وسأكتفي هنا بإيراد بعض هؤلاء الأعلام لاسيما المشهورين منهم :

ل (١) ابن حجر الهيتمي^(١) :

هو العلامة الشيخ شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن محمد بن
علي بن حجر الوائلي السعدي الأنصاري، الشافعي المصري، ثم المكي الشهير
بـ "ابن حجر الهيتمي" .

ولد سنة (٩٠٩ هـ) في محلة أبي الهيتم من إقليم الغربية بمصر . أخذ العلم
عن جملة من العلماء، منهم: شيخ الإسلام شهاب الدين الرملي^(٢) . وأخذ عنه
جملة من العلماء، ومن هؤلاء العلماء: علي بن سلطان محمد القاري، وقد
نص القاري على ذلك في مرقاته، فقال عن شيخه ابن حجر: (شيخنا العالم
العلامة، والبحر الفهامة، شيخ الإسلام، ومفتي الأنعام، صاحب التصانيف
الكثيرة، والتأليف الشهيرة، مولانا وسيدنا وسندنا، الشيخ شهاب الدين
ابن حجر المكي)^(٣) .

(١) انظر ترجمته: خلاصة الأثر (١٦٦/٢)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد
الحنبلي (١٠/٥٤١-٥٤٣)، والبدر الطالع (١/١٠٩)، ومعجم المؤلفين تراجم مصنفين
الكتب العربية، لعمر رضا كحالة (١٥٢/٢) .

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب لابن العماد (٨/٣٥٩) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٧٥) .

وكان القاري مع إجلاله لشيخه ابن حجر يتعقبه، ويناقشه إذا رأى أنه أخطأ^(١)، ومن ذلك ما حصل من ابن حجر الهيثمي من تشييعه على شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، ودفاع القاري عنهما كما يأتي بيانه في فصل الصفات^(٢).

وله مصنفات كثيرة منها :

- ١ - الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والضلال والزندقة .
 - ٢ - شرح الأربعين النووية .
 - ٣ - الزواجر عن اقتراف الكبائر .
 - ٤ - شرح المنهاج للنووي .
- وتوفي ابن حجر الهيثمي - رحمه الله - سنة (٩٧٣هـ)، وقيل (٩٧٤هـ) بمكة المكرمة.

ل (٢) علي المتقي الهندي^(٣) :

هو العلامة المحدث الفقيه مسند الحرم، علي بن حسام الدين بن القاضي عبد الملك بن قاضي خان، القرشي، الحنفي، المشهور بـ "علي المتقي الهندي" كان على جانب كبير من التقوى والصلاح، ولذا سمي بالمتقي.

(١) البضاعة المزجاة للجشتي (٩/١) .

(٢) انظر: (٤٠٤-٤٠٧) .

(٣) انظر ترجمته في كل من: شذرات الذهب (٣٩٩/٨)، والأعلام للزركلي (٢٧١/٤)، والبضاعة المزجاة (٨/١) .

له مصنفات عديدة منها :

١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال .

٢ - مختصر النهاية لابن الأثير .

٣ - ترتيب الجامع الصغير على أبواب الفقه .

توفي - رحمه الله - بمكة المكرمة سنة (٩٧٥هـ) .

وصفه القاري بالعالم العامل، والفاضل الكامل، فقال :

(قرأت هذا الكتاب المعظم - يقصد مشكاة المصابيح - على مشايخ الحرم المحترم، نفعا الله بهم وبركات علومهم ... ومنهم العالم العامل، والفاضل الكامل، العارف بالله الولي، مولانا الشيخ علي المتقي) ^(١) .

﴿ ٣ ﴾ عطية السلمي ^(٢) :

هو العلامة زين الدين عطية بن علي بن حسن السلمي المكي، مفسر مكة وفقيهها في عصره، المتوفى سنة (٩٨٢هـ) .

وقد أخذ عنه القاري علم الحديث، والتفسير، فقد قال القاري في حق شيخه عطية السلمي حينما سرد أسماء العلماء الذين قرأ عليهم المشكاة، فقال : (منهم فريد عصره، ووحيد دهره، مولانا العلامة الشيخ عطية السلمي) ^(٣) .

من كتبه : تفسير القرآن العظيم .

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣/١) .

(٢) انظر ترجمته في: معجم المؤلفين لكحالة (٢٨٧/٦)، والأعلام للزركلي (٢٣٨/٤) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣/١) .

﴿ ٤ ﴾ عبدالله السندي^(١) :

هو العلامة المحدث المسند الشيخ عبدالله بن سعد الدين العمري، السندي، ثم المكي الحنفي، كان من العلماء المحققين، الذين قدموا إلى مكة المكرمة وطلب جوار البيت العتيق، انتفع بعلمه خلق كثير، ومن هؤلاء: العلامة القاري، حيث صرح باسمه، وأنه شيخه كما في "تتميم المقاصد" حيث قال:

(وقال شيخنا ومولانا عبدالله السندي - رحمه الله تعالى - على ما وجدنا بخطه)^(٢).

وله جملة من المصنفات، منها :

١- حاشية على كتاب "مصباح الهداية ومفتاح الكفاية" للشيخ عز الدين محمود بن علي الكاشي .

٢- مجمع المناسك ونفع الناسك .

توفي السندي - رحمه الله - بمكة سنة (٩٨٤هـ) في شهر ذي الحجة .

﴿ ٥ ﴾ الجُنَاجِي^(٣) :

وهو الشيخ العلامة المسند شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن سالم الجُنَاجِي - بجيمين الأولى مضمومة، بينهما نون مخففة - نسبة لجناج، قرية بين البحرارية، وسنهوور من الغربية، ثم القاهري، الأزهري، المكي .

(١) شذرات الذهب (٤٠٣/٨)، البضاعة المزجاة (٩/١-١١) .

(٢) تتميم المقاصد الملحق بشرح الفقه الأكبر للقاري (٢٢٣) .

(٣) انظر ترجمته في: النور السافر (١٨٠)، وشذرات الذهب (٢٠٨/٨) .

وشمس الدين الجناحي يعد من أقدم شيوخ القاري وفاة. وقد نص القاري على اسم شيخه هذا في مقدمة "مرقاة المفاتيح" حيث قال:

(وقد حصل لي إجازة عامة، ورخصة تامة من الشيخ العلامة علي^(١) ابن أحمد الجناني الأزهرى، الشافعى، الأشعرى، الأنصارى، وقد قال: قرأت على شيخ الإسلام، وإمام أئمة الأعلام، الشيخ جلال الدين السيوطى كتباً من الحديث، وغيره من العلوم: كالبخارى، ومسلم وغيرهما من الكتب الستة وغيرها، البعض قراءة، والبعض سماعاً، وقد أجازني بجميع مروياته، وبما قرئ به، وبما أجاز به خاتمة المحدثين: مولانا الشيخ ابن حجر العسقلاني، قراءة وسماعاً، ورواية وإجازة)^(٢).

وتوفي الجناحي - رحمه الله - بمكة سنة (٩٣٥هـ) .

* * * * *

(١) قال الجشتي: (أظن أن هناك قد سقط من المطبوعة، بل من النسخ المخطوطة التي رأيتها في مكتبات باكستان الغربية اسم شيخ علي القاري محمد الذي أخذ عن: السخاوي، والسيوطي، والديلمي، وغيرهم. وقد ثبت مكانه اسم أبيه وهو علي بن أحمد، ولم يكن هو مسنداً معروفاً وشيخاً له، وقد وقع التصحيف في نسبه الجناني والصحيح الجناحي كما ضبطه السخاوي في كتابه ضوء اللامع (١٦١/٨)) أهـ. البضاعة المزجاة (١٤/١-١٥).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٤/١) .

المطلب الثاني : تلاميذه .

القاري - رحمه الله - اهتم بجانبين من جوانب الدعوة إلى الله ﷻ :
الجانب الأول : التأليف، وهذا استغرق جل وقته، وأكبر شاهد على ذلك
كتبه المطبوع منها والمخطوط .

والجانب الثاني الذي اهتم به القاري : جانب التدريس، فقد كان
للقاري حلقات علمية يفد إليها الطلاب، ويستفيدون منها، ولا أدل على
ذلك مما قاله القاري في كتابه "شم العوارض" : (إنه صدر عني في بعض
مجالس درسي، ومجامع أنسي أن سب الصحابة ليس كفراً بالدليل القطعي،
بل بالظني^(١)، وإنما يقتل السبب للأصحاب)^(٢).

ومع شيوع هذه الحلقات العلمية، ومعرفة الخاص والعام للقاري، إلا
أن المصادر التي ترجمت للقاري لم تذكر هؤلاء التلاميذ الذين أخذوا عنه في
ترجمة القاري بل في تراجم أولئك التلاميذ .

فمن هؤلاء التلاميذ^(٣) :

١ (عبد القادر الطبري)^(٤) :

هو الشيخ محي الدين عبد القادر بن محمد بن يحيى بن مكرم الحسيني

(١) التفريق بين الدليل القطعي والظني مخالف لمذهب السلف. انظر: (٦٨) وما بعدها .

(٢) شم العوارض في ذم الروافض (٥٧) .

(٣) انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٨٤ - ٩٠) .

(٤) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر للمحيي (٤٥٧ / ٢)، ومختصر نشر النور والزهر (٢٢٢ / ٢)،

والبدر الطالع للشوكاني (٣٧١ / ١)، وهديّة العارفين (٦٠٠ / ١)، والأعلام للزركلي

(٤٤ / ٤) .

الطبري المكي، الشافعي، الخطيب المفتي ببلد الله الحرام .

قرأ على جملة من علماء عصره، ومن هؤلاء العلماء الذين قرأ عليهم
الشيخ علي بن سلطان القاري .

له عدة مصنفات، منها :

- ١ - شرح قطعة من ديوان المتنبي .
 - ٢ - حسن السريرة في حسن السيرة .
 - ٣ - تفصيل المقالة في التفصيل بين النبوة والرسالة .
- وتوفي الشيخ الطبري في ليلة عيد الفطر سنة (١٠٣٣هـ)، ودفن بالمعلاة.

٢ (عبد الرحمن المُرشدِي)^(١) :

هو الشيخ عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد، العمري، الحنفي، المكي،
الفقيه القاضي، نشأ بمكة وأخذ عن علمائها، ومن هؤلاء العلماء الشيخ
علي بن سلطان القاري فقد جود عليه القرآن العظيم .

له عدة مصنفات منها :

- ١ - براءة الاستهلال فيما يتعلق بالشهر والهلal .
 - ٢ - تعميم الفائدة بتميم سورة المائدة من تفسير الجلالين .
 - ٣ - شرح عقود الجمان للسيوطي .
- قتل خنقاً ليلة الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة سنة (١٠٣٧هـ).

(١) انظر ترجمته في: خلاصة الأثر (٣٦٩/٢)، والأعلام للزركلي (٣٢١/٣) .

للـ (٣) ابن فروخ الموروي ^(١) :

هو الشيخ محمد بن منلا فروخ بن عبدالمحسن بن عبدالحالق الموروي،
نسبة إلى "مورة" بلدة بالروم، المكي. ولد بمكة وبها نشأ، وأخذ عن علمائها
منهم الملا علي القاري، وغيره .

له عدة مصنفات منها :

- ١- القول السديد في مسائل الاجتهاد والتقليد .
 - ٢- إعلام القاصي والداني بمشروعية تقبيل الركن اليماني .
 - ٣- رسالة في حكم صوم الست من شوال .
- توفي ليلة الأحد السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (١٠٦١ هـ)
بمكة المكرمة، ودفن بمقبرة المعلاة .

* * * * *

(١) انظر: مختصر نشر النور والزهر (٢/٤٣٣) .

المبحث الثالث : ثقافته ومؤلفاته .

لقد أفنى القاري - رحمه الله - حياته في العلم والمعرفة، حتى اتسعت ثقافته في علوم شتى، فبرع في العلوم النقلية والعقلية، ولهذا يقول عبد الملك العصامي في وصفه :

(الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع في السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام)^(١).

ولسعة ثقافة القاري واطلاعه على كلام الأئمة المتقدمين والمتأخرين نجده لم يترك فناً من الفنون إلا كتب فيه بأسلوبه المتين الرصين، فألف التآليف الكثيرة التي تُنبئ عن سعة ثقافته، وتمكنه من كثير من العلوم الإسلامية، فقد ألف في التوحيد - على ما فيه من الغث والسمين - ، وفي التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والسيرة النبوية، والتراجم، واللغة، والنحو.

ومن الصعب في هذا المقام حصر هذه الكتب^(٢)، وسأقتصر في هذا المقام على بعض هذه الكتب، وفيما يلي قائمة ببعض أسماء هذه الكتب وبيان ما طبع منها وما هو مخطوط^(٣).

(١) سمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، وانظر: خلاصة الأثر للمحيي (١٨٦/٣) .

(٢) وقد كفانا مؤنة الكلام على هذه الكتب ووجودها في مكتبات العالم، الباحث في مركز جمعه الماجد للثقافة والتراث، قسم المخطوطات، محمد عبدالرحمن الشماخ .

انظر: مجلة آفاق الثقافة والتراث - ع (١) - المحرم ، ١٤١٤ / يونيو ١٩٩٣ م، (٦٢-٩٥).

والباحث خليل إبراهيم قوتلاي، في كتابه "الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث" (١١٥) وما بعدها .

(٣) رمزت للمطبوع بحرف "ط"، وللمخطوط بحرف "خ" .

❖ (أ) مؤلفاته في التوجيه :-

- ١- "الأجوبة المحرّرة في البيضة الخبيثة المنكرة" ^(١) خ .
- ٢- "أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام" ^(٢) ط .
- ٣- "تتميم المقاصد وتكميل العقائد" ^(٣) ط .
- ٤- "الذخيرة الكثيرة في رجاء المغفرة للكبيرة" ^(٤) ط .

-
- (١) انظر: هدية العارفين (٧٥١/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٠) .
- (٢) انظر: خلاصة الأثر للمحيي (١٨٦/٣)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٠) .
وهذه الرسالة طبعت في مكة المكرمة، في المطبعة السلفية عام ١٣٥٣هـ. وطبعت أخيراً بتحقيق مشهور بن حسن بن سلمان، في مكتبة الغرباء الأثرية، ط: الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- (٣) انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٠) .
وقد طبع الكتاب برمته مع "شرح الفقه الأكبر"، تحقيق: علي محمد دندل، دار الكتب العلمية، ط: الأولى (١٤١٦هـ-١٩٩٥م)، ولكن المحقق لم يُشر إلى أن هذا الكتاب مستقل ألفه القاري بعد شرحه للفقه الأكبر، وكان الغرض منه كما قال القاري (١٩٤): (لتم بها المقاصد وتكمل بها العقائد).
فالقاري لما انتهى من شرحه للفقه الأكبر أحب أن يلحق مسائل تتعلق بالاعتقاد لم تذكر في شرح الفقه الأكبر لتمام الفائدة، وضمن هذا الكتاب تعرض القاري لشرح ألفاظ الكفر لابن رشيد، ويأتي الكلام على هذا الشرح قريباً بمشيئة الله تعالى .
- (٤) انظر: إيضاح المكنون (٥٤١/١)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢١) .
طبعت هذه الرسالة في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، بتحقيق مشهور حسن .

- ٥ - "رد الفصوص" ^(١) ط .
- ٦ - "سالة الرسالة في ذم الروافض من أهل الضلالة" ^(٢) ط .
- ٧ - "شرح رسالة ألفاظ الكفر لابن رشيد" ^(٣) ط .

- (١) هذا الكتاب رد به القاري على "فصوص الحكم" لابن عربي .
انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبدالله مرداد (٣٢٠/٢).
وهذه الرسالة طبعت بتحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، باسم "الرد على القائلين بوحدة الوجود"، دار المأمون للتراث، دمشق، ط: الأولى، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- (٢) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والبضاعة المزجاة (٨٩/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٢) .
وهذه الرسالة مختصرة من كتاب "شم العوارض في ذم الروافض" للمؤلف، كما نص على ذلك القاري في كتابه "شرح الشفاء" (٥٥٥/٢) .
هذه الرسالة طبعت بتحقيق مشهور حسن، في دار عمار، الأردن، ط: الأولى، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- (٣) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبدالله مرداد (٣١٩/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٢) .
وهذه الرسالة موجودة في كتاب "تتميم المقاصد وتكميل العقائد" للقاري، كما في المخطوطة التي بين يدي، والتي مصورة من المكتبة المحمودية برقم (٢٧٣٦/٦) -
فالقاري لما تكلم على مسألة المرتد هل تقبل توبته أم لا؟ وذكر أقوال أهل العلم في هذه المسألة، ذكر بعد ذلك أن العلامة ابن رشيد جمع أكثر الكلمات الكفرية، فأحب القاري في هذا المقام أن يشرح هذه الرسالة فشرحها ضمن كتابه "تتميم المقاصد وتكميل العقائد".
ورسالة "شرح ألفاظ الكفر لابن رشيد" أخذت أطروحة دكتوراة للباحث: الطيب بن عمر ابن الحسين بن عمر. ولم يتنبه الباحث إلى أن هذه الرسالة مأخوذة من كتاب "تتميم المقاصد وتكميل العقائد"، والعجب من الباحث أنه عرّف بكتاب "تتميم المقاصد وتكميل العقائد"، بل وذكر أنه يوجد منه نسخة في المكتبة المحمودية برقم (٦/٢٧٣٦) في (٤٠ق)، ولو رجع لهذه المخطوطة لوجد كتابه الذي يقوم بتحقيقه موجوداً برمته في "تتميم المقاصد وتكميل العقائد".

- ٨- "شرح الفقه الأكبر" ^(١) ط .
- ٩- "شم العوارض في ذم الروافض" ^(٢) ط .
- ١٠- "ضوء المعالي لبدء الأمالي" ^(٣) ط .
- ١١- "القول السديد في خُلف الوعيد" ^(٤) ط .

==

العقائد"، بل إنه لو رجع لآخر كتاب "شرح الفقه الأكبر" للقاري، بتحقيق: علي محمد دندل، لوجد كتابه الذي يقوم بتحقيقه موجوداً في "تتميم المقاصد وتكميل العقائد".!

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والأعلام للزركلي (١٣/٥)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبد الله مرداد (٣١٩/٢)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٣).

طبع هذا الكتاب في دلهي عام (١٣١٤هـ)، ومطبعة التقدم في القاهرة سنة (١٣٢٣هـ)، وفي المطبعة الميمنية سنة (١٣٢٧هـ)، ومطبعة مصطفى البابي الحلبي دون تاريخ، ودار الكتب العلمية، بيروت سنة (١٤٠٤هـ) مصورة الطبعة المصرية .

وطبع أخيراً في دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الأولى، (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، تحقيق: علي محمد دندل .

(٢) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والبضاعة المزجاة للجشتي (٨٩/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٣) .

طبعت هذه الرسالة في السعودية، نشر دار الهجرة، سنة (١٤١٠هـ)، بتحقيق: مشهور حسن.

(٣) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والأعلام للزركلي (١٣/٥).

طبع هذا الكتاب في المطبعة العامرة في استنبول سنة (١٣١٩هـ)، ومصطفى البابي الحلبي سنة (١٣٤٩هـ)، وأخيراً طبع بعنوان "شرح ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي" بتعليق صالح فرفور، في دمشق سنة (١٣٧٩هـ) .

(٤) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، وكشف الظنون (١٣٦٤/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٤).

==

- ١٢ - "كشف الخدر في حال الخضر" ^(١) ط .
- ١٣ - "المشرب الورد في مذهب المهدي" ^(٢) ط .
- ١٤ - "المقدمة السالمة في خوف الخاتمة" ^(٣) ط .
- ❖ (ب) مؤلفاته في التفسير وعلوم القرآن : -

١٥ - "أنوار القرآن وأسرار الفرقان" ^(٤) خ .

==

وقد طبع هذا الكتاب في دار الصحابة للتراث بطنطا، بقسم التحقيق بالدار، ط: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م .

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢).

وقد طبع الكتاب في قازان في روسيا قديماً، بدون تاريخ .

(٢) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣٢٠/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٦).

وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة محمد شاهين، القاهرة، ١٢٧٨هـ - ١٨٦١ م .

(٣) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٨٠٢/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٢٦) .

وقد طبع هذا الكتاب في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩، تحقيق: مشهور حسن .

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (١٢/٥)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٠) .

ويوجد عندي نسخة من هذا التفسير مصورة من قسم المخطوطات جامع أم القرى، من أول الفاتحة إلى الإسراء، ونسخة مصورة من قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، من أول الكهف إلى آخر الناس .

- ١٦ - "الجمالين على الجلالين" ^(١) خ .
- ١٧ - "حاشية على تفسير البيضاوي" ^(٢) خ .
- ١٨ - "العلامات البينات في بيان بعض الآيات" ^(٣) خ .
- ١٩ - "المسألة في البسمله" ^(٤) خ .
- ٢٠ - "شرح الشاطبية" ^(٥) ط .
- ٢١ - "الفيض السماوي في تخريج قراءات البيضاوي" ^(٦) خ .
- ٢٢ - "المنح الفكرية بشرح المقدمة الجزرية" ^(٧) ط .

- (١) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٨/٢)، والأعلام للزركلي (١٣/٥)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٠-١٤١) .
- ويوجد عندي نسخة كاملة لهذا التفسير مصور من قسم المخطوطات بمكتبة الحرم المكي.
- (٢) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤١) .
- (٣) انظر: هدية العارفين (٧٥٢/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٢) .
- (٤) انظر: هدية العارفين (٧٥٣/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٢) .
- (٥) انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، والبضاعة المزجاة لمحمد عبدالحليم الجشتي (٨٦/١) .
- وقد طبع في المطبعة العامرة، سنة (١٣٠٢هـ) .
- (٦) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٣) .
- (٧) انظر: البضاعة المزجاة (٨٦/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٤٣-١٤٤) .
- وطبعت هذه الرسالة في مصر سنة (١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م)، وفي قازان في روسيا سنة (١٨٨٧م)، وفي مكة المكرمة سنة (١٣٠٣هـ - ١٨٨٥م)، وفي مصر في المطبعة الميمنية سنة (١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م)، وفي دار إحياء الكتب العربية سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م)، وفي مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م)، وفي بومباي سنة (١٩٦٧م). انظر: =

٢٣- "الهبات السنية العلية على أبيات الشاطبية الرائية" ^(١) خ .

❖ (ج) مؤلفاته في الفقه : -

٢٤- "الاستدعاء في الاستسقاء" ^(٢) ط .

٢٥- "شفاء السالك في إرسال مالك" ^(٣) ط .

٢٦- "فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية" ^(٤) ط .

٢٧- "الفصول المهمة في حصول المتمة" ^(٥) ط .

==

مقدمة المحقق على كتاب أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام (٥٣).

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والبضاعة المزجاة (٩١/١)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٤٤) .

وقد أخذ هذا الكتاب أطروحة دكتوراة للباحث: عبدالرحمن السديس، في جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة .

(٢) انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٢٧) .

طبعت هذه الرسالة في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بتحقيق مشهور حسن .

(٣) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٠٥٠/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١).

وطبعت هذه الرسالة في المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بتحقيق: مشهور حسن .

(٤) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١).

وقد طبع المجلد الأول منه بتحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، عام (١٣٨٧هـ) .

وطبع أخيراً كاملاً باعتناء: محمد نزار تميم، وهيثم نزار تميم، شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

(٥) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/٢)، والأعلام للزركلي (١٢/٥).

==

٢٨- "معرفة النساك في معرفة السواك" ^(١) ط .

٢٩- "تطهير الطوية بتحسين النية" ^(٢) ط .

٣٠- "تزيين العبارة لتحسين الإشارة" ^(٣) ط .

❖ (د) مؤلفاته في الحديث وعلومه : -

٣١- "الأحاديث القدسية الأربعينية" ^(٤) ط .

==

وقد طبعت هذه الرسالة بتحقيق مشهور حسن، المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

وطبعت أيضاً بتحقيق الدكتور: أحمد عبدالرزاق الكبيسي سنة (١٤٠٩هـ)، مطابع الصفا في مكة المكرمة .

(١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، وإيضاح المكنون (٥١٣/٢) .

وقد طبعت هذه الرسالة، بتحقيق: نظر محمد الفريابي، دار الراية للنشر والتوزيع، ط: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

وطبعت أخيراً بتحقيق مشهور حسن، المكتب الإسلامي، دار عمار، الأردن، ط: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(٢) انظر: إيضاح المكنون (٢٩٤/١)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (١٥٦-١٥٧) .

(٣) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر (٣١٩/٢)، وهدية العارفين للبغدادي (٧٥٢/١) .

وقد أشار الباحث خليل إبراهيم قوتلاي في كتابه "الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث" (١٣٠) إلى أن هذه الرسالة طبعت بكاملها ضمن مجموعة رسائل ابن عابدين، وتبعه على ذلك الباحث: الطيب بن عمر بن الحسين في تحقيقه كتاب "شرح القاري لرسالة ألفاظ الكفر لابن رشيد"، وليس الأمر كذلك، بل إن ابن عابدين نص على أنه نقل بعض عبارات القاري، ولهذا قال بعد ذكره لاسم ذلك الكتاب والثناء على مؤلفه (فأردت أن أنقل بعض عباراته المهمة ...) . انظر: مجموعة رسائل ابن عابدين (١٣٠/١) .

(٤) انظر: الأعلام للزركلي (١٣/٥)، والمختصر من كتاب نشر النور والزهر لعبدالله مراد

عليه =

٣٢- "الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى" ^(١) ط .

٣٣- "جمع الوسائل في شرح الشمائل" ^(٢) ط .

٣٤- "شرح الشفاء" ^(٣) ط .

==

(٢/٣١٩)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث لخليل قوتلاي (٤٢٣).

وهذه الرسالة طبعت في استنبول سنة (١٣٢٤هـ)، وفي حلب سنة (١٣٤٥هـ) .

وطبع أخيراً في مؤسسة الكتب الثقافية، ط: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، بتحقيق: كمال ابن بسيوني الأبياني المصري، ضمن كتابه معجم الأحاديث القدسية الصحيحة .

وطبع الكتاب أيضاً بتحقيق: أبو إسحاق الحويني، نشرته مكتبة الصحابة، جدة، بدون تاريخ الطبعة.

(١) انظر: البضاعة المزجاة (١/٨٧)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٢٢٧-٢٢٩).

طبع هذا الكتاب بتحقيق: الأستاذ محمد الصباغ في عام (١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، بمطابع دار القلم، بيروت، ونشرته دار الأمانة، ومؤسسة الرسالة، بيروت .

وطبع أخيراً بتحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشرته دار الكتب العلمية، بيروت، وللكتاب عدة طبعات أخرى. انظر: الإمام على القاري وأثره في علم الحديث (١٣٠).

(٢) انظر: خلاصة الأثر للمحيي (٣/١٨٥)، وهدية العارفين للبغدادي (١/٧٥٢)، والإمام على القاري وأثره في علم الحديث (٣٤٨-٣٤٩) .

طبع في الأستانة سنة (١٢٩٠هـ)، وطبع أيضاً على جزئين وبهامشه "شرح الشيخ عبدالرؤوف المناوي على الشمائل" بالمطبعة الأدبية بمصر، في سنة (١٣١٧هـ).

وطبع مرة أخرى بالمطبعة الشرفية، على نفقة مصطفى البابي الحلبي بمصر، في (١٣١٨هـ)، ومن ثم صُوِّر في دار الأقصى، بدون تاريخ الطبعة .

(٣) انظر: خلاصة الأثر للمحيي (٣/١٨٥)، وسمط النجوم للعصامي (٤/٣٩٤)، والأعلام للزركلي (٥/١٢) .

طبع عدة طبعات، ومن هذه الطبعات ما طبع في المطبعة العثمانية في استنبول عام ١٣٦٠هـ

- ٣٥- "شرح نخبة الفكر" ^(١) ط .
- ٣٦- "المبين المعين لفهم الأربعين" ^(٢) ط .
- ٣٧- "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" ^(٣) ط .

* * * * *

==

- (١٣١٩هـ)، ومن ثم صور في دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، بدون تاريخ .
- انظر هذه الطبعات في كتاب "الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث" (٣٧٣-٣٧٤).
- (١) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والبضاعة المزجاة لمحمد الجشتي (٨٦/١)،
والتعليقات السنية على الفوائد البهية للكنوي (٢٥)، والإمام علي القاري وأثره في علم
الحديث (١٧٤-١٧٧) .
- طبع الكتاب في مطبعة "أخوت" باستنبول، في سنة (١٣٢٧هـ)، وصوّرته دار الكتب العلمية،
بيروت، عام (١٣٩٨هـ) .
- وطبع الكتاب أخيراً بتحقيق: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، في شركة دار الأرقم — ابن أبي
الأرقم للطباعة، بدون تاريخ الطبعة .
- (٢) انظر: هدية العارفين للبغدادي (٧٥٣/١)، والأعلام للزركلي (١٣/٥)، والإمام علي
القاري وأثره في علم الحديث (٤١٠) وما بعدها .
- وقد طبع الكتاب في المطبعة الجمالية بمصر، سنة (١٣٢٧هـ)، ثم طبع أيضاً سنة (١٣٢٩هـ)
بمصر. ويوجد عندي منه نسخة مخطوطة مصورة من مركز الملك فيصل للبحوث العلمية.
- (٣) انظر: سمط النجوم العوالي للعصامي (٣٩٤/٤)، والبدر الطالع للشبوكاني (٤٤٥/١)،
والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول للقنوجي (٣٩٨)، والأعلام للزركلي
(١٢/٥)، والإمام علي القاري وأثره في علم الحديث (٣٠٠-٣٠٦) .
- وقد طبع الكتاب في المطبعة الميمية في القاهرة، سنة (١٣٠٩هـ)، وفي مطبعة المعارف في
باكستان، سنة (١٣٩٢هـ) نشرته المكتبة الإمدادية، ومن ثم صوّر في بيروت، سنة
(١٤١٢هـ)، بتعليق صدقي محمد جميل العطار .

الفصل الرابع :

منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة .

❦ وفيه مبحثان :

- المبحث الأول: قواعد القاري في الاستدلال .

- المبحث الثاني: عرض القواعد التي ذكرها القاري على منهج السلف .

* * * * *

المبحث الأول : قواعد القاري في الاستدلال .

لقد تعددت الطرق، واختلفت المناهج في الاستدلال على مسائل العقيدة^(١)، فقد ذهب فئام من الناس إلى تقديم الجانب العقلي على الجانب السمعي فضلوا، وأضلوا، وانتهى الأمر بكثير منهم إلى الشك والحيرة، كما يأتي بمشيئة الله ذكر نماذج منهم .

والذي يهمنا الآن في هذا المقام هو منهج القاري في الاستدلال على مسائل العقيدة ويمكن أن أجمل كلام القاري في جملة من القواعد التي تؤخذ من كلامه - رحمه الله - ثم أبين بعد ذلك - بمشيئة الله تعالى - هل هذه القواعد التي ذكرها القاري موافقة لما عليه أهل السنة والجماعة أم لا؟ في المبحث الثاني.

* * * * *

القاعدة الأولى : تقريره أن الإعتماد في مسائل

الحقيقة إنما هو على النقل^(٢) .

قال القاري في أثناء ردّه على رسالة لابن كمال الباشا^(٣) في أبوي

(١) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات، للدكتور أحمد بن عطية الغامدي (٨٥) .

(٢) يقصد بالنقل: الكتاب والسنة؛ لأنهما منقولان عن الرسول ﷺ، وينقله الناس خلفاً عن سلف .

أما الكتاب فمنقول كله بالتواتر، وأما السنة فبعضها ما نقل بالتواتر، ومنها ما نقل عن طريق الآحاد . انظر: تقريب الأصول إلى علم الأصول للغرناطي (٢٦٨، ٢٨٥)، والنكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (٥٨-٦٢) .

(٣) هو أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين، قاضي، من العلماء بسالحيث ورجاله،

النبي ﷺ : (قلت : ما ثبت بالكتاب والسنة يجب اعتقاده مجملاً ومفصلاً)^(١) .
 وقال أيضاً في تفسيره لقوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) : (﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ أي : كونوا على وفق الكتاب والسنة)^(٣) .

وقال أيضاً في الرد على القائلين بوحدة الوجود :

(فإن كنت أيها الأخ من المجتهدين فاعمل بما في الكتاب والسنة من أمر الدين، وإن كنت من المقلدين فتقلد قول العلماء العاملين، والمشايخ الكاملين، المجمع على ديانتهم، وتحقيق أمانتهم، وتصديق إمامتهم عملاً بقوله ﷺ : « عليكم بالسواد الأعظم »^(٤) . والحاصل أنه لا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر الاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فقد روى

==

تركي الأصل، مستعرب، له تصانيف كثيرة منها: "طبقات الفقهاء"، و"طبقات المجتهدين" و"رسالة في الجبر والقدر" .

انظر: الأعلام للزركلي (١/١٣٣)، وهدية العارفين للبغدادي (١/١٤١).

(١) أدلة معتقد أبي خنيفة الأعظم في أبوي الرسول ﷺ (١٤١) .

(٢) سورة آل عمران، آية (٣٢) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٩٠/ب) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٢/١٣٠٣ / رقم ٣٩٥٠) .

وفيه: أبو خلف الأعمى وهو متروك، ورماه ابن معين بالكذب. انظر: تقريب التهذيب (٦٣٧/ رقم ٨٠٨٣) .

وقال الألباني رحمه الله : ضعيف جداً . انظر: ضعيف سنن ابن ماجه (٣١٨)، والضعيفة رقم (٢٨٩٦) .

البخاري^(١) عن الزهري^(٢) أنه قال: « من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم »^(٣)، وهذا الكلام جامع مانع، وعن جميع البدع مانع، فمن رام علم ما أخطر عن علمه، ولم يقنع بالتسليم بما فهمه حَجَبُهُ مرامُهُ عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح التفريد، ولم يترق إلى مقام التحقيق بل تنزل إلى حضيض التقليد، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾^(٤)، وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق كما قال ابن المبارك^(٥):

رأيت الذنوب تमित القلوب	وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك إحسانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك	وأحبار سوء ورهبانها ^(٦)

(١) هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري، أخذ الحديث عن مشاهير الحفاظ، وأخذ عنه الحديث خلق كثير. له من المصنفات: "الجامع الصحيح"، و"التاريخ الكبير". توفي سنة (٢٥٦هـ). انظر: السير (٣٩١/١٢).

(٢) هو الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب القرشي الزهري، من أحفظ أهل زمانه للسنن وأحسنهم لها سياقا، وكان فقيهاً فاضلاً، مات سنة (١٢٤هـ). انظر: مشاهير علماء الأمصار لابن حبان البستي (٦٦).

(٣) ذكره البخاري في صحيحه، معلقاً مجزوماً به، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَلُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٤١٢/٤)، ووصله الحميدي وغيره. انظر: فتح الباري لابن حجر (٥١٣/١٣).

(٤) سورة القصص، آية (٥٠).

(٥) هو شيخ الإسلام، عالم زمانه، أمير المؤمنين في الحديث، أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك الحنظلي التميمي بالولاء، ولد سنة (١١٨هـ)، وتوفي سنة (١٨١هـ). انظر: السير (٣٧٨/٨).

(٦) الرد على القائلين بوحدة الوجود (٤٧-٤٩).

وقال أيضاً في شرح الفقه الأكبر: (ثم العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع الذي هو الأصل، وإن كانت مما يستقل فيه العقل، وإلا فعلم إثبات الصانع وعلمه وقدرته لا تتوقف من حيث ذاتها على الكتاب والسنة، ولكنها تتوقف عليهما من حيث الاعتداد بهما؛ لأن هذه المباحث إذا لم يعتبر مطابقتها للكتاب والسنة كانت بمنزلة العلم الإلهي للفلاسفة فحينئذ لا عبرة بها على ما ذكره المحققون)^(١).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢): (﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي: مبناه ومعناه، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي: السنة... ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: بالفكر، والنظر أن لا طريق إلى معرفته سوى الوحي والخبر)^(٣).

نصوص القاري السابقة تدل على أنه يعتمد على السنة - في باب الاعتقاد - سواء كانت متواترة أو آحاداً . فهل هذا الإطلاق مراد القاري أم أن القاري يريد بالسنة - التي يعمل بها في باب العقائد - إنما هي السنة المتواترة؟

هذا ما يتبين من القاعدة الثانية بمشيئة الله تعالى .

* * * * *

(١) شرح الفقه الأكبر (٢٤) .

(٢) سورة البقرة، آية (١٥١) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٩/ب - ٤٠/أ) .

القاعدة الثانية : أخبار الآحاد عند القاري لا يحتج بها في العقائد .

قال القاري بعد أن أورد كلام الإمام أبي حنيفة في أن أبوي رسول الله ﷺ ماتا على الكفر : (فأقول -وبجوله أصول- إن هذا الكلام من حضرة الإمام لا يتصور في هذا المقام، لتحصيل المرام، إلا أن يكون قطعي الدراية، لا ظني الرواية؛ لأن في باب الاعتقاد لا يعمل بالظنيات، ولا يكتفى بالآحاد من الأحاديث الواهيات، والروايات الوهميات) (١).

وقال أيضاً: (واعلم أن ما جاء في كلام الإمام الأعظم، وغيره من علماء الأنام من تكفير القائل بخلق القرآن فمحمول على كفران النعمة لا كفر الخروج من الملة ... وأما حديث "من قال إن القرآن مخلوق فقد كفر" (٢)، فغير ثابت مع أنه من الآحاد، وقابل للتأويل في بيان المرام) (٣).

فالقاري يرى أن هذا الحديث لو فرض ثبوته فإنه لا يعمل به لأنه خبر آحاد؛ ولهذا قال في موضع آخر من شرحه للفقهاء الأكبر: (فإن الآحاد لا تفيد الاعتماد في الاعتقاد) (٤).

* * * * *

(١) أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ﷺ (٦٢-٦٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٣٧٣/١) عن أبي الدرداء، وقال: (وروي ذلك عن معاذ بن جبل، وعبدالله بن مسعود، وجابر بن عبدالله مرفوعاً، ولا يصح شيء من ذلك، أسانيده مظلّمة، لا ينبغي أن يحتج بشيء منها، ولا أن يستشهد بشيء منها). وقد حكم بوضع هذا الحديث ابن الجوزي وتبعه الصغاني. انظر: كشف الخفاء للعجلوني (٩٤-٩٥).

(٣) شرح الفقه الأكبر (٥٢) .

(٤) شرح الفقه الأكبر (١٠١)، وانظر: شرح القاري على شرح نخبه الفكر في مصطلحات أهل الأثر (٢١٢)، وشرح الفقه الأكبر (١٨٩) .

القاعدة الثالثة : تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض .

من القواعد التي قررها القاري في بعض كتبه قاعدة: تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض، وإليك نص عبارته .

قال القاري: (من القواعد أن معارضة النص بالدليل العقلي غير مقبول عند الأعيان)^(١).

وقال أيضاً: (لا عبرة بقول من يقول العقل يشهد بحد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل، فإذا عارضه قدمنا العقل، بل إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل؛ لأن النقل في نفس الأمر لا يكون مطابقاً للعقل، فإن العقول مختلفة ولذا ترى أصحابها متفرقة؛ ولذا قيل في المثل: العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد)^(٢).

وقال أيضاً: (ومن جملة العلوم المذمومة علم المنطق الذي هو يسمى بدهليز الكفر، فقد صنف شيخ مشايخنا جلال الدين السيوطي^(٣) رسالة مستقلة في تحريمه، ونقل عن الأئمة الأربعة ما يدل على تسليمه)^(٤).

(١) شرح ضوء المعالي (١٣٦) .

(٢) الرد على القائلين بوحدة الوجود (٤٦-٤٧) .

(٣) هو الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد السيوطي، ولد بالقاهرة ليلة الأحد مستهل رجب سنة (٨٤٩هـ). صنف التصانيف الكثيرة، حتى بلغت مصنفاته نحو (٦٠٠) ما بين رسائل في ورقة أو ورقتين، وكتسب في عدة مجلدات. توفي سنة (٩١١هـ). انظر: مقدمة ذيل تذكرة الحفاظ (٦/٥-١٠).

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (٤٣/١) .

وقال أيضاً في معرض تحذيره من علم الكلام :

(فالواجب على المسلمين أجمعين اتباع سيد المرسلين المطابق لما جاء به عقيدة سائر النبيين، وعين التبيين للكتاب المبين، وقد بين سبحانه أمره وعظيم شأنه، وقدره حيث أقسم بنفسه فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(١)، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره وأنهم إذا دعوا إلى الله، أي: كتابه، ورسوله، أي: حكمه، صدوا عنه صدوداً أي: أعرضوا عنه إعراضاً مبعوداً، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً، وإيقاناً وتحقيقاً، كما يقوله كثير من المتكلمين، والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريد أن نحسن الأشياء بالجمع بين كلام الأنبياء والحكماء. وكما يقوله كثير من المبتدعة من المنتسكة إنما نريد الإحسان بالجمع بين الإيمان والإيقان، والتوفيق بين الشريعة والطريقة والحقيقة، ويدسون فيها دسائس مذاهبهم الباطلة ومشاربهم العاطلة ... فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما ثبت عن النبي الأمين ﷺ، ويظن أن ذلك مستحسن في باب اليقين، وأن ذلك جامع بين ما جاء به الرسول ﷺ وبين ما يخالفه من العقول، فله نصيب من ذلك، وحرام عليه الترقي إلى ما هنالك إذ ما جاء به الرسول ﷺ كافٍ شافٍ كامل، تبين فيه حكم كل حق وباطل) ^(٢).

وقال أيضاً: (وخلاصة الكلام وسلالة المرام أن العقائد الصحيحة، وما يقويها من الأدلة الصريحة كما تؤثر في قلوب أهل الدين، وتثمر كمال الإيمان

(١) سورة النساء، آية (٦٥) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (١٩) .

واليقين، كذلك العقائد الباطلة تؤثر في القلب وتقسيه، وتبعده عن حضور الرب وتسوده، وتضعف يقينه، وتزلزل دينه، بل هي أقوى أسباب سوء الخاتمة نسأل الله العفو والعافية، ألا ترى أن الشيطان إذا أراد أن يسلب إيمان العبد بربه فإنه لا يسلبه منه إلا بإلقاء العقائد الباطلة في قلبه، ومنها الخوض في علم، الكلام وترك العلم بأحكام الإسلام المستفادة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة^(١).

* * * * *

(١) شرح الفقه الأكبر (١٤)، وانظر: الرد على القائلين بوحدة الوجود (٤٩).

المبحث الثاني : عرض القواعد التي ذكرها القاري على منهج السلف.

القاري - رحمه الله - مع أنه ماتريدي العقيدة - كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد - بمشيئة الله تعالى - إلا أن قواعده التي ذكرها في منهج الاستدلال على مسائل العقيدة توافق ما عليه أهل السنة والجماعة، ما عدا القاعدة الثانية، كما سيأتي بيانه .

* * * * *

القاعدة الأولى : الاعتماد في مسائل العقيدة على النقل .

من خلال تلك النقول التي نقلتها من كلام القاري يتبين لنا أنه يرى أن الاعتماد على مسائل الاعتقاد لا يكون إلا على وفق ما جاء في الكتاب والسنة، وهذا حق موافق لما عليه أهل السنة والجماعة ^(١).

فمن القواعد المقررة عند أهل السنة والجماعة اتباع السلف الصالح أنهم يعتمدون في تقرير العقيدة على الكتاب، وصحيح السنة، وما أجمع عليه سلف الأمة؛ وما ذاك إلا لأن مسائل أصول الدين التي يحتاج الناس إلى معرفتها واعتقادها، والتصديق بها قد بينها الله ورسوله ﷺ بياناً شافياً، فتبين أصول الدين من أعظم ما بلغه الرسول ﷺ البلاغ المبين، وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على العباد فيه، وذلك بإرسال الرسل - عليهم الصلاة والسلام - الذين بينوه وبلغوه ^(٢)، وعلى هذا سار الصحابة رضي الله عنهم، فليس ثمة عند أحد منهم ما

(١) انظر: الفتاوى (١٥٧/٣، ٣٤٦-٣٤٧)، (٤٦٩/١٦)، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان بن علي حسن (١٠٨-٥١/١) .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢٧/١) .

يستدل به في أصول الدين سوى الكتاب العزيز، وسنة النبي ﷺ، سواء كانت سنته القولية، أو الفعلية، أو التقريرية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) رحمه الله :

(وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم - يعني: أهل السنة والجماعة - اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعية والآيات البينات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم)^(٢).

فهؤلاء أصحاب القرون المفضلة المنهج المعتمد عندهم في تقرير العقيدة هو الكتاب وصحيح السنة، فليس لنا بعد هؤلاء - أصحاب القرون المفضلة - إلا أن نسير على هذا المنهج، وأن نتبع ولا نبتدع، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الحارثي، أبو العباس، إمام الأئمة ومفتي الأمة، وسيد الحفاظ وبحر العلوم، ولد سنة (٦٦١هـ). وكان إماماً في التفسير والحديث والفقه واللغة العربية، والعقائد والنقلات، زاهداً عابداً ورعاً شجاعاً قوالاً بالحق. من مصنفاته: الاستقامة، والإيمان، ومنهاج السنة النبوية، وغيرها. توفي - رحمه الله - سنة (٧٢٨هـ).

انظر: طبقات علماء الحديث، لابن عبد الهادي (٤/٢٧٩-٢٩٦)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٤٩٦-١٤٩٧)، وذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي (٢/٣٨٧-٤٠٨)، والنجوم الزاهرة، لابن تغري بردي (٩/٢٧١-٢٧٢).

(٢) الفتاوى (٢٨/١٣).

وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١﴾ .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر » (٢) .

فالكتاب العزيز، وصحيح السنة النبوية هما المصدران الأساسان في تلقي العقيدة الصحيحة، وعلى ذلك جرى السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وفيما يلي أذكر بعضاً من تلك النصوص التي تتضح بها هذه القاعدة .

(١) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

قال ابن بطة (٤): (لقد دلنا مولانا الكريم تعالى على طريقة محبته، وأرشدنا إلى سبيل هدايته بأقصد المذاهب، وأقرب المسالك حين أعلمنا أن محبة الله هي متابعة نبيه صلى الله عليه وسلم حين قال: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ ، فمن اتبع رسوله في سنته أورثه ذلك محبة الله تعالى بكسبه البصيرة في إيمانه فيما أحكمه في

(١) سورة النساء، آية (١١٥) .

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٨٦ / رقم ١٠٦) .

(٣) سورة آل عمران، آية (٣١) .

(٤) هو الإمام القدوة، العابد الفقيه المحدث، شيخ العراق، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن حمدان العكبري الحنبلي ابن بطة. ولد سنة (٣٠٤هـ)، كان في زمنه من أئمة أهل السنة الداعين إلى عقيدة السلف الصالح. توفي يوم عاشوراء سنة (٣٨٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/٥٢٩-٥٣٣)، وميزان الاعتدال كلاهما للذهبي (٣/١٥)، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى (٤/١٥٣) .

قلبه ولسانه بالمغفرة، والرضوان في ميعاده (١).

وقال ابن كثير (٢) رحمه الله :

(هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة الحمديدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع الحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله) (٣).

٢ (وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٤).

قال أبو المظفر السمعاني (٥) رحمه الله : (﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ بمعنى: سائر الملل سوى ملة الإسلام، وقيل هو الأهواء والبدع) (٦).

(١) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (٢٢١/١).

(٢) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري دمشقي، عماد الدين أبو الفداء، الإمام المحدث، المفسر المؤرخ، الفقيه صاحب التصانيف، ولد سنة (٧٠١هـ). له من المصنفات: "تفسير القرآن العظيم" و"البداية والنهاية". توفي سنة (٧٧٤هـ).

انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٩٨/١١-٩٩)، وشذرات الذهب (٦/٢٣١-٢٣٢)، والدارس في تاريخ المدارس (٢٧/١-٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٥٣٦).

(٤) سورة الأنعام، آية (١٥٣).

(٥) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني المروزي، الإمام العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، ولد سنة (٤٢٦هـ)، كان حنفياً ثم صار شافعيّاً، وكان ناصراً لأهل السنة والجماعة. من مصنفاته: "التفسير"، و"قواطع الأدلة". توفي سنة (٤٨٩هـ).

انظر: السير (١٩/١١٤-١١٩)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٣٣٩-٣٤٠).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٢/١٥٧).

(٣) وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ^(١).

قال ابن كثير رحمه الله :

(قال مجاهد ^(٢)) وغير واحد من السلف أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه في أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة ^(٣).

(٤) وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ^(١٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ ^(١٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ^(١٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ ^(١٦).

قال ابن سعدي ^(٥) رحمه الله : (اتباع الهدى: بتصدق الخبر وعدم

(١) سورة النساء، آية (٥٩) .

(٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، ولد سنة (٢٠هـ)، وكان أحد الأعلام من التابعين، والأئمة المفسرين، قرأ على ابن عباس رضي الله عنه وغيره، وقرأ عليه ابن كثير وغيره، توفي وهو ساجد سنة (١٠٣هـ) .

انظر: غاية النهاية في طبقات القراء للجزري (٢/٤١-٤٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٣٠٥-٣٠٨)، والسير (٤/٤٤٩-٤٥٧) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٧٨٥) .

(٤) سورة طه، آية (١٢٣-١٢٦) .

(٥) هو العلامة الورع الزاهد، الفقيه الأصولي المحقق المدقق، الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي. له مصنفات عديدة منها: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلامه" =

معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارض بشهوة (١).

ونظائر هذه الآيات في هذه المسألة التي تأمر بتحكيم الكتاب والسنة كثيرة جداً لمن تدبر القرآن الكريم .

وأما النصوص التي تتضح بها هذه القاعدة من سنة النبي ﷺ فمنها :

(١) حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: " أوصيكم بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " (٢).

(٢) وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: " خير الناس قرني،

=

المنان"، و"القواعد الحسان"، و"القواعد والأصول الجامعة". توفي سنة (١٣٧٦هـ). انظر: معجم المؤلفين لكحالة (١٣/٣٩٦-٣٩٧)، والأعلام للزركلي (٣/٣٤٠)، والشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة بقلم الدكتور عبدالرزاق العباد (١٣) وما بعدها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٩٧/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٥/١٣-١٤ / رقم ٤٦٠٧). والترمذي في جامعه كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/٤٣ / رقم ٢٦٧٦). وقال الترمذي: هذا حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/١٥-١٦ / رقم ٤٢).

وصحح هذا الحديث العلامة الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٦٤٧-٦٤٨ / رقم ٩٣٧).

ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، وبيمينه شهادته» (١).

والأحاديث في هذه المسألة أكثر من أن تحصر .

ولأجل هذه الأدلة الدالة على الاعتماد على الكتاب والسنة كان صحابة رسول الله ﷺ من أشد الناس تمسكاً، وتعظيماً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والعمل بهما .

عن عائشة - رضي الله عنها - أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ» (٢).

قال ابن بطة : (هذا يا إخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغ إن هو خالف شيئاً من أمر نبيه ﷺ فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم، وبأوامره، ويتباهون بمخالفته، ويسخرون بسنته، نسأل الله عصمة من الزلل، ونجاة من سوء العمل) (٣).

وقال الإمام أحمد (٤) رحمه الله : (أصول السنة عندنا التمسك بما كان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جورٍ إذا أشهد (٢/٢٥١/٢٦٥٢). ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/١٩٦٢/٢٥٣٣).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (١/٢٤٥-٢٤٦).

(٣) المصدر السابق (١/٢٤٦).

(٤) هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، ولد سنة (١٦٤هـ)، ناصر السنة، وقامع البدعة، أحد الأئمة الأعلام، ثقة حافظ متقن فقيه حجة، كان عالماً بالله =

عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والافتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك المراء والجدل، والخصومات في الدين، والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ، والسنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول ولا بالأهواء، وإنما هو الاتباع وترك الهوى (١).

وقال الأوزاعي (٢) رحمه الله :

(خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله) (٣).

فهذه النصوص التي سقتها من كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، وكلام السلف الصالح تدل دلالة واضحة على أنه لا سعادة للمرء في دنياه وآخرته إلا بالاعتصام بالكتاب، وصحيح السنة، وما كان عليه سلف الأمة، فالكتاب

==

زاهداً ورعاً، رأساً في السنة. من مصنفاته: "المسند"، و"التفسير"، و"فضائل الصحابة". توفي سنة (٢٤١هـ).

انظر: تاريخ بغداد (١٧٨/٥ - ١٩٠)، وتهذيب الكمال (٤٣٧/١ - ٤٧٠)، وحلية الأولياء (١٦١/٩)، والسير (١٧٧/١١ - ٣٥٨).

(١) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران (١٩).

(٢) هو شيخ الإسلام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمَد الأوزاعي، عالم أهل الشام. قال ابن مهدي: ما كان بالشام أعلم بالسنة منه. مات سنة (١٥٨هـ)، وقيل: (٥٥)، وقيل: (٥١)، وقيل: (٥٦).

انظر: تهذيب التهذيب (٢٣٨/٦ - ٢٤٢)، والسير (١٠٧/٧ - ١٣٤).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦٤/١ - رقم ٤٨).

والسنة هما المعيار الذي توزن به الأقوال والأعمال والمعتقدات، ولا يستقيم إيمان المرء إلا بتعظيمها، فلا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان^(١).

وبهذا يتضح لنا أن القاري موافق لما عليه أهل السنة والجماعة .

* * * * *

القاعدة الثانية: أخبار الآحاد لا يحتج بها في العقائد .

من خلال النقل السابق عن القاري في القاعدة الثانية يظهر لنا بوضوح أن القاري لا يرى حجية أخبار الآحاد في العقيدة مطلقاً، وهذا موافق لطريقة أهل الأهواء والبدع^(٢): من المعتزلة^(٣)، والأشاعرة، والماتريدية، وغيرهم، ومخالف لطريقة السلف الصالح، فالسنة عند السلف قرينة للقرآن في الأصول والفروع، فهي مفسرة وموضحة، وشارحة، ومخصصة، ومقيدة لما جاء

(١) العقيدة الطحاوية بتعليق ابن مانع (٣١) .

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية، لسعد الدين النفثازي (٢٦-٢٧)، وتمهيد الأوائل، للباقلاني (٤٤١-٤٤٢)، والمستصفي للغزالي (١٤٥/١)، والماتريدية دراسةً وتقويماً، للحري (١٧٧-١٨٥)، والماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات، للشمس الأفغاني رحمه الله (٥٤٤/١-٥٤٥).

(٣) المعتزلة: اسم لفرقة من المتكلمين ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري، وهم أتباع واصل بن عطاء الغزال الذي كان بينه وبين الحسن البصري خلاف في القدر، وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد في بدعته، فطردهما الحسن عن مجلسه، فاعتزلا عن سارية من سواري مسجد البصرة فقبل لهما ولأتباعهما معتزله؛ لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر.

انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (١٥)، والملل والنحل للشهرستاني (٥٦/١) وما بعدها.

في القرآن الكريم، ولذا كان سلفنا الصالح لا يفرقون بين ما سمي بأخبار آحاد أو متواتر، بل إنهم يؤمنون بذلك كله، ويعملون بظاهر هذه الأحاديث من غير تأويل لشيء منها؛ وما ذاك إلا لأن من مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. فيجب على كل مسلم أن يصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به سواء كان ذلك الخبر عن الله، أو صفاته، أو عن مخلوقاته، أو ما يتعلق باليوم الآخر ... إلخ.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله - في أحاديث الصفات:
(نؤمن بها، ونصدق بها، ولا نرد شيئاً منها إذا كانت بأسانيد صحاح)^(١).
وقال في أحاديث الرؤية: (أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر، وكما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر)^(٢).
وقال أبو بكر الخلال^(٣): حدثنا أبو بكر المروزي^(٤) رحمه الله: قال:

-
- (١) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٥٣/٣) رقم (٧٧٧) .
(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥٠٧/٣) رقم (٨٨٩)، وانظر: السنة للإمام أبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني (٢٢٩/١) .
(٣) هو أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، الفقيه العلامة المحدث، شيخ الحنابلة وعالمهم. ولد سنة (٢٣٤هـ)، أو في التي تليها. مات سنة (٣٢١هـ). له من المصنفات: "الجامع لعلوم أحمد"، و"كتاب السنة". انظر: السير (٢٩٧/١٤ - ٢٩٨)، وتذكرة الحفاظ (٧٨٥/٣ - ٧٨٦) .
(٤) هو أحمد بن محمد بن الحاج بن عبدالعزيز أبو بكر المروزي، ولد في حدود (٢٠٠هـ)، وكان إماماً في السنة، عالماً محدثاً فقيهاً من أجل أصحاب الإمام أحمد، له مسائل كثيرة عن الإمام أحمد وكان شديد الاتباع، توفي سنة (٢٧٥هـ). انظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٥٦/١ - ٦٣)، والأنساب للسمعاني (٢٦٣/٥)، والسير (١٧٣/١٣ - ١٧٥).

(سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تردّها الجهمية في الصفات والرؤية، وقصة العرش، فصحبها أبو عبد الله، وقال: قد تلقّتها العلماء بالقبول، نسلم الأخبار كما جاءت)^(١).

وقال ابن عيينة^(٢) في أحاديث الرؤية: (حق نرويهما على ما سمعناه ممن نثق به، ونرضى به)^(٣).

وبهذه النقول عن هؤلاء الأعلام نعلم أن منهج سلفنا الصالح قبول خبر الآحاد في العقيدة إذا صح عن النبي ﷺ، فالسلف الصالح يحتجون بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ بلا تقسيم ولا تفريق. ويتبين ذلك من مصنفاتهم التي صنّفوها في باب الاعتقاد^(٤). فإنهم عرضوا في هذه الكتب العقيدة الصحيحة المأخوذة من الكتاب وصحيح السنة، ولم يفرقوا في منهج عرضهم للعقيدة الصحيحة بين المتواتر والآحاد، بل إنهم ساقوا تلك الأحاديث، واستدلوا بها على مسائل

(١) انظر: المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل، للأحمدي (٢٧٦/١).

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي، أحد الثقات الأعلام، أجمعت الأمة على الاحتجاج به. ولد بالكوفة سنة (١٠٧هـ)، كان فقيهاً، واسع العلم، كبير القدر. قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣٢/١)، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان البستي (١٤٩-١٥٠هـ)، والسير (٤٥٤/٨-٤٧٥هـ)، وميزان الاعتدال (١٧٠-١٧١هـ).

(٣) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/٥٠٤/رقم ٨٧٧).

(٤) كالسنة لابن أبي عاصم (ت ٣٧٧هـ)، والسنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ت ٢٩٠هـ)، والسنة لمحمد بن نصر المروزي (ت ٢٩٤هـ)، والسنة لأحمد بن محمد بن هارون الخلال (ت ٣١١هـ)، والتوحيد لابن خزيمة (ت ٣١١هـ)، والشرعية لأبي بكر الآجري (ت ٣٦٠هـ)، وكتاب الصفات، وكتاب رؤية الله ﷻ لأبي الحسن الدارقطني (ت ٣٨٥هـ).

انظر: خبر الواحد في التشريع الإسلامي وحجّته، لأبي عبد الرحمن القاضي برهون (١٢٣/١-١٢٤هـ).

العقيدة دون تفريق بين المتواتر والآحاد، فدل ذلك على أنهم يرون حجة خبر الآحاد في العقيدة إذا صح عن النبي ﷺ .

قال ابن قيم الجوزية^(١) - رحمه الله - فيمن يفرق بين العقائد والأحكام في الأخذ بأخبار الآحاد : (وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبرات العلمية كما يحتج بها في الطلبات العملية، ولا سيما والأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا وأوجبه ورضيه ديناً ... ولم تزل الصحابة، والتابعون، وتابعوهم، وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات، والقدر، والأسماء، والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته)^(٢).

وخلاصة الكلام في هذا المرام أن القاري بتلك القاعدة التي ذكرها - وهي عدم الاحتجاج بخبر الآحاد في العقيدة - مخالف لمنهج السلف الصالح، بل ومخالف لمنهج إمام مذهبه الإمام أبي حنيفة وأصحابه الأوائل. ولهذا قال الإمام أبو حنيفة: (وخبر المعراج حق فمن رده فهو ضال مبتدع)^(٣).

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حنبل الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية، أبو عبد الله، كان إماماً متفناً، برع في التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعربية، والنحو. لازم ابن تيمية فأخذ عنه علماً كثيراً حتى صار أحد أفراد زمانه. من مصنفاته: "زاد المعاد"، و"إعلام الموقعين"، و"روضة المحبين". توفي سنة (٧٥١هـ).

انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤٤٧/٢-٤٥٢)، والنجوم الزاهرة (١٠/١٩٥)، وشذرات الذهب (٦/١٦٨-١٧٠)، وبغية الوعاة (١/٦٢-٦٣).

(٢) مختصر الصواعق (٢/٥٦٣).

(٣) الفقه الأكبر بشرح القاري (١٨٩).

وقال أيضاً: (وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام من السماء، وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت به الأخبار الصحيحة حق كائن)^(١).

فهذه الأمور التي نص عليها هذا الإمام كلها من أمور العقيدة، ولم يفرق رحمه الله تعالى بين ما هو من قبيل خبر الآحاد، أو التواتر. فدل ذلك على أن الإمام أبا حنيفة يرى الاحتجاج بجميع ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذلك خبر الآحاد الذي لا يحتج به القاري .

فالقاري حينما يرد أخبار الآحاد يخالف إمام مذهبه، الإمام أبو حنيفة، بل ويخالف أصحابه الأوائل كأبي يوسف^(٢)، ومحمد بن الحسن^(٣).

قال الإمام الطحاوي^(٤) فيما ذكره عن الإمام أبي حنيفة وصاحبيه

(١) المصدر السابق (١٩٠-١٩٢) .

(٢) هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، القاضي الكوفي، صاحب أبي حنيفة. ولد سنة (١١٣هـ). قال ابن معين: كان أبو يوسف القاضي يميل إلى أصحاب الحديث كثيراً، وكتبنا عنه ولم يزل الناس يكتبون عنه. مات سنة (١٨٣هـ). انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (٢٠١/٩-٢٠٢)، وميزان الاعتدال للذهبي (٤٤٧/٤)، والسير (٥٣٥/٨) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني الكوفي، فقيه العراق. ولد سنة (١٣٢هـ)، أخذ العلم عن أبي حنيفة، ومالك، وأبي يوسف، وغيرهم. مات بري سنة (١٨٩هـ). انظر: السير (١٣٤/٩) .

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحنظلي المصري الطحاوي، نسبة إلى طحا، قرية من قرى الصعيد بمصر. ولد سنة (٢٣٩هـ). قال عنه ابن كثير رحمه الله: صاحب المصنفات المفيدة، والفوائد الغزيرة، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة. توفي في مستهل ذي القعدة سنة (٣٢١هـ).

انظر: السير (٢٧/١٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٤٧/١١).

الإمامين أبي يوسف ومحمد - رحمهم الله - في أحاديث الرؤية: (وكل ما جاء من ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد الله تعالى، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا)^(١).
وقال أيضاً في موضع آخر: (وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق)^(٢).

فمن خلال هذين النصين نعلم أن الإمام أبا حنيفة وصاحبيه يرون أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ يستدل به على إثبات العقيدة دون قيد التواتر. وبهذا يتبين لنا أن الماتريدية على العموم والقاري على الخصوص مخالفون لمنهج إمامهم وأصحابه الأوائل^(٣) بل ومخالفون لمنهج السلف الصالح .

* * * * *

القاعدة الثالثة : تقديم النقل على العقل عند توهم التعارض.

هذه القاعدة التي ذكرها القاري أصل من أصول أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهج السلف الصالح، فالسلف الصالح يقدمون الشرع على العقل عند توهم التعارض^(٤)، فهذه القاعدة من المسلمات عند اتباع

(١) العقيدة الطحاوية بتعليق العلامة ابن مانع (٩) .

(٢) المصدر السابق (١٧) .

(٣) انظر: الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات للشمس الأفغاني رحمه الله (٧٥/٢-٧٩) .

(٤) هذه القاعدة التي مفادها أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح هي التي بنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابه العظيم "درء تعارض العقل والنقل" فمن رام البسط في هذه المسألة فعليه بهذا الكتاب.

السلف الصالح، وإلا في الحقيقة ليس ثمة تعارض بين الشرع والعقل؛ لأن من عرف قول الرسول، ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل، قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إليّ من حفظه، أي: "معرفة" بالتمييز بين صحيحه وسقيمه، "والفقه فيه" معرفة مراد الرسول ﷺ، وتنزيله على المسائل الأصولية، والفرعية أحب إليّ من أن يحفظ من غير معرفة وفقه. وهكذا قال علي بن المديني^(١) وغيره من العلماء فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول ﷺ، أو بلفظ ثابت عن الرسول ﷺ وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أتى من قبل نفسه^(٢).

فالذين زعموا تقديم العقل على الشرع عند تعارضهما إنما أتوا من قبل جهلهم بحكم العقل ومقتضى السمع، فظنوا ما ليس بمعقول معقولاً، وهو في الحقيقة شبهات توهم أنه عقل صريح وليست كذلك، أو من جهلهم بالسمع، إما لنسبتهم إلى الرسول ما لم يردّه بقوله، وإما لعدم تفريقهم بين ما لا يدرك بالعقول وبين ما تدرك استحالته بالعقول، فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظن التعارض بين السمع والعقل :

أحدها : كون القضية ليست من قضايا العقول .

(١) هو الإمام الحجة، أمير المؤمنين في الحديث، أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر نجاشي السعدي، مولاهم البصري المعروف بابن المديني. قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علماً في الناس في معرفة الحديث والعلل. وقال البخاري: ما استصغرت نفسي عند أحدٍ إلا عند علي بن المديني. ولد سنة (١٦١هـ)، ومات سنة (٢٣٤هـ) .

انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٩٣/٦-١٩٤)، والسير (٤١/١١-٦٠)، والعيبر (٣٢٩/١).

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٨١/١٢) .

الثاني : كون ذلك السمع ليس من السمع الصحيح المقبول .

الثالث : عدم فهم مراد المتكلم به .

الرابع : عدم التمييز بين ما يحيله العقل وما لا يدركه ^(١) .

فصريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول؛ لأن الأصل في الدين الاتباع، والمعقول تبع ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي ولقال من شاء ما شاء ^(٢) .

فمنهج السلف وطريقتهم إخضاع العقل للشرع خلافاً لما عليه أهل الكلام: من المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية الذين قدموا المعقول على المنقول ^(٣)، وحاولوا تأويل النصوص لتوافق معقولهم الفاسد، الذي من قبله حصل لهم الحيرة والاضطراب؛ ولهذا يقول الفخر الرازي ^(٤) :

نهاية اقدم العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسمونا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عيلاً ولا تُروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات:

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٥٩) .

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/٣١٥) .

(٣) انظر: المستصفى للغزالي (٢/١٣٧، ١٣٨)، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي (٥١) .

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، يُلقب بفخر الدين الرازي، ويُعرف بابن الخطيب، وبابن خطيب الري. ولد سنة (٥٤٤هـ). وتوفي سنة (٦٠٦هـ). قال الذهبي عنه: (وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم، وسحر، وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر). انظر: السير (٢١/٥٠٠-٥٠١) .

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١)، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾^(٢). وقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣)، ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٤). من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي^(٥).

وقال أبو المعالي الجويني^(٦): (لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته، فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أُمي)^(٧).

فهؤلاء الحيارى هم الذين قدموا العقل على الشرع، وهذه نتيجة لهم الحيرة والاضطراب، والشك، أمّا أهل السنة والجماعة، اتباع السلف الصالح، الذين قدموا المنقول على المعقول فإنهم ولله الحمد والمنة لم يحصل عندهم اضطراب ولا شك ولا حيرة؛ وما ذاك إلا لأنهم عملوا بالشرع والعقل، وقدموا الشرع على العقل، وعلموا أن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول .

وهنا سؤال مفاده: هل القاري يوافق السلف الصالح في تطبيق هذه

(١) سورة طه، آية (٥) .

(٢) سورة فاطر، آية (١٠) .

(٣) سورة الشورى، آية (١١) .

(٤) سورة طه، آية (١١٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠١/٢١) .

(٦) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، أبو المعالي الجويني، الملقب بإمام الحرمين. ولد سنة (٤١٩هـ)، وتوفي سنة (٤٧٨هـ). من تصانيفه: "الشامل في أصول الدين"، و"البرهان في أصول الفقه"، و"العقيدة النظامية".

انظر: البداية والنهاية (١٢/١١٤-١١٥)، والسير (٤٦٨/١٨-٤٧٧) .

(٧) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٣)، والسير (٤٧١/١٨) .

القاعدة في جميع النصوص الشرعية ؟.

تفصيل الجواب عن هذا السؤال في الفصل الثاني من باب الأسماء والصفات، ولكن أجمل الجواب هنا لمنهج التطبيق عند القاري .

القاري اتفق مع السلف في تطبيق هذه القاعدة في بعض الصفات: كصفة المحبة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر. وخالفهم في بعضها الآخر: كصفة العلو، والكلام، والنزول، والاستواء، والضحك، والقدم، ونحو ذلك من الصفات حيث أولها، أو فوضها، وأتى بشبه أهل الكلام المذموم تجاه هذه الصفات، كما يأتي بيانه -بمشيئة الله تعالى- في فصل الصفات .

فالقاري لو عمل بهذه القاعدة العظيمة في جميع النصوص الشرعية لسلم من الاضطراب كما يأتي بيانه في مسائل هذه الرسالة بمشيئة الله تعالى .

* * * * *

الباب الثاني

عقيدة القاري في توحيد الربوبية

وفيه ثلاثة فصول :-

- ❖ الفصل الأول : تعريف التوحيد .
- ❖ الفصل الثاني : معرفة الله ﷻ .
- ❖ الفصل الثالث : دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته .

* * * * *

الفصل الأول

تعريف التوحيد

☞ وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: تعريف التوحيد لغة .
- المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً .
- المبحث الثالث: تعريف توحيد الربوبية .

* * * * *

المبحث الأول : تعريف التوحيد لغة .

قال القاري: (التوحيد في اللغة الحكم، والعلم بأن الشيء واحد)^(١).

هذا الذي قرره القاري في تعريف التوحيد في اللغة موافق لما قرره علماء اللغة، فكلمة التوحيد تدور معانيها على الوحدة، والانفراد، والتفرد .

قال الجوهري^(٢) رحمه الله :

(الوَحْدَة : الانفراد. تقول: رأيتُه وحده .

وهو منصوبٌ عند أهل الكوفة على الظرف، وعند أهل البصرة على المصدر في كل حال، كأنك قلت: أَوْحَدْتُهُ برؤيتي إيجاداً، أي لم أر غيره، ثم وضعتُ وحده هذا الموضع)^(٣).

وقال ابن فارس^(٤) رحمه الله : (وَحَدَ : الواو، والحاء، والdal: أصل

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٦) .

(٢) هو إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي، أحد من يُضرب به المثل في ضبط اللغة، كان يحب الأسفار والتغرب، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عادَ إلى خراسان، فأقام بنيسابور يُدرِّس ويصنف فصنف الصحاح، مات متردياً من سطح داره بنيسابور سنة (٣٩٣هـ).

انظر: السير (٨٠/١٧-٨٢)، ولسان الميزان لابن حجر (٤٠٠/١-٤٠٢)، والأعلام (٣١٣/١).

(٣) الصحاح (٥٤٧/٢-٥٤٨) .

(٤) هو أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني الشافعي ثم المالكي، الإمام العلامة اللغوي المحدث، كان رأساً في الأدب بصيراً بفقهِ مالك، له معجم المقاييس، ومجمل اللغة، وحلية الفقهاء. توفي سنة (٣٩٥هـ) .

واحد يدل على الانفراد من ذلك الوَحْدَة. وهو واحدٌ قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله، قال:

يا واحد العُرب الذي ما في الأنام له نظير ^(١)

وقال ابن منظور ^(٢) رحمه الله :

(وحكى سيويه ^(٣) : الواحدة في معنى التوحد، وتوحدَ برأيه: تفرد به ودخل القومُ موحدَ موحد، وأحادَ أحاد أي فرادى، واحداً واحداً معدول عن ذلك) ^(٤).

وقال الراغب الأصفهاني ^(٥) رحمه الله : (الوَحْدَة: الانفراد. والواحدُ

==

انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/١٠٣-١٠٦)، ومعجم الأدباء (٤/٨٠-٩٨)، والدياج المذهب لابن فرحون (٩٤) رقم (٣٠)، وشذرات الذهب (٣/١٣٢-١٣٣).

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/٩٠).

(٢) هو أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، إمام في اللغة، ولد بمصر، وقيل بطرابلس الغرب سنة (٦٣٠هـ—)، من آثاره لسان العرب، مختصر تاريخ بغداد للسمعاني. توفي سنة (٧١١هـ).

انظر: الأعلام (٧/١٠٨)، ومعجم المؤلفين (١٢/٤٦).

(٣) أبو البشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري، إمام النحو، حجة العرب، طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، توفي سنة (١٨٠هـ).

انظر: السير (٨/٣٥١-٣٥٢)، وشذرات الذهب (١/٢٥٢-٢٥٥).

(٤) لسان العرب (٣/٤٤٩).

(٥) هو الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني الملقب بالراغب أبو القاسم، صاحب التصانيف، كان عالماً مفسراً حكيماً أديباً لغوياً له المفردات، والذريعة إلى مكارم الشريعة. توفي سنة (٥٠٢هـ—). انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠-١٢١)، وبغية الوعاة

==

في الحقيقة الذي لا جزء له البتة، ثم يُطْلَقُ على كل شيء موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح وصفه به فيقال: عشرةٌ واحدةٌ، ومائةٌ واحدةٌ، وألفٌ واحدٌ^(١).

* * * * *

==

للسيوطي (٢٩٧/٢)، وكشف الظنون (٣٦/١، ١٣١، ٣٧٧، ٤٧٧، ٤٦٢)، وهديّة العارفين (٣١١/١).

(١) المفردات في غريب القرآن (٥٣٠)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٧٢٠).

المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً.

قال القاري في تعريف التوحيد شرعاً :

(التوحيد : اعتقاد أن لا شريك له في الإلهية، والصفات الذاتية، والفعلية، واستحقاق العبودية بمقتضى النعوت الربوبية) ^(١).

هذا التعريف الذي ذكره القاري من أجمع التعاريف لكلمة التوحيد في الشرع لاشتماله على أنواع التوحيد الثلاثة .

فقوله: (اعتقاد أن لا شريك له في الإلهية) هذا يشمل توحيد الألوهية الذي يسمى بتوحيد القصد والطلب .

وقوله: (الصفات الذاتية والفعلية) هذا يتناول توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: (بمقتضى النعوت الربوبية) هذا يتناول توحيد الربوبية الذي هو إفراد الله ﷻ بأفعاله .

قال السفاريني ^(٢) رحمه الله : (التوحيد الشرعي: هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً) ^(٣).

(١) شرح الشفاء (٥١٩/١) .

(٢) هو العلامة أبو العون شمس الدين محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني، نسبته إلى سفارين، قرية من قرى نابلس بفلسطين، ولد بها ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها حتى صار عالماً بالحديث والأصول والأدب. توفي بنابلس سنة (١١٨٨هـ). من مصنفاته "لوائح الأنوار السنية ولوائح الأفكار السنية"، و"كشف اللثام شرح عمدة الأحكام".

انظر: الأعلام للزركلي (١٤/٦)، والرسالة المستطرفة للكتاني (٧٣) .

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية (٥٧/١) .

فقوله: (أفراد المعبود بالعبادة) هذا يتناول توحيد الألوهية -العبادة- الذي يسمى بتوحيد القصد والطلب .

وقوله: (مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً) هذا يتناول لنوعي توحيد الربوبية والأسماء والصفات، الذي يُسمى بتوحيد المعرفة والإثبات .
إذا فالتوحيد في الشرع ورد على نوعين^(١) :

الأول : توحيد القصد والطلب . وهذا النوع يُسمى بتوحيد الألوهية، ويُسمى بتوحيد العبادة، فباعتبار إضافته إلى الله يقال له توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى العابد يقال له توحيد العبادة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّغُوتَ ۚ ﴾^(٢) .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۚ ﴾^(٣) .

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ ﴾^(٤)، وهكذا قال كل نبي لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ ﴾ .

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة،

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/٣٣)، (٣/٤٦٨-٤٦٩) .

(٢) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٣) سورة الأنبياء، آية (٢٥) .

(٤) سورة هود، آية (٥٠) .

وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» (١).

وفي رواية: «بني الإسلام على خمسة: على أن يوحدوا الله...» (٢).

وفي رواية: «بني الإسلام على خمس: على أن يُعبد الله ويُكفر بما دونه» (٣).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى....» (٤).

وفي رواية: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله...» (٥).

وفي رواية: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله...» (٦).

فهذه الروايات يفسر بعضها بعضاً، فلفظ التوحيد المراد به العبادة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (١/٢٠/ رقم ٨).

ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١/٤٥/ رقم ١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١/٤٥/ رقم ١٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد

الله تبارك وتعالى (٤/٣٧٨/ رقم ٧٣٧٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة

(١/٤٥٠-٤٥١/ رقم ١٤٥٨).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين (١/٥٠/ رقم ١٩).

الثاني : توحيد المعرفة والإثبات. وهذا يراد به نفي الشراكة عن الله ﷻ في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾^(١).

قال ابن قيم الجوزية: (فسورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب -تعالى- من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، وغناه وأحديته، ونفي الكيف المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يُبين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن)^(٢).

نخلص مما سبق أن تعريف التوحيد في الشرع هو :

إفراد الله ﷻ بما يختص به من الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات^(٣).

من خلال هذا التعريف يظهر لنا أن التوحيد ينقسم إلى قسمين باعتبار، وينقسم إلى ثلاثة أقسام باعتبار .

(١) سورة الإخلاص .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣١٦/١) .

(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد لشيخنا ابن عثيمين رحمه الله (٨/١) .

فتقسيمه إلى قسمين: باعتبار إضافته إلى العبد .

فنقول: توحيد المعرفة والإثبات، وهذا يتناول إثبات ذات الله ﷻ وأسمائه وصفاته .

ونقول: توحيد القصد والطلب، وهذا يتناول توحيد العبادة .

وأما تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، فذلك باعتبار إضافته إلى الله ﷻ .

فتوحيد الربوبية: مشتق من كلمة "رب" ، أي: إثبات أن الله ﷻ هو الخالق الرازق، المحيي المميت إلخ .

وتوحيد الألوهية: هو نفسه توحيد القصد والطلب، وهو أفراد الله بالعبادة.

وتوحيد الأسماء والصفات: أي إثبات أسماء الله ﷻ وصفاته .

وهذا التقسيم لأنواع التوحيد الذي ذكره أهل العلم هو نتيجة لاستقراء النصوص الشرعية، وقد أشار القاري إلى هذه الأنواع الثلاثة كما في تعريفه المتقدم، بل إنه نص على هذه الأنواع الثلاثة حيث قال :

(أقول: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين، يشير إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب على توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعي التوحيد، بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوته إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته،

وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في العقبى فهو جزاء توحيدده. وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد، وحقوق أهله، وثنائهم. وفي شأن ذم الشرك وعقوق أهله وجزائهم^(١).

فالقاري من خلال هذا النص الذي بين أيدينا، ومن خلال تعريفه السابق للتوحيد شرعاً. يرى أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهذا موافق لما عليه أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن شنع عليهم في تقسيمهم ذلك، وزعم أن هذا التقسيم لا يُعرف عند السلف البتة، وإنما اخترع هذا التقسيم ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، ومن تأثر بهم، وهذه فرية لا صحة لها من الواقع، بل هذا التقسيم ورد في كلام أئمة السنة قبل ابن تيمية كابن جرير الطبري^(٢)، وابن منده^(٣)،

(١) شرح الفقه الأكبر (٢٢-٢٣)، وانظر أيضاً ذكره لبعض أنواع التوحيد في كل من: الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٤-١٥)، وشرح ضوء المعالي على منظومه بدء الأمالي (٣٠).

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العالم المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، ولد سنة (٢٢٤هـ)، كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، كان حافظاً، عالماً بالقراءات بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها. له مصنفات كثيرة منها: "تهذيب الآثار"، و"أخبار الأمم وتاريخهم"، و"جامع البيان"، وغيرها. توفي سنة (٣١٠هـ). انظر: معجم الأدباء (١٨/٥٠-٩٤)، وغاية النهاية (٢/١٠٦-١٠٨)، والسير (١٤/٢٦٧-٢٨٢).

(٣) هو الإمام الحافظ الجوال محدث العصر، أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، ولد سنة (٣١٠هـ) أو (٣١١هـ) بأصبهان. وهو من أعلام أهل السنة له كتاب "الإيمان" و"الرد على الجهمية". توفي سنة (٣٩٥هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/١٠٣١-١٠٣٦).

والطحاوي، وغيرهم^(١)، ثم شاع هذا التقسيم في كلام العلماء وأشهرها كثيراً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد حفظه الله: (هذا التقسيم الاستقراءى لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخنا الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وقرره الزبيدي^(٢) في تاج العروس، وشيخنا الشنقيطي^(٣) في أضواء البيان في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن^(٤) .

فالقول بتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هو نتيجة لاستقراء النصوص الشرعية. فمن تلك النصوص :

(١) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن جرير (١/١٦٠-١٦١) (١٣/٢٥)، وما ذكره محقق كتاب التوحيد لابن منده في وصفه للكتاب ومباحثه (١/٢٥-٤٢)، وعقيدة الطحاوي مع شرحه لابن أبي العز (١/٢١-٧٥)، والقول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد للشيخ الدكتور: عبدالرزاق العباد (٢٨) وما بعدها .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، عالم في اللغة والحديث والرجال والأنساب، أصله من واسط في العراق، ومولده بالهند، ومنشأه في زييد (باليمن)، ولد سنة (١١٤٥هـ)، وتوفي بالطاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ). من آثاره "تاج العروس في شرح القاموس"، "أسانيد الكتب الستة". انظر: الأعلام (٧/٧٠) .

(٣) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد الحكمي، ولد سنة (١٣٠٥هـ)، حفظ القرآن صغيراً ثم تلقى الفقه وأصوله واللغة وعلومها، حتى أصبح عالماً بالتفسير والأصول والفقه والحديث واللغة والأدب وعلومها، فدرس وعلم وصنف، وأفقي في المسجد النبوي، له مصنفات منها: "أضواء البيان". توفي في مكة بعد الحج سنة (١٣٩٣هـ). انظر: مقدمة أضواء البيان لتلميذه عطية محمد سالم رحمه الله .

(٤) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (٣٠) .

(١) قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ (١) .

قال ابن كثير :

(شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة ... ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣). أي: إنه خالقكم وخالق السموات والأرض (٤)، فدل على أن الكفار يؤمنون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية .

(٢) وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٥) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ أَحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا

(١) سورة البقرة، آية (٢١-٢٢) .

(٢) سورة غافر، آية (٦٤) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٨٨) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لأبي المظفر السمعاني (١/٥٨) .

الضَّلَلُ فَأَنِّي تُصْرَفُونَ^(١).

قال ابن كثير :

(يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بأرائكم وجهلكم .
﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة)^(٢).

(٣) وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴾^(٣).

قال ابن سعدي: (فالله ﷻ يقول لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المكذبين بالبعث العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه وأقروا به، من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، بما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك ... ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم

(١) سورة يونس، آية (٣١-٣٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٦٤٥) .

(٣) سورة المؤمنون، آية (٨٤-٨٩) .

عندكم مستقر في فطر كم ...)^(١).

فهذه الآيات العظيمة تبين أن ثمة فرقاً بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالمشركون أثبتوا توحيد الربوبية، وأقروا به وآمنوا به، بخلاف توحيد الألوهية فإنهم أنكروه كما قال تعالى: عَنْهُمْ ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^(٢).

فتوحيد الألوهية معناه غير توحيد الربوبية، لأن توحيد الألوهية هو إفراد الله بأفعال العبيد - إفراد الله بالعبادة - أما توحيد الربوبية فهو إفراد الله ﷻ بأفعاله ﷻ، فالفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية هو الحق الذي يجب اعتقاده خلافاً لما عليه علماء الكلام الذي خلطوا معنى الألوهية بالربوبية، وظنوا أن توحيد الألوهية معناه لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا مستغني عن كل ما سواه ولا مفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى، فصار توحيد الألوهية عندهم هو توحيد الربوبية، وهذا من أبطل الباطل؛ لأنه ترده النصوص الكثيرة التي فرقت بين الألوهية والربوبية.

فالآيات السابقة ذكرت نوعين من أنواع التوحيد وهو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

أما الآيات التي ذكرت النوع الثالث من أنواع التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات فكثيرة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٧٢/٥).

(٢) سورة ص، آية (٥).

نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ ﴿١﴾

ففي هذه الآية الكريمة إثبات اسم الحي، وصفة الحياة لله ﷻ، واسم (الحي) مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها، ولهذا كان أعظم آية في القرآن ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٢) وهو الاسم الأعظم، فاستلزم جميع الصفات، فلو اكتفى في الصفات بالتلازم لاكتفى بالحي^(٣).

وفي هذه الآية أيضاً إثبات اسم القيوم، وصفة القيومية، ومعنى (القيوم، القائم المقيم لما سواه)^(٤)، فهذان الاسمان ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ يجمعان أصل معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا^(٥).

٢ (وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٦).

هذه الآيات الكريمة، قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فالله -جل وعلا- في أول هذه الآيات أخبر أنه "الله" المسألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وأن كل إله غيره فإنه باطل، لا يستحق من العبادة

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٢) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٣) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣١١/١٨) .

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠٩/٢) .

(٥) انظر: التوسل والوسيلة لابن تيمية (٩٣) .

(٦) سورة الحشر، آية (٢٢-٢٣) .

مثقال ذرة، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، ثم ذكر جملة من أسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا^(١).

فهذه الآيات اشتملت على ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وقد جمع الله ﷻ هذه الأقسام -توحيد الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات في آية واحدة، قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ^٢ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا^(٢)﴾.^(٣)

فقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا توحيد الربوبية .

وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ^٢﴾ هذا توحيد الألوهية الذي يسمى بتوحيد العبادة .

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هذا يتناول توحيد الأسماء والصفات .

وجمعها أيضاً في سورة الفاتحة وفي سورة الناس قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾^(٤)، فذكر الله ﷻ في هذه السورة الألوهية، والربوبية، والملك .

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٤٥/٧) .

(٢) سورة مريم، آية (٦٥) .

(٣) انظر: تقريب التدمرية لشيخنا ابن عثيمين (١٢٥) .

(٤) سورة الفاتحة، آية (٢-٤) .

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾^(١)،
فهذه ثلاثة أوصاف لربنا تبارك وتعالى، ذكرها مجموعة في موضع واحد في
أول القرآن، ثم ذكرها مجموعة في موضع واحد في آخر ما يطرق سمعك
من القرآن^(٢).

فتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هو نتيجة لاستقراء كتاب الله ﷻ
والأدلة الدالة على ذلك كثيرة جداً يطول حصرها .

* * * * *

(١) سورة الناس، آية (١-٣) .

(٢) انظر: مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١/٥-١٢) .

المبحث الثالث : تعريف توحيد الربوبية .

أ (المدلول اللغوي لتوحيد الربوبية .

توحيد الربوبية مركب من كلمتين: مضاف، ومضاف إليه. أما المضاف فقد تقدم الكلام عليه لغة وشرعاً^(١). وأما المضاف إليه وهي كلمة "الربوبية" فهي المقصود في هذا المبحث .

"الرب" في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، يقال رَبَّهُ وَرَبَّاهُ وَرَبَّيَهُ وَرَبَّيَهُ، فالرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الوجودات نحو قوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾^(٢)، وبالإضافة يقال له ولغيره نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤)، ويقال: رب الدار ورب الفرس لصاحبهما^(٥).

وكلمة "الرب" في اللغة تطلق على المالك، وعلى السيد المطاع، وعلى المصلح للشيء .

قال ابن الأنباري^(٦): ("الرب" ينقسم إلى ثلاثة أقسام: يكون الرب

(١) راجع (٨٠) وما بعدها .

(٢) سورة سبأ، آية (١٥) .

(٣) سورة الفاتحة، آية (٢) .

(٤) سورة الصفات، آية (١٢٦) .

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (١٩٠)، والصحاح للجوهري (١٣٠/١).

(٦) هو الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري المقرئ

المالك، ويكون الرب السيد المطاع، قال تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا﴾^(١)، أي: سيده، ويكون الرب المصلح، رب الشيء إذا أصلحه^(٢).

فهذه ثلاث معاني ترجع إليها كلمة الرب .

١ المعنى الأول: المالك والصاحب :

قال الجوهري: (رب كل شيء: مالكه)^(٣).

وقال ابن منظور: (ورب كل شيء: مالكه ومستحقه، وقيل صاحبه، ويقال: فلان رب هذ الشيء أي ملّكه له، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هو رب الدابة، ورب الدار، وفلان رب البيت ...)^(٤).

ومن هذا المعنى ما جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في ضالة الإبل: (فذرّها حتى يلقاها ربّها ...)^(٥).

==

النحوي، ولد سنة (٢٧٢هـ). ألف الدواوين الكبار مع الصدق والدين وسعة الحفظ. توفي سنة (٣٠٤هـ). له "كتاب الوقف والابتداء"، و"كتاب المشكل".

انظر: السير (٢٧٤/١٥-٢٧٩).

(١) سورة يوسف، آية (٤١) .

(٢) لسان العرب (١/٤٠٠-٤٠١) .

(٣) الصحاح (١/١٣٠) .

(٤) لسان العرب (١/٣٩٩) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره (١/٤٩-٥٠/رقم ٩١). ومسلم في صحيحه في كتاب اللقطة (٣/١٣٤٦-١٣٤٨/رقم ١٧٢٢).

٤ المعنى الثاني : السيد المطاع :

قال الجوهري: (ربيت القوم: سُستهم أي: كنت فوقهم. قال أبو نصر وهو من الربوبية، ومنه قول صفوان: لأنَّ يَرَبِّي رجل من قريش أحب إلي من أن يَرَبِّي رجل من هوازن)^(١)، يعني أن يكون رباً فوقي وسيداً يملكني^(٢)، ومن هذا المعنى قوله ﷺ في حديث جبريل الطويل: " أن تلد الأمة ربَّها " ^(٣) أي سيدها، قال ابن الأثير^(٤) رحمه الله: (أراد به في الحديث المولى والسيد)^(٥).

٤ المعنى الثالث: المصلح للشيء :

قال ابن فارس: (الرب: المصلح للشيء، يقال: ربُّ فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها)^(٦).

(١) الصحاح (١/١٣٠) .

(٢) لسان العرب (١/٤٠٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (١/٣٣/رقم ٥٠). ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان (١/٣٦-٣٧/رقم ١).

(٤) هو محمد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير، كان فقيهاً، محدثاً، أديباً، نحويّاً، ورعاً، عاقلاً، مهيباً، ذا برٍّ وإحسان. ولد سنة (٥٤٤هـ)، وتوفي سنة (٦٠٦هـ). من مصنفاته: "جامع الأصول"، و"الشافي في شرح مسند الشافعي".

انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (١/٧٠-٧١)، والأعلام للزركلي (٥/٢٧٢-٢٧٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث (٢/١٧٩) .

(٦) معجم مقاييس اللغة (٢/٣٨١) .

وقال الجوهري: (ربّ الضيعة أي: أصلحها وأتمّها، وربّ فلان ولده
يَرْبُهُ رَبًّا وَرَبِّهٖ، وَتَرْبِيَّهٖ، بمعنى أي رَبَّاهُ ...)^(١).

* * * * *

ب (المعنى الاصطلاحي لتوحيد الربوبية .

توحيد الربوبية : هو إفراد الله ﷻ بالخلق، والمملك، والتدبير^(٢).

فمن أقر بأن الله - تعالى - رب كل شيء، ومالكه، وخالقه، ورازقه،
وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي
له الأمر كله، ويده الخير كله، القادر على كل شيء، ليس له في ذلك شريك
ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر فقد حقق توحيد الربوبية^(٣).

فالرب ﷻ هو المالك المدبر المعطي المانع الضار، الخافض الرافع، المعز
المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره
فقد أشرك بربوبيته^(٤).

إذاً نخلص من ذلك إلى أن توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله - يعني
اعتقاد أن الله جل وعلا - واحد في أفعاله، واحد في خلقه لا شريك له، واحد
في جميع معاني الربوبية فهو سبحانه المتفرد بالخلق، والرزق، وبالإحياء،
والإماتة، وتدبير الأمر، وتصريف الملكوت، ونحو ذلك من معاني الربوبية .

* * * * *

(١) الصحاح (١/١٣٠) .

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد لشيخنا ابن عثيمين رحمه الله (٩/١) .

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان التيمي (٣٣) .

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٩٢/١) .

الفصل الثاني

معرفة الله ﷻ

وفيهِ ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: أقوال القاري في معرفة الله ﷻ .
- المبحث الثاني: عرض القضايا التي وردت في كلام القاري على مذهب السلف .
- المبحث الثالث: الميثاق الأزلّي .

* * * * *

المبحث الأول : أقوال القاري في معرفة الله .

قال القاري - رحمه الله - في " شرحه على الفقه الأكبر " ^(١) : (فوجود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ^(٢) ، ويومئ إليه حديث " كل مولود يولد على فطرة الإسلام " ^(٣)) ^(٤) .

وقال أيضاً : (المقصود من كلمة التوحيد نفي كون الشيء يستحق العبودية وإثبات الربوبية لمن له استحقاق الألوهية ، وإلا فالكفار كانوا عارفين للوجود ومغايرته لما سواه كما أخبر به ﷺ عنهم بقوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ^(٥) أي : أوجد العلويات والسفليات من حيز العدم إلى صفحة الوجود ، ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(٦) أي : الذات الواجب الوجود المستجمع

(١) في صحة نسبة كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة خلاف بين أهل العلم ، فقد نسبته الذهبي في العلو للعلي الغفار (١٠١) لأبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي . وانظر : كتاب العبر في خبر من غير للذهبي أيضاً (٢٥٨/١) . وانظر حول إسناد الكتاب لأبي حنيفة كتاب أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة للدكتور الخميس (١١٦-١٢٣) . وعلى كل حال سواء صحت نسبة الكتاب للإمام أبي حنيفة أو لم تصح فالبحث هنا ليس في كلام الإمام وإنما في كلام من شرح كلامه وهو ملا علي قاري .

(٢) سورة الروم ، آية (٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (٤١٧/١ رقم ١٣٥٩) . ومسلم في صحيحه في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٠٤٧/٤ رقم ٢٦٥٨) .

(٤) شرح الفقه الأكبر (٢٣-٢٤) ، (٨٣-٨٤) .

(٥) سورة لقمان ، آية (٢٥) .

(٦) سورة لقمان ، آية (٢٥) .

لصفات الجلال والكمال من الكرم والجود (١).

وقال أيضاً في تفسيره المسمى بـ "أنوار القرآن وأسرار الفرقان" عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢): (فطرة الله أعني خلقة الله أو ألزموا فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي ملة الإسلام، فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا تبدلوا خلقته) (٣).

وقال أيضاً: (﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا تبدلوه إشارة إلى أن النفي معناه النهي) (٤).

وقال أيضاً عند شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج (٥) البهيمة بهيمة جمعاء (٦) هل تحسون فيها من جدعاء (٧)؟ ثم يقول:

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٤-١٥) .

(٢) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٨٤)، وانظر أيضاً: تفسير الجمالين على الجلالين (١٤٠/٢).

(٤) تفسير الجمالين على الجلالين (١٤٠/٢) .

(٥) تنتج: أي تلد، يقال: نتجت الناقة إذا ولدت فهي منتوجة. النهاية لابن الأثير (١٢/٥).

(٦) الجمعاء: السليمة من العيوب المجتمعة الأعضاء. المرجع السابق (٢٩٦/١).

(٧) الجدع: قطع الأنف، والأذن، والشفة، وهو بالأنف أخص، فإذا أطلق غلب عليه. المرجع السابق (٢٤٦/١).

﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(١).

وقال أيضاً : (وفي معنى هذا الحديث " خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم ")^(٢)، والمعنى ما أحد يولد إلا على هذا الأمر الذي هو تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلّة والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك على تمكّنه وتهيؤه المذكورين لاستمر على الهدى والدين ولم يفارقه إلى غيره؛ لأن حسنه ركز في النفوس، فلم يقع لها عدول عنه إلا لآفة بشرية، أو تقليد للغير، ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾^(٣)، فجعل الهدى رأس المال الحاصل عندهم ثم عرضه للزوال ببذله في أخذهم الضلالة البعيدة عنهم)^(٤).

وقال أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٥): (والمعنى إنما ندعوكم إليه وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة الظاهرة عليه كما أشار إليه بقوله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٦)).

وقال أيضاً: (الفطرة تدل على نوع من الابتداء والاختراع الذي هو

(١) سبق تحريجه (١٠١) .

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٧/ رقم ٢٨٦٥) .

(٣) سورة البقرة، آية (١٦) .

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/١٦١) .

(٥) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

(٦) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٠٠/ب ، ٤٠١/أ) .

معنى الفطرة كالجلسة (١).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.....﴾ (٢): (أي: أبداع العلويات والسفليات من الموجودات) (٣).

وقال في موضع آخر: (أي: مبديهما ومبدعهما ومخترعهما لا عن مثال سبق فيهما) (٤).

من خلال هذا العرض الذي نقلته من كلام القاري - رحمه الله تعالى - أخلص إلى أنه نبه على قضايا مهمة :
القضية الأولى : معنى الفطرة لغة وشرعاً .

القضية الثانية : موافقة القاري لمذهب السلف في فطرية معرفة الله ﷻ .
القضية الثالثة : إرسال الرسل لم يكن لتقرير توحيد الربوبية بل لتقرير توحيد الألوهية .

وكل هذه القضايا التي نبه عليها القاري تدل دلالة واضحة على أن معرفة الله ﷻ فطرية - وسوف يأتي بيان ذلك بمشيئة الله ﷻ - والكلام مع القاري سيكون من خلال هذه القضايا .

* * * * *

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/١٦١-١٦٢) .

(٢) سورة الأنعام، آية (٧٩) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢١٢/أ) .

(٤) المصدر السابق .

المبحث الثاني : عرض القضايا التي وردت في كلام القاري على مذهب السلف .

له وفيه ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول: معنى الفطرة .
- المطلب الثاني: موافقة القاري لمذهب السلف في فطرية معرفة الله ﷻ .
- المطلب الثالث: إرسال الرسل لم يكن لتقرير توحيد الربوبية بل لتقرير توحيد الألوهية -العبادة- .

* * * * *

المطلب الأول : معنى الفطرة .

(١) الفطرة في اللغة : -

تكلم القاري - رحمه الله تعالى - عن معنى الفطرة في اللغة وذكر أن المراد بها الخلقة والاختراع والابتداع، وهذا الذي قرره القاري - رحمه الله تعالى - هو ما قرره علماء اللغة :

قال الجوهري رحمه الله تعالى :

(الفطرة بالكسر: الخِلقة، وقد فَطَرَ يَفْطُرُهُ بالضم فطرًا، أي: خلقه) ^(١).

وقال ابن فارس رحمه الله تعالى :

(فطر: الفاء والطاء والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه ... والفطرة: الخِلقة) ^(٢).

وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى :

(الفطرُ: الابتداع والاختراع، والفِطرة الحالة كالجلسة والركبة...) ^(٣).

إذاً الفطرة في اللغة: هي الابتداع والاختراع والخلقة .

(١) الصحاح (٢/٧٨١) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/٥١٠) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٣/٤٥٧)، وانظر: لسان العرب لابن منظور (٥/٥٨) .

٢ (الفطرة في الشرع :

اختلف أهل العلم في معنى الفطرة التي جاء ذكرها في الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾^(١)، وحديث "ما من مولود إلا يولد على الفطرة..."^(٢) على أقوال.

ومن أجمع من ذكر هذه الأقوال ابن عبد البر^(٣) كما في "التمهيد"^(٤)، ونقلها عنه جمع من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل"^(٥).

وكذلك تلميذه ابن قيم الجوزية في كتابيه "أحكام أهل الذمة"^(٦) و"شفاء العليل"^(٧).

والمقام هنا لا يقتضي عرض تلك الأقوال ومناقشتها^(٨)، ولكن الذي

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) سبق تخريجه (١٠١) .

(٣) هو شيخ الإسلام، حافظ المغرب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ولد سنة (٣٦٨هـ). قال أبو الوليد الباجي: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث. توفي سنة (٤٦٣هـ). له من المصنفات: "التمهيد"، "الاستدكار".

انظر: تذكرة الحفاظ (٣/١١٢٨-١١٣٢)، والأعلام للزركلي (٨/٢٤٠) .

(٤) التمهيد (١٨/٦٨-٩٥) .

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٨٤) وما بعدها .

(٦) (٢/٥٦٨) وما بعدها .

(٧) (٢/٢٩٧) وما بعدها .

(٨) ومن أراد الاطلاع على تلك الأقوال، فعليه بكتاب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية

(٨/٣٨٤) وما بعدها، فقد ناقش تلك الأقوال وبين الراجح منها .

يهمنا هنا هو رأي القاري - رحمه الله - في معنى الفطرة التي ورد ذكرها في نصوص الكتاب والسنة .

القاري يفسر الفطرة بالإسلام، ولهذا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾^(١): (فطرت الله وهي ملة الإسلام فإنهم لو خلّوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها)^(٢).

وقال عند شرحه لحديث " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ... " ^(٣): (وفي معنى هذا الحديث " خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم " ^(٤)) والمعنى ما أحد يولد إلا على هذا الأمر الذي هو تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلية والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك على تمكنه وتهيؤ المذكورين لاستمر على الهدى والدين ولم يفارقه إلى غيره؛ لأن حسنه ركز في النفوس فلم يقع لها عدول عنه إلا لآفة بشرية أو تقليد للغير ...) ^(٥).

فالقاري من خلال هذين النصين نراه يفسر الفطرة بالإسلام، وهذا موافق لما عليه السلف .

(١) قال مجاهد - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ... ﴾

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٨٤) .

(٣) سبق تخريجه (١٠١) .

(٤) سبق تخريجه (١٠٣) .

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/١٦١) .

قال : (الإسلام) ^(١) .

٢ (وقال عكرمة ^(٢) - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ قال : (الإسلام) ^(٣) .

٣ (وقال محمد بن نصر المروزي : (إن آخر قولي الإمام أحمد بن حنبل أن المراد بالفطرة الإسلام) ^(٤) .

٤ (وممن فسر الفطرة بالإسلام البخاري - رحمه الله - حيث قال في صحيحه : باب ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ لدين الله (خلق الأولين) دين الأولين، والفطرة : الإسلام ^(٥) .

وممن فسر الفطرة بالإسلام : الحسن ^(٦) ، وإبراهيم

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٤٠/٢١) .

(٢) هو عكرمة، أبو عبدالله مولى ابن عباس تابعي جليل، أصله بربري، كان ثقة ثباتاً عالماً بالتفسير، توفي سنة (١٠٤هـ) وقيل بعد ذلك .

انظر : الطبقات لابن سعد (٣٣١/٢) و(٢٨٢/٧)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/٧-٩)، وسير أعلام النبلاء (١٢/٥-٣٦) .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٤١/٢١) .

(٤) نقلاً من درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٨٩/٨-٣٩٠) .

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله (٢٧٥/٣) .

(٦) هو الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري، ولد سنة (٢١هـ)، وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، كان زاهداً في الدنيا فصيحاً، قال الشافعي : لو أشاء أقول إن القرآن نزل بلغته الحسن لقلت لفصاحته . ومناقبه جلييلة، وأخباره طويلة، توفي سنة (١١٠هـ)، وقد قارب التسعين عاماً . انظر : الطبقات لابن سعد (١٥٦/٧)، وغاية النهاية لابن الأثير الجزري (٢٣٥/١) رقم (١٠٧٤)، ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (٦٥/١) رقم (٢١)، والسير للذهبي أيضاً (٥٦٣/٤-٥٨٨) .

النخعي^(١)، والضحاك^(٢)، والزهري^(٣).

* * * * *

(١) هو فقيه العراق أبو عمران، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، اليماني، ثم الكوفي، أحد الأعلام، كان بصيراً بعلم ابن مسعود رضي الله عنه، واسع الرواية فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن. ولد سنة (٥٠هـ)، توفي سنة (٩٥ أو ٩٦هـ).

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٠١)، والسير (٥٢٠/٤-٥٢٩).

(٢) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم، ويقال: أبو محمد الخراساني، من أتباع التابعين، سمع من سعيد بن جبير وأخذ عنه التفسير، وكان عابداً معلماً للصبيان بدون أجر. توفي سنة (١٥٠هـ). انظر: غاية النهاية (٣٣٧/١)، وطبقات ابن سعد (٤١٧/٨) و(٣٧٣/٩)، وتهذيب الكمال (٢٩١/١٣-٢٩٧)، وسير أعلام النبلاء (٥٩٨/٤-٦٠٠).

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٧٢/١٨).

المطلب الثاني : موافقة القاري لمذهب السلف في فطرية معرفة الله ﷻ .

إن الإيمان بوجود الله ﷻ مركز في فطر الخلق؛ وما ذاك إلا لأن الله ﷻ أظهر وأبين من أن يجهل فيطلب الدليل على وجوده، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟! وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل)^(١)

فالإقرار بوجود الخالق فطري ضروري لا يتوقف على نظر واستدلال إلا عند فساد الفطرة أو تغييرها لتقوم بذلك الحجة على من أنكر وجود الخالق، وإلا فإنه لا يعرف عن أحد أنكر وجود الخالق إلا ما حكى الله ﷻ عن الملك الجبار الذي ناظر إبراهيم الخليل - وهو نمرود البابلي - المعطل المنكر لرب العالمين^(٢). وعن فرعون موسى الذي عرف تجاهله، وتظاهره بإنكار الخالق وقد كان مستيقناً به في الباطن كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾^(٣)، وهؤلاء المنكرون للخالق جميعهم مقرون في قرارة أنفسهم أن الله هو الخالق كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾^{(٤) (٥)}.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية (٧١/١)، وانظر: الصواعق المرسله له (١٢٢١/٤) .

(٢) انظر: تفسير ابن سعدي (٣١٩/١)، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٠٤/٧) .

(٣) سورة الإسراء، آية (١٠٢) .

(٤) سورة النمل، آية (١٤) .

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٨-٣٩)، والفتاوى (٦٣١/٧) .

فالإقرار بالخالق والاعتراف به مستقر في قلوب الخلق، وأنه من لوازم خلقهم ضروري لهم. وهذا ما قرره القاري - رحمه الله - ولهذا يقول: (فوجود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ^(١)) ^(٢).

وقال أيضاً: (المقصود من كلمة التوحيد نفي كون الشيء يستحق العبودية، وإثبات الربوبية لمن له استحقاق الألوهية، وإلا فالكفار كانوا عارفين للوجود ومغايرته لما سواه كما أخبر به ﷺ عنهم بقوله ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ^(٣) أي: أوجد العلويات والسفليات من حيز العدم إلى صفحة الوجود ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ أي: الذات الواجب الوجود المستجمع لصفات الجلال والكمال من الكرم والجود) ^(٤).

وهذا التقرير من القاري - رحمه الله - يبين لنا أنه لم يذهب في هذه المسألة إلى ما ذهب إليه علماء الكلام من المعتزلة وجمهور الأشاعرة والماتريدية الذين أنكروا المعرفة الفطرية التي تحصل ضرورة في قلوب العباد ولأجل إنكارهم للمعرفة الفطرية أوجبوا النظر أو القصد إلى النظر. وكل هذا لكون المعرفة لا تحصل إلا به بزعمهم .

فالقاري - رحمه الله - يقرر أن معرفة الله فطرية، وأن الخلق مفطرون على التوحيد. وهذا الذي قرره القاري هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٣-٢٤، ٨٣-٨٤) .

(٣) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٤) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٤-١٥) .

من الكتاب والسنة وقرّره علماء السلف رحمهم الله تعالى .

الأول : الأدلة من القرآن الكريم :

وردت في كتاب الله ﷻ أدلة كثيرة كلها تؤكد فطرية معرفة الخالق ﷻ فمن ذلك :

(١) قوله تعالى : ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾ ^(١) ، فالله - جل وعلا - في هذه الآية يأمر نبيه ﷺ بإقامة وجهه للدين، وهذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها أي: خلقهم ابتداءً وجبلهم عليها .

(٢) إثبات ميثاق أزلي أخذ على بني آدم قبل خروجهم إلى هذه الدنيا كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ^(٢) ، ففي هذه الآية دلالة على أن الله - جل وعلا - أشهد الناس على أنفسهم بالتوحيد، وهذا الإشهاد يقتضي أن معرفة الخالق من العلوم الفطرية الضرورية .

(٣) قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) ، فهذه الآية تؤكد على أن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به والاعتراف به . فالاعتراف بالخالق ضروري في الفطر السليمة ولكن قد يعرض

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٣) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته وإفراده بالعبادة بأنه فاطر السموات والأرض، أي: الذي خلقهما وأبدعهما من غير مثال سابق^(١).

٤ (لجوء الإنسان وفزعه إلى خالقه ﷻ عند الشدة والحاجة، وهذا مما يؤكد على فطرية معرفة المخلوق بالخالق .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ۚ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرُّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۚ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝﴾^(٤).

فهذه الآيات وما جاء على نحوها فيها تنبيه على أن الناس يعودون عند الشدة والحاجة إلى مقتضى الفطرة التي فطروا عليها، وهذا مما يؤكد على فطرية المعرفة بالخالق جل وعلا .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٨١٣) .

(٢) سورة يونس، آية (١٢) .

(٣) سورة الإسراء، آية (٦٧) .

(٤) سورة الزمر، آية (٨) .

٥ (قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) .

فهذه الآيات وما جاء على نحوها تتضمن تقريراً للناس بأمر تعرفه فطرهم وهو ما غرسه الله فيها من معرفته ^(٤) .

الثاني : الأدلة من السنة النبوية :

قد دلت السنة النبوية على ما دل عليه كتاب الله ﷻ من فطرية المعرفة فمن ذلك :

١ (ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء " ثم يقول

(١) سورة يونس، آية (٣١) .

(٢) سورة العنكبوت، آية (٦١) .

(٣) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٤) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي (٢٥-٢٦) .

أبو هريرة رضي الله عنه : « ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ اللَّاتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ^(١) » ^(٢) .

فهذه الآية التي كان أبو هريرة رضي الله عنه يتلوها عند روايته للحديث مطابقةً تماماً لمعنى الحديث، فالحديث والآية معناهما واحد، وهو أن الناس فطروا على التوحيد، ولهذا بين النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » إلى أن الأبوين يغيران الفطرة التي فطر الناس عليها وهي التوحيد ^(٣) .

(٢) وحديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه أنه قال: « ... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإني أتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » ^(٤) .

فهذا الحديث صريح في أن الله خلق عباده حنفاء، والحنيف: هو المائل إلى الدين المستقيم كما قال تعالى: « ... وَلَٰكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ ^(٥) ^(٦) ، وهذا مما يؤكد أن الناس خلقوا على الإقرار بتوحيد الله، وربوبيته على خلقه، وأن الذي أفسد فطرتهم وصرفهم عن دينهم هم الشياطين .

قال ابن قيم الجوزية في تعليقه على هذا الحديث: (وهذا صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية وأن الشياطين اقتطعتهم بعد ذلك عنها، وأخرجوهم منها

(١) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٢) سبق تخريجه (١٠١) .

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٧٢/٨) .

(٤) سبق تخريجه (١٠٣) .

(٥) سورة آل عمران، آية (٦٧) .

(٦) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (١١٠/٢-١١١) .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَةِ﴾^(١)، وهذا يتناول إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال (٢).

الثالث : أقوال علماء السلف :

إن ثمة أقوالاً كثيرة لعلماء السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم في فطرية المعرفة وأن الخلق مقرون بتوحيد الربوبية، فمن هؤلاء :

(١) ابن عباس رضي الله عنهما حيث فسر قوله تعالى: ﴿... فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) (أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه)^(٤).

(٢) وقال قتادة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (أي: تعلمون أن الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أنداداً؟!)^(٥).

(٣) وقال ابن جرير: (الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها - أي العرب - أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٧) .

(٢) أحكام أهل الذمة (٥٣٢/٢) .

(٣) سورة البقرة، آية (٢٢) .

(٤) تفسير ابن جرير (١٦٤/١) .

(٥) المصدر السابق (١٦٤/١) .

تشرك فيها، فقال جل ثناؤه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)، فالذي هو أولى بتأويل قوله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله وأنه مبدع الخلق، وخالقهم، ورازقهم، نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين، ولم يكن في الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه عني بقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أحد الحزبين، بل مخرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم؛ لأنه تحدى الناس كلهم بقوله ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(٢) أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة، من أنه يعني بذلك كل مكلف عالم بوحدانية الله، وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره، كائناً من كان من الناس عربياً كان، أو أعجمياً، كاتباً، أو أمياً^(٣).

٤ (وقال أبو المظفر السمعاني عند قوله تعالى: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (أي وحدوا الله الذي خلقكم؛ وإنما خاطبهم به لأن الكفار مقرون أن الله خالقهم، والخلق هو اختراع الشيء على غير مثال سابق)^(٤).

٥ (قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(إن الإقرار بالخالق وكماله: يكون فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها)^(٥).

(١) سورة الزخرف، آية (٨٧) .

(٢) سورة البقرة، آية (٢١) .

(٣) تفسير ابن جرير (١/١٦٤) .

(٤) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/٥٦) .

(٥) مجموع الفتاوى (٦/٧٣) . وانظر: نفس المصدر (٢/٦) .

وقال ابن رجب الحنبلي^(١) - رحمه الله - عند شرحه لحديث « البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس »^(٢).
 قال: (وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله، وركز في الطباع محبة ذلك، والنفور عن ضده وقد يدخل هذا في قوله في حديث عياض بن حمار « إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً »^(٣)، وقوله « كل مولود يولد على الفطرة ... »^(٤))^(٥).

* * * * *

(١) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود البغدادي الدمشقي الحنبلي، كان محدثاً حافظاً أصولياً ومؤرخاً. له مصنفات كثيرة منها: "جامع العلوم والحكم"، و"لطائف المعارف". توفي سنة (٧٩٥هـ).

انظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (٢/٥٩-٦٠)، وشذرات الذهب (٦/٣٣٩-٣٤٠)، وذييل ابن عبدالحادي على طبقات ابن رجب (٣٦-٤١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير السر والإثم (٤/١٩٨٠/رقم ٢٥٥٣).

(٣) سبق تخريجه (١٠٣).

(٤) سبق تخريجه (١٠١).

(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/٩٩-١٠٠).

المطلب الثالث : إرسال الرسل لم يكن لتقرير توحيد الربوبية بل لتقرير توحيد الألوهية

من خلال كلام القاري الذي في المبحث الأول يتبين أنه نبه في كلامه على مسألتين مهمتين :

الأولى : أن الإقرار بتوحيد الربوبية مركز في فطر الخلق .

الثانية : أن دعوة الأنبياء عليهم السلام قاطبة كانت لتحقيق توحيد الألوهية.

المسألة الأولى التي نبه عليها القاري هي إقرار الكفار بتوحيد الربوبية ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)، فالمشركون لو لم يكونوا مقرين بمعرفة الخالق لما قررههم الله ﷻ به، ولذا كانت الرسل عليهم السلام يقولون لقومهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٢)، فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين. وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار به^(٣).

فالقاري - رحمه الله تعالى - يرى أن الخلق مقرون بتوحيد الربوبية عارفين للوجود ومغايرته لما سواه، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة كما مر معنا في فطرية المعرفة^(٤).

(١) سورة لقمان، آية (٢٥) .

(٢) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٤١/٨) .

(٤) راجع (١١١) .

المسألة الثانية التي نبه عليها القاري في كلامه السابق: أن دعوة الرسل عليهم السلام كانت لتحقيق توحيد الألوهية؛ لأن المشركين كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية كما سبقت الإشارة إليه في المسألة الأولى. وهذه المسألة سوف أفرد لها بحثاً بمشيئة الله - تعالى - في توحيد الألوهية في الباب الثالث^(١)، فأرجئ الكلام عليها هناك .

ولكن من خلال إشارة القاري لدعوة الرسل عليهم السلام، وأن الرسل إنما أرسلوا لتحقيق توحيد العبادة - كما يأتي بيانه بمشيئة الله تعالى - يتبين لنا أن القاري يقول بفطرية المعرفة - كما سبق بيانه - لأنه لو لم تكن معرفة الله ﷻ ثابتة مستقرة في فطر الخلق لساغ لمعارض الرسل - عليهم السلام - عندما يدعوهم أنبياءهم إلى إفراد الله بالعبادة، أن يقولوا نحن لم نعرف الله أصلاً، فكيف تأمروننا بعبادته؟ فلما لم يحصل ذلك دل على أن المعرفة كانت مستقرة في فطرهم كما قالت لهم رسلهم ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢)، وكما قال تعالى: ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾^(٣).

فالقاري - رحمه الله تعالى - من خلال تنبيهه على هاتين المسألتين يقول بفطرية المعرفة .

* * * * *

(١) انظر: (١٨٥) .

(٢) سورة إبراهيم، آية (١٠) .

(٣) سورة الروم، آية (٣٠) .

المبحث الثالث : الميثاق الأزلي .

وفيه مطالبان :

- المطلب الأول: أقوال القاري في الميثاق .
- المطلب الثاني: عرض أقوال القاري ومناقشته فيها .

* * * * *

المطلب الأول : أقوال القاري في الميثاق .

قال القاري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(١) :
(قد ورد الأحاديث الصحاح بما يدل على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز أهل الجنة والنار بوضعهم بيضاً وسوداً في يمينه ويساره^(٢) . وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ففي حديثين موقوفين على ابن عباس وابن عمر^(٣) - رضي الله عنهم - كما حققهما الثقات من المحدثين^(٤) ، ووافقهما أكثر

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) يأتي تخرجه قريباً .

(٣) هكذا في المخطوطة، والصواب [عن ابن عمرو رضي الله عنهما] .

(٤) أ) حديث ابن عباس رضي الله عنهما ورد مرفوعاً وموقوفاً وكلاهما قد صحت به الأسانيد إلا أن الرواة الذين أوقفوه على ابن عباس أكثر وأثبت كما قاله ابن كثير في تفسيره (٤١٥/٢)، فالمرفوع جاء من طريق جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً كما عند الإمام أحمد في مسنده (٢٧٢/١)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٩/١ رقم ٢٠٢)، والحاكم في المستدرک (٢٧-٢٨/١)، (٥٤٤/٢)، والطبري في تفسيره (٩/١١١-١١٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٨-٥٩/٢)، ولكن جميع الرواة عن كلثوم بن جبر باستثناء جرير رووه موقوفاً، فبعد الوارث بن سعيد وإسماعيل بن إبراهيم بن علي، وربيع بن كلثوم، وحامد بن زيد، كلهم عن كلثوم عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً . فحديث عبدالوارث بن سعيد: أخرجه الطبري في تفسيره (١١١/٩) . وحديث إسماعيل بن إبراهيم بن علي: أخرجه الطبري في تفسيره (١١٢/٩)، وابن سعد في الطبقات (٢٩/١) . وحديث ربيعة بن كلثوم: أخرجه الطبري في تفسيره (١١٢/٩)، وابن سعد في الطبقات (٢٩/١) .

وحديث حماد بن زيد: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٩/١) .

فهؤلاء كلهم رووا الحديث موقوفاً خلافاً لجرير بن حازم الذي رواه مرفوعاً .

السلف، كأبي بن كعب، ومجاهد، وسعيد بن جبير^(١)، وقتادة، والسدي، وغيرهم، ويؤيده ما في الصحيحين عن النبي ﷺ ^(٢) «يقال للرجل من أهل النار: أرأيت لو كان لك جميع الدنيا أكنت مفتديا به؟ فيقول: نعم، فيقال: قد أردت منك أهون من ذلك أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»^(٣).

وقال الحسن البصري وتبعه جمع من الخلف واختاره المعتزلة أن المراد بهذا الإشهاد أنه خلقهم على فطرة الإسلام ونصب لهم دلائل التوحيد في مقام المرام فصارت هذه الخلقة في مقام الابتلاء بمنزلة أنه قيل لهم: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى. لكن لا يخفى أنه لا منع من الجمع ليكون الثاني دال على الأول فتأمل^(٣).

==

انظر في دراسة هذه الطرق والكلام عليها: كتاب فطرية المعرفة لفضيلة الدكتور أحمد سعد حمدان (٥٢-٦٣)، وكتاب أخذ الميثاق، لفضيلة الدكتور عبدالعزيز العثيم رحمه الله تعالى (٢٩-٣٣).

- وأما حديث ابن عمرو رضي الله عنهما فقد روى مرفوعاً وموقوفاً كما عند ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/١١٣).

انظر الكلام على حديث ابن عمرو رضي الله عنهما في: كتاب فطرية المعرفة (٦٧-٧٠)، وكتاب أخذ الميثاق (٣٩-٤٢).

(١) هو أبو محمد سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، ولد في حدر سنة (٤٢هـ)، تابعي مشهور، كان من أصحاب ابن عباس، وكان إماماً عالماً في التفسير والفقه وكان عابداً فقيهاً ورعاً، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ). انظر: الطبقات لابن سعد (٨/٣٧٤)، وحلية الأولياء (٤/٢٧٢)، وتهذيب الكمال (١٠/٣٥٨-٣٧٦)، والسير (٤/٣٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٢/٤٥٢/رقم ٣٣٣٤). وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً (٤/٢١٦٠-٢١٦١/رقم ٢٨٠٥).

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٠/ب)، وانظر: شرح الفقه الأكبر (٨٥-٨٨).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾^(١): (لا يكون لهم عذر أصلاً لوقوع الميثاق أولاً، ونصب الأدلة على الربوبية ثانياً، وإرسال الرسل لتذكير العهد الأول آخرًا)^(٢). وقال أيضاً: (والتذكير به -أي الميثاق- على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس)^(٣).

وقال أيضاً: (قال البيضاوي^(٤) في تفسيره أن معنى الآية أنه نزل تمكين بني آدم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل، وخلق الاستعداد فيهم، وتمكينهم من معرفتها والإقرار بها، منزلة الإشهاد والاعتراف تمثيلاً وتخيلاً فلا قول ثم ولا شهادة حقيقية^(٥). أهـ ، وفيه أن هذا يرجع إلى مذهب المعتزلة وإن كان أصله نقل عن الحسن البصري.

وقال الإمام الرازي: أطبقت المعتزلة على أنه لا يجوز تفسير هذه الآية بهذا الحديث؛ لأن قوله ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ يدل من بني آدم، فالمعنى: وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم فلم يذكر أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً، ولو كان المراد الأخذ من ظهر آدم لقليل من ظهره، وأجاب بأن ظاهر الآية على أنه أخرج الذرية من ظهور بني آدم. وأما أنه أخرج تلك الذرية من ظهر آدم فلا تدل الآية على إثباته ونفيه، والخبر قد دل على ثبوته فوجب القول بهما معاً بأن

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٠/ب) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٩١/١) .

(٤) هو أبو الخير، عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي، من قرية يقال لها: البيضا من عمل شيراز. من تصانيفه: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، و"طوالع الأنوار". توفي سنة (٦٩١هـ).

انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (١٣٦/١)، والأعلام للزركلي (١١٠/٤).

(٥) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي (٣٦٨/١) .

بعض الذر من ظهر بعض الذر والكل من ظهر آدم صوناً للآية والحديث عن الاختلاف^(١).

قال بعض المحققين^(٢): إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم الله - تعالى - في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه، هو المخرج في الأزل من صلبه، وأخذ منهم الميثاق الأول وهو المقالي الأزلي كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني وهو الحالي الإنزالي. والحاصل أن الله - تعالى - لما كان له ميثاقان مع بني آدم، أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقاً آخر أزلياً فقال ما قال من مسح ظهر آدم في الأزل وإخراج ذريته وأخذه الميثاق عليهم. أهـ ، وبهذا يزول كثير من الإشكالات فتأمل فيها حق التأمل^(٣).

وقال أيضاً في موضع آخر من المرقاة عن هذا الجمع: (وهو في غاية التحقيق ونهاية التدقيق)^(٤).

* * * * *

(١) انظر: التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٣٤٨/٧) .

(٢) يقصد العلامة قطب الدين الشيرازي كما نص على ذلك في المرقاة (٣٣٠/١) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٩٢/١) .

(٤) المصدر السابق (٣٣٠/١) .

المطلب الثاني : عرض أقوال القاري ومناقشته فيها .

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الله ﷻ ميثاقين مع بني آدم. أحدهما: تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي. والثاني: المقالي التي لا تهتدي إليه العقول، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد كالأنبياء عليهم السلام .

وهذا مما يؤكد قوله بفطرية المعرفة؛ ذلك لأن ثمة ارتباط بين المعرفة الفطرية، وبين الميثاق الذي أحذه الله ﷻ على بني آدم في عالم الذر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٢) ...)^(٣).

قال الشيخ الألباني رحمه الله : (إننا وإن كنا لا نتذكر جميعاً ذلك الميثاق الرباني ... فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي تشهد فعلاً بأن الله

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢-١٧٣) .

(٢) سورة الروم، آية (٣٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤١٤/٢) .

هو الرب وحده لا شريك له إنما هي أثر ذلك الميثاق، وكأنَّ الحسن البصري - رحمه الله تعالى - أشار إلى ذلك حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعاً «إلا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ... الحديث»، قال الحسن عقبه: ولقد قال الله ذلك في كتابه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ.....﴾ الآية (١).

فالآية الكريمة تقرر بوضوح أن الله ﷻ قد أشهد ذرية آدم على ربوبيته ﷻ فأقروا له بذلك واعترفوا، ثم أشهد على هذا الاعتراف، وسواء كان هذا العهد هو قبل الخروج إلى الدنيا في عالم الذر أو كان عهد الفطرة - على خلاف بين أهل العلم كما ذكره القاري - فإن ذلك لا يؤثر في حدوث المعرفة (٢).

فهذه الآية الكريمة تقرر بوضوح أن معرفة الله ﷻ فطرية وأن الخلق مفطورون على ذلك. وهذا ما قرره القاري في كلامه السابق، ولكن كلامه السابق أجمله في مسألتين وسيكون مناقشته من خلالها :

المسألة الأولى: رأي القاري في إخراج الذرية والإشهاد هل كان حقيقياً أو لا ؟.

المسألة الثانية : هل يمكن أن تفسر آية الميثاق بما ذهب إليه المعتزلة .

* * * * *

١ المسألة الأولى :

رأي القاري في إخراج الذرية والإشهاد هل كان حقيقياً أو لا ؟

القاري - رحمه الله - يرى أن إخراج الذرية من صلب آدم والإشهاد

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٦٣) .

(٢) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها لفضيلة الشيخ الدكتور أحمد بن سعد حمدان (١٧).

عليهم كان حقيقياً، ولهذا قال (والحاصل أن عهد الميثاق ثابت بالكتاب وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ^(١) الآية، وبالسنة وهو الحديث الثابت المروي في المصابيح وغيره وتحقيقهما في كتب التفسير وشروح الحديث المنير على ما بيناه في محلها خلافاً للمعتزلة، حيث حملوا الآية والحديث على المعنى المجازي ^(٢).

وقال أيضاً: (والصحيح أن قولهم "بلى" كان بالنطق وهم أحياء عقلاء) ^(٣).

وقال أيضاً عند شرحه لحديث ^(٤) " لما خلق آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً " ^(٥) من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: ذريتك ... الحديث ^(٥) : (وفي هذا الحديث دليل بين على أن إخراج الذرية كان حقيقياً) ^(٦).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٨٤) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٩١/١) .

(٤) الوبيص: البريق، وقد بَصَّ الشيء يبص ويبيصاً. النهاية في غريب الحديث (١٤٦/٥).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه كتاب تفسير القرآن باب (٨) ومن سورة الأعراف (٢٤٩/٥) رقم (٣٠٧٦)، وابن وهب في القدر رقم (٨)، وابن سعد في الطبقات (٢٧/١)، والحاكم في المستدرک (٣٢٥/٢). وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

(٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٢٣/١) .

مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾ : (الظاهر أن هذا الميثاق الخاص كان يوم الميثاق
العام وهو الملايم لأن يكون شهادة التوحيد والربوبية مقرونة بشهادة النبوة
والعبودية إظهاراً لمرتبه العلية ومنزلته البهية) (٢).

فمن خلال تلك النصوص التي سقتها من كلام القاري يتبين لنا أنه
يرى أن الله أخرج ذرية آدم جملة واحدة في وقت واحد، ثم سأهم عن ربوبيته
فأجابوا بقولهم، وأقروا له، واعترفوا بربوبيته، وهذا الذي ذهب إليه القاري هو
الراجح في هذه المسألة، وقد دلت على ذلك السنة وأقوال الصحابة والتابعين
كما يأتي النقل عنهم .

أ - الأدلة من السنة على أن الإخراج والإشهاد كان حقيقيا :

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق
من ظهر آدم بنعمان -يعني بعرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرهم
بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا
مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾» (٣) (٤).

(١) سورة آل عمران، آية (٨١) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٩٨/أ+ب) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٧٢-١٧٣) .

(٤) سبق تخريجه (١٢٣) .

(٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله يقول: لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك » (١).

قال الحافظ ابن حجر (٢) عن هذا الحديث: (فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾) (٣).

(٣) وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لما خلق الله تعالى آدم مسح على ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي رب! من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود. قال: رب! وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب! زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها لابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته،

(١) سبق تخريجه (١٢٤) .

(٢) هو الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكنانى العسقلاني المصري الشافعي، كان حافظاً محدثاً فقيهاً مؤرخاً شاعراً أديباً. له مصنفات كثيرة منها: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، و"الإصابة في تمييز الصحابة"، و"تهذيب التهذيب" وغيرها. توفي سنة (٨٥٢هـ).

انظر: شذرات الذهب (٧/٢٧٠-٢٧٣)، ومعجم المؤلفين (٢/٢٠-٢٢) .

(٣) فتح الباري (٦/٤٢٥) .

وخطئ آدم فخطئت ذريته « (١) .

(٤) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « خلق الله - تعالى - آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذريته سوداء، كأهم الحمم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي « (٢) .

هذه بعض الأحاديث التي وردت في إخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم، وثمة أحاديث أخرى لم أذكرها مخافة الإطالة (٣) .

ب - الآثار الواردة عند السلف في هذه المسألة :

(١) جاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (٤) الآية، قال: (جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا. اعلّموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً. إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي. وأنزل عليكم كتيبي. قالوا

(١) سبق تخريجه (١٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/٦) واللفظ له، والبخاري في كشف الأستار (٢١/٣) وقال:

إسناده حسن، وصححه الألباني انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٧٧/ رقم ٤٩) .

(٣) انظر بقية هذه الأحاديث والكلام عليها: كتاب أخذ الميثاق، للدكتور عبدالعزيز العثيم رحمه الله

(٧-٥٢)، وكتاب فطرية المعرفة، للدكتور أحمد سعد حمدان حفظه الله تعالى (٣٥-٩٨) .

(٤) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك فأقروا بذلك ... (١).

(٢) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني بعرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿ ١٧٢ ﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢) « (٣) .

(٣) وقال ابن جريج (٤) عن مجاهد، قال : (إن الله لما أخرجهم قال : يا عباد الله أجيئوا الله، والإجابة : الطاعة، فقالوا : أطعنا، اللهم أطعنا، اللهم لييك) (٥).

(٤) وقال عطاء (٦) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٥/٥) واللفظ له، وابن جرير في تفسيره (١١٥/٩)، والحاكم في المستدرک (٣٢٣/٢-٣٢٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢-١٧٣) .

(٣) سبق تخريجه (١٢٣) .

(٤) هو عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي مولا هم المكي، الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم، ثقة حافظ فاضل، كان صاحب تعبد وتحمجد، وأول من دوّن العلم بمكة، له المناسك وغيره. توفي سنة (١٥٠هـ). انظر: الطبقات لخليفة بن خياط (٢٨٣)، وابن سعد في الطبقات (٥٣/٨-٥٤)، وتهذيب الكمال (٣٣٨/١٨-٣٥٤)، والسير (٣٢٥/٦-٣٣٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١٥/٩) .

(٦) هو عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح: أسلم القرشي مولا هم المكي، تابعي جليل، كان ثقة عالماً فقيهاً فاضلاً، وكان من أعلم الناس بمناسك الحج، توفي سنة (١١٤هـ).

انظر: الطبقات لابن سعد (٣٣٢/٢)، (٢٨/٨)، والطبقات لخليفة (٢٨٠)، والتاريخ الكبير

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(١) : (أخرجهم من ظهر آدم حتى أخذ عليهم الميثاق، ثم ردهم في صلبه)^(٢).

وقال ابن جرير في تفسير الآية السابقة: (واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقرّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به)^(٣).

وقال الشنقيطي بعد ذكره لقول الجمهور وهو: (أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^ط قَالُوا بَلَىٰ^ط) ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق ... -ثم قال بعد ذلك- هذا الوجه الأخير -أي قول الجمهور- يدل له الكتاب والسنة^(٤)، ثم بين وجه دلالة الكتاب والسنة على صحة هذا القول .

وقال ابن الأنباري : (مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده)^(٥).

وقال الألباني -رحمه الله- بعد الكلام على رواية ابن عباس في أخذ الميثاق والإشهاد عليه، وترجيحه بأن الإشهاد ثابت قال: (وجملة القول أن

==

(٦/٤٦٣-٤٦٤)، وتهذيب الكمال (٢٠/٦٩-٨٦)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥/٧٨)،

والتقريب (٣٩١) رقم (٤٥٩١) .

(١) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/١١٦) .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/١١٠) .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٣٠١) .

(٥) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٢/٦٠٩) .

الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى كما سبق، وأنه لا تعارض بينه وبين أخذ الميثاق، فالواجب ضمه إليها، وأخذ الحقيقة من مجموعهما ... (١)

فالقول بإخراج الذرية وأخذ الميثاق والإشهاد عليهم هو قول السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلاف بينهم (٢)، وهذا ما ذهب إليه القاري في هذه المسألة .

* * * * *

المسألة الثانية :

هل يمكن أن تفسر آية الميثاق بما ذهب إليه المعتزلة .

القاري لا يرى بأس بأن تفسر آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾ (٣) بما ذهب إليه المعتزلة لظاهر الآية .

ولا يري بأساً أيضاً بأن تفسر بما ذهب إليه جمهور السلف من إخراج الذرية والإشهاد عليهم هناك؛ ولهذا لما ذكر الخلاف في تفسير آية الميثاق، قال: (لكن لا يخفى أنه لا منع من الجمع ليكون الثاني دال على الأول فتأمل) (٤).

وقال أيضاً بعدما ذكر قول الزمخشري (٥) في تفسير آية الميثاق: (لا منع

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٦٢) .

(٢) المصدر السابق (٤/١٥٩) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٧٢) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان ق

(٥) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، داعية من دعاة الاعتزال، صاحب كتاب الكشف الذي ملأه بالاعتزاليات. ولد سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي =

من الجمع وبه يلتزم العقل والسمع^(١). وإليك نص عبارته في هذه المسألة :

قال القاري: (قال في الكشف: نزل تمكين بني آدم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل، وخلق الاستعداد فيهم، وتمكينهم من معرفتها والإقرار بها، منزلة الإشهاد والاعتراف تمثيلاً وتخيلاً لا قول ثمة ولا شهادة حقيقة^(٢) أهـ. أقول: لا مانع من الجمع وبه يلتزم العقل والسمع، قال المولى العلامة قطب الدين الشيرازي^(٣) - رحمه الله - فقد تقرر في بداية العقول أن بني آدم من ظهر آدم فيكون كل ما أخرج من ظهور بني آدم فيما لا يزال هم الذي قد أخرجهم الله تعالى في الأزل من ظهر آدم وأخذ منه الميثاق الأزلي، ليعرف منه أن هذا النسل الذي يخرج فيما لا يزال من أصلاب بني آدم هو الذر الذي أخرج في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق وهو المقالي الأزلي، كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني وهو الحالي اللايزالي فله سبحانه ميثاقان مع بني آدم، أحدها تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا تهتدي إليه العقول بل يتوقف على توثيق واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الآباء كالأنبياء فلأراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة بأن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه ميثاقاً

==

سنة (٥٣٨هـ). انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٧٨/٤)، ولسان الميزان لابن حجر (٤/٦)، والأعلام للزركلي (١٧٨/٧).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣٠/١).

(٢) (١٦٩-١٧٠).

(٣) هو محمود بن مسعود، الشهير بقطب الدين الشيرازي، صنف حاشية على تفسير الكشف. انظر: طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأدنه وي (١٩٩، ٣٠٣-٣٠٤).

آخر أزيلاً فقال ما قال من مسح ظهر آدم في الأزل إلخ وهو في غاية التحقيق ونهاية التدقيق والله أعلم (١).

هذا الجمع الذي ذهب إليه القاري غريب وعجيب؛ إذ لا يمكن الجمع بين المتضادات، فكيف تُفسَّر الآية، بأن ذلك من باب التمثيل والتخييل وأنه لا قول ثمة ولا شهادة حقيقية - كما ذهب إليه أهل الاعتزال - ، وتفسر في نفس الوقت أيضاً بما ورد من الأحاديث والآثار عن السلف، بأن ذلك ليس من باب التمثيل والتخييل، بل إن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قَالُوا بَلَىٰ ۚ، وأن ذلك حق على حقيقته .

فهذا القول الذي ذهب إليه القاري وزعم أنه يلتزم به العقل والشرع بجانب للصواب؛ لأن الآية لا يمكن أن تفسر بما ذهب إليه أهل الاعتزال .

* * * * *

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٣٠) .

الفصل الثالث

دلالات معرفة الخالق وإثبات وحدانيته

وفيهِ مَبْحَثَانِ :

- المبحث الأول: أقوال القاري - رحمه الله - في دلالات معرفة الخالق .

- المبحث الثاني: عرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق على مذهب السلف .

* * * * *

توطئة :

تقدم في الفصل الثاني أن القاري - رحمه الله تعالى - يرى فطرية المعرفة، وأن الخلق مفطورون على توحيد الله تعالى، وأن كل شيء يدل على وجود الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته، فالخلق مفطورون على الإقرار بوجود الخالق .

ولكن لما كانت هذه الفطرة التي فُطر عليها الخلق، قد تنحرف بسبب ما عمّا فُطرت عليه من توحيد الله تعالى، جاءت الأدلة الشرعية تقرر هذا التوحيد، وتذكر الناس بما استقر في فطرتهم، فالمؤمن يزداد بها إيماناً والكافر توقظ فيه الفطرة الإيمانية ليؤمن بربه وبخالقه وبارئه ^(١)، وفي هذا الفصل أعرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق، وأبين هل القاري سلك في ذلك طريقة السلف أم لا ؟.

* * * * *

(١) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها (٢٥) .

المبحث الأول : أقوال القاري رحمه الله تعالى في دلالات معرفة الخالق، وإثبات وحدانيته .

قال رحمه الله تعالى: (فمن الآيات الدالة على وجوده وظهوره وقدرته وحكمته وجوده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْيَلٍ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

فمن أدار نظره في عجائب هذه المذكورات من خلق الأرضين والسموات، وبدائع فطر الحيوانات والنباتات وسائر ما اشتملت عليه الآيات الآفاقية والآنفسية كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ ^(٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ^(٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ^(٤) . وقد قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ^(٥) .

وفي كل شيء له شاهد يدل على أنه واحد ^(٤)

(١) سورة البقرة، آية (١٦٤) .

(٢) سورة المؤمنون، آية (١٢-١٤) .

(٣) سورة فصلت، آية (٥٣) .

(٤) هذا البيت لأبي العتاهية. انظر: ديوان أبي العتاهية (١٢٢)، ولكن الذي في ديوانه "آية" بدل "شاهد"، و "الواحد" بدل "واحد" .

أجأه ذلك إلى الحكم بأن هذه الأمور العجيبة مع هذه التراتيب المحكمة الغريبة لا يستغنى كل منها عن صانع أوجده من العدم، وعن حكيم رتبته على قانون أودع فيه فنونا من الحكم، وعلى هذا درج كل العقلاء إلا من لا عبرة بمكابرتة كبعض الدهرية^(١) من السفهاء، وإنما كفر بعضهم بالاشتراك حيث دعوا مع الله إلهاً آخر كعبدة الأصنام وسائر الوثنيين من الأنعام ...^(٢).

وقال أيضاً عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣):

(﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بنقص أولهما وزيادة آخرهما وعكسهما، أو اختلافهما نوراً وظلمة، وحرارة وبرودة، ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لدلالات واضحة لأصحاب العقول السليمة المجلوة الخالصة عن شوائب الوهم والغفلة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته^(٤).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٥):

(١) هم الذين ينفون الربوبية، ويسندوا الحوادث إلى الدهر، ويقولون بقدوم العالم وينكرون المعاد. انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤٧/١)، وبغية المرتاب لابن تيمية (٤٣٠)، وتفسير ابن كثير (٢٣١/٤)، وتفسير القاسمي (٣٩٣/٨).

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥)، وانظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٤٣/أ).

(٣) سورة آل عمران، آية (١٩٠).

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (١٢٦/أ+ب)، وانظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٢٣/٣).

(٥) سورة آل عمران، آية (١٩١).

(﴿ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾) المعنى ما خلقتك عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقتك لحكم عظيمة، من جملتها أن يكون مبدأ الوجود الإنسان وسبباً لمعاشه في الأبدان دليلاً يدلّه على الإيمان بوحدانيتك، ويحثّه على القيام بطاعتك؛ لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية (١).

وقال أيضاً عند تفسيره لسورة النحل - التي تسمى سورة النعم - عند قوله ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢):

(قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: آية لقوم يتفكرون فيها على وجود الصانع، وحكمته، وكرمه، وجوده، وقدرته فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أعلاها ويخرج منه ساق شجرها، وينفتق أسفلها فيخرج منه عروقه، ثم ينمو، ويخرج منه الأوراق والأزهار، والأكمام، والأثمار على أشكال مختلفة وأنواع مؤتلفة، مع اتحاد المواد، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل فصل الآية بالتفكير إشعاراً بهذا الإيجاد والإمداد (٣).

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۚ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ ۚ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤):

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (١٢٨/أ) .

(٢) سورة النحل، آية (١١) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٤٢٠/ب) .

(٤) سورة البقرة، آية (١١٨) .

(قوله ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: أظهرنا الآيات القرآنية، والمعجزات الفرقانية، والدلالات الآفاقية، والأنفسية. لقوم يطلبون اليقين لا لمن عاند وتعلق بوهم وتخمين في أمر الدين) (١).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢): (أي: فيها دلائل من أنواع النبات، وأصناف المعادن، والحيوانات. وفي اختلاف أجزائها في الهيئات، والكيفيات، والخواص، والمنافع الكليات والجزئيات يدل على وجود الصانع ووحدته وعلمه وقدرته وإرادته وحكمته) (٣).

وقال أيضاً عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ ۖ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٢٣﴾ (٥): (﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ عدل عن الحاجة بعد انقطاع الحجة كما هو دأب الجهلة عند الغلبة أن يظهروا العداوة بالمشاتمة والمضاربة والمقاتلة، ﴿ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: أتفعل في

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣١/ب) .

(٢) سورة الذاريات، آية (٢٠) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٣١٢، ١٢٢٣) .

(٤) سورة الشعراء، آية (٢٣-٣٣) .

ذلك ولو جئتكم بحجة ظاهرة هنالك من المعجزة تُبين صدق دعواي بالرسالة المتضمنة الدالة على وجود الصانع وحكمته (١).

من خلال كلام القاري السابق أخلص إلى أنه سلك في دلالات معرفة الخالق ثلاثة طرق :

الطريق الأول : النظر في دلالة الآفاق .

الطريق الثاني : النظر في دلالة الأنفس .

الطريق الثالث : طريق المعجزة .

وسوف يكون -بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ- البحث مع القاري من خلال هذه الطرق، وهل هذه الطرق التي سلكها موافقة لمنهج السلف أم لا؟.

* * * * *

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٠٠-١٠٠١) .

المبحث الثاني : عرض الطرق التي سلكها القاري في معرفة الخالق على مذهب السلف .

له وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: النظر في دلالة الآفاق .
- المطلب الثاني: النظر في دلالة الأنفس .
- المطلب الثالث: طريق المعجزة .

* * * * *

المطلب الأول : النظر في دلالة الآفاق .

إن مخلوقات الله ﷻ الدالة على وحدانيته، وتفرد به بالعبادة لا تعد ولا تحصى، ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، فإذا تأمل الإنسان العاقل في هذا العالم العلوي، والعالم السفلي، وما فيهما من سائر المخلوقات علم أنه لا بد لها من صانع مدبر حكيم، له الكمال المطلق من جميع الوجوه .

وهذا ما أشار إليه القاري حيث قال: (فمن الآيات الدالة على وجوده وظهوره وقدرته وحكمته وجوده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... ﴾^(١)، فمن أدار نظره في عجائب هذه المذكورات؛ من خلق الأرضين والسموات، وبدائع فطر الحيوانات، والنباتات، وسائر ما اشتملت عليه الآيات الآفاقية ... أجد ذلك إلى الحكم بأن هذه الأمور العجيبة مع هذه التراتيب المحكمة الغريبة، لا يستغنى كل منها عن صانع أوجده من العدم، وعن حكيم رتبته على قانون أودع فيه فنوناً من الحكم)^(٢).

فالقاري - رحمه الله تعالى - يرى أن النظر في الآفاق عامل من عوامل تجلية الفطرة، وأن مخلوقات الله ﷻ التي لا تعد ولا تحصى دالة على وحدانيته جلالة. وهذه الطريقة التي سلكها القاري وأشار إليها في بعض كتبه^(٣) هي طريقة

(١) سورة البقرة، آية (١٦٤) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥)، وانظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣/أ) .

(٣) انظر: شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥)، وأنوار القرآن وأسرار الفرقان (٢٣/أ) (١٢٦،

١٢٨/أ)، ومراقبة المفاتيح (١٢٣/٣) .

القرآن التي أرشد الخلق إليها. وإليك بعض النصوص الشرعية التي تبين لك أن هذه طريقة القرآن وسلف الأمة .

الأول : الأدلة من كتاب الله تعالى :

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١).

فقله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: في إيجادهما وخلقهما، وإبداع المخلوقات فيهما، وقدم السموات لاعتلائها مبنى ومعنى، وجمعت لأنها طبقات في جنسها مختلفات، ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما سيراً، وتعارضهما طولاً وقصرأ، وظلمة ونوراً، وبرداً وحرأ، وسيراً وظهورأ ... ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات على وحدة ذاته، وعلامات على قدرته وبقية صفاته، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: ينظرون إليها ويتفكرون فيها ^(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله : (﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى) ^(٣).

(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) سورة البقرة، آية (١٦٤) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣/ أ) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٠٠) .

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾.

فقوله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنهم يعتبرون
بصنعة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شيء، ومن
هو مالك كل شيء، ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل
شيء قدير، وبيده الإغناء والإفكار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة،
والشقاء والسعادة (٢).

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ
وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ
سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ
فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٤﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا
بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ
طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ
انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ (٣).

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى
جميع ما سبق ذكره من فلق الحب والنوى إلى آخر ما خلق تعالى، وما امتن به.

(١) سورة آل عمران، آية (١٩٠-١٩١).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٤/٢١٠).

(٣) سورة الأنعام، آية (٩٥-٩٩).

ففي هذه الآيات دلالة واضحة على كمال قدرته، وإحكام صنعته، وأنه المتفرد بالخلق، المستحق للعبادة وحده دون ما سواه^(١).

(٤) وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾ وَاللَّائِمَةَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٥﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٩﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾. إلى غيرها من الآيات الكثيرة .

والآيات الدالة على النظر في الآفاق أكثر من أن تحصر، فالتأمل في كتاب الله ﷻ يجده مملوءاً بالآيات الكثيرة التي تدعو الخلق إلى النظر والتفكير في ملكوت السموات والأرض^(٣)، وأن الله ﷻ لم يخلق ذلك باطلاً، بل خلقه خلقاً صادراً عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (١٩٥/٤) .

(٢) سورة النحل، آية (٣-١١) .

(٣) وانظر كلام ابن القيم حول دلالة الآفاق فقد عقد فصلاً كثيرة في النظر والتفكير في دلالة الآفاق وما أودع الله ﷻ فيها من الحكم الدالة على وحدانية الله ﷻ في كتابه مفتاح دار السعادة (٢٩/٢) وما بعدها .

مقارن له، غاية له .

ولهذا قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾^(١)، فأتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتغال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله وأن لقاءه حق لا ريب فيه. وأما الحق الذي هو غاية خلقها فهو غايتان، غاية تتراد من العباد، وغاية تتراد بهم، فالتى تتراد منهم أن يعرفوا الله تعالى، وصفاته كماله وَجَلَّ، وأن يعبدوه لا يشركون به شيئاً، فيكون وحده إلههم ومعبودهم، ومطاعهم، ومحبوهم. قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(٢)، فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته، وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته، ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده. وأما الغاية المرادة بهم: فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾^(٣) (٤).

(١) سورة النحل، آية (٣٩) .

(٢) سورة الطلاق، آية (١٢) .

(٣) سورة النجم، آية (٣١) .

(٤) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٢/٤) وما بعدها.

(١) ابن منده - رحمه الله تعالى - فقد عقد فصولاً كثيرة للدلالة على وحدانية الله ﷻ قال: (ذَكَرَ ما يستدل به أولو الألباب من الآيات الواضحات التي جعلها الله ﷻ دليلاً لعباده من خلقه على معرفة وحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض وما أحكم فيها وخلق الإنسان)^(١)، ثم ذكر رحمه الله تعالى فصولاً كثيرة في هذا الصدد تدل على ذلك .

(٢) وابن جرير - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾^(٢):

قال: (والصواب من القول في ذلك أن الله تعالى ذكره، نبه عباده على الدلالة على وحدانيته، وتفرد به بالألوهية دون كل من سواه من الأشياء بهذه الآية)^(٣).

وقال أيضاً: (﴿ لَا يَتْلِقُ قَوْمٌ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لمن عقل مواضع الحجج وفهم عن الله أدلته على وحدانيته)^(٤).

(٣) وأبو المظفر السمعاني، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً ﴾^(٥).

قال: (يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيستدلون به على

(١) كتاب التوحيد لابن منده (٩٧/١) وما بعدها .

(٢) سورة البقرة، آية (١٦٤) .

(٣) تفسير ابن جرير (٦٢/٢) .

(٤) المصدر السابق (٦٥/٢) .

(٥) سورة آل عمران، آية (١٩١) .

وحدانيته (١).

٤ (وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقاً حق تأمله إلا وجده دالاً على فطره وبارئه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه. وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد، والمعاد، والنبوات) (٢).

وبهذا يتبين لنا أن القاري - رحمه الله - لم يخرج في هذه المسألة عن الكتاب والسنة، وأنه موافق لمذهب السلف في هذه المسألة .

* * * * *

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي المظفر السمعاني (٣٨٨/١) .

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٢/٤) .

المطلب الثاني : النظر في دلالة الأنفس .

إن الاستدلال بخلق الإنسان من أوضح وأسهل الدلالات على وجود الله ﷻ. وما ذاك، إلا لأن الناس جميعاً مشتركون في مباشرة هذه الدلالة، فالناس هم المستدلون، وهم أنفسهم الدليل والبرهان، فالإنسان هو الدليل وهو المستدل، فدلالة الأنفس على وجود الله - جل وعلا - يعلمها الإنسان من نفسه ويذكرها كلما تذكر في نفسه، وفيمن يراه من بني جنسه ^(١).

فإذا تأمل الإنسان العاقل في نفسه، أو في غيره من بني جنسه يجد فيها من عجائب صنع الله، وبديع حكمته ما يضطر معه إلى الاعتراف والإقرار بالحق ﷻ، وإفراده بالعبادة.

وهذه الطريقة وهي النظر والتفكر في الأنفس، وما أودع الله فيها من الحكم الدالة على وجوده وتفرد بالعبادة وحده دون ما سواه هي التي ارتضاها القاري في الاستدلال على وجود الله جل وعلا .

قال القاري: (فمن أدار نظره في عجائب هذه المذكورات من خلق الأرض والسموات ... وسائر ما اشتملت عليه الآيات الآفاقية والأنفسية كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(٢) ... أُلْجِأَ ذَلِكَ إِلَى الْحُكْمِ بِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْعَجِيبَةَ مَعَ هَذِهِ التَّرَاتِيبِ الْمُحْكَمَةِ

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/٢٦٢-٢٦٣) .

(٢) سورة المؤمنون، آية (١٢-١٤) .

الغريبة لا يستغني كل منها عن صانع أوجده من العدم، وعن حكيم رتبه على قانون أودع فيه فنونا من الحكم (١).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ تَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (٢):

(والمعنى فتأملوا في صنيع الرب من خلق الإنسان، لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب، بل قيل هو العالم الأكبر و ما دونه من المخلوقات هو العالم الأصغر ... ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلم البطن، والرحم، والمشيمة. ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي هذه أفعاله في خلقتكم، ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي هو المستحق لعبادتكم، ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أي ظاهراً وباطناً، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا يشاركه في خلق الأشياء غيره، ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تعدلون عن عبادته إلى الإشراك به؟ (٣).

فالقاري في استدلاله بدلالة الأنفس على وجود الله ﷻ ومن ثم إقراره بالعبادة موافق لمنهج القرآن، وما سار عليه سلف الأمة. وإليك الأدلة على أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن، وأئمة السنة عليهم من الله الرحمة والرضوان.

* * * * *

الأول : الأدلة من كتاب الله ﷻ :

(١) قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ

(١) شرح الفقه الأكبر (٢٤-٢٥) .

(٢) سورة الزمر، آية (٦) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١٩١) .

تَنْتَشِرُونَ ﴿١٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ (١).

قال ابن كثير: (فمن آيات الله الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة، ثم صار عظماً شكلة على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره وتكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢).

(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (٣).

(١) سورة الروم، آية (٢٠-٢١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦٨٣/٣) .

(٣) سورة المؤمنون، آية (١٢-١٤) .

ذكر الله ﷻ في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه ^(١)، وفي هذا كله دليل قاطع على وحدانية الخالق ﷻ، فالله ﷻ يدل عباده ببديع صنعه لخلقهم على وحدانيته في ربوبيته وأنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه .

(٣) وقال تعالى: ﴿ سُرِّبَهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ^(٢).

فقوله: ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي: من لطيف الصنعة وبديع الحكمة الدالة على وحدانيته ﷻ ^(٣).

(٤) وقال تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ تَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴾ ^(٤).

(٥) وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(٥)، (بما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة، الدالين على وجود الصانع الحكيم) ^(٦).

(٦) وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٣٦/٥) .

(٢) سورة فصلت، آية (٥٣) .

(٣) انظر: تفسير الشوكاني فتح القدير (٥٢٣/٤) .

(٤) سورة الزمر، آية (٦) .

(٥) سورة الذاريات، آية (٢١) .

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٥٤/٨) .

مَخْرَجٌ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿١﴾ .

والآيات في هذا المعنى في كتاب الله ﷻ كثيرة لا مجال لحصرها^(٢)، والمقصود هنا التنبيه على ما في الإنسان من مظاهر الإحكام وجودة الإتقان وغير ذلك من عجائب صنع المولى جل وعلا مما يضطر معه المرء إلى الاعتراف بالخالق وإفراده بالعبادة دون ما سواه .

الثاني : الأدلة من السنة :

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : " خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج^(٣) من نار، وخلق آدم مما وصف لكم^(٤) .

والذي وصف لنا في كتاب ربنا أن آدم ﷺ خلق من سلالة من طين ... إلخ. أي: سلت وأخذت من جميع الأرض ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبث وبين ذلك، والسهل^(٥) والحزن وبين

(١) سورة الطارق، آية (٥-٧) .

(٢) ومن أراد المزيد والوقوف على هذه الدلالات فعليه بكتاب التوحيد لابن منده، فقد عقد فصلاً في هذا الصدد، انظر على سبيل المثال (١/٢٠٧-٢١٨)، وكذلك كتاب مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (٢/٥-٢٨) .

(٣) المارج: لَهَبُ النار المختلط بسوادها. انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/٣١٥)، وجامع الأصول كلاهما لابن الأثير (٤/٣٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٤/٢٢٩٤/ رقم ٢٩٩٦) .

(٥) ولذا جاء في الحديث الصحيح: " إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنوا آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل^{تيسر} =

ذلك^(١). فمن تدبر خلق آدم^(٢) ﷺ وبديع صنع الله فيه دله ذلك على وحدانيته الله، وإفراده بالعبادة؛ لأن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد وحده دون ما سواه.

(٢) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « أن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أو سعيد ... الحديث »^(٣).

قال القاري في شرحه لهذا الحديث: (وقال الخطابي^(٤) في الحكمة في تأخير كل منهما أربعين يوماً أن يعتاده الرحم؛ لأنه لو خلق دفعة واحدة لشق

﴿=﴾

والحزن والخبيث والطيب ». أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر (٦٧/٥) رقم (٤٦٩٣). والترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب (٣) ومن سورة البقرة (٥/١٨٧-١٨٨/رقم ٢٩٥٥). وأحمد في مسنده (٤/٤٠٠). والحاكم في المستدرک (٢/٢٦١-٢٦٢). كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه أيضاً محدث العصر الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٧٢/رقم ١٦٣٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (٥/٣٣٦).

(٢) انظر: كتاب الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم للمطرودي، الفصل الأول: آدم ﷺ والتكوين (١١-١٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٢/٤٢٤/رقم ٣٢٠٨)، (٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤). ومسلم في صحيحه في كتاب القدر، باب كيفية الخلق آدمي في بطن أمه (٤/٢٠٣٦/رقم ٢٦٤٣).

(٤) هو العلامة المحدث الرحال، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، المعروف بالخطابي، كان فقيهاً، رأساً في علم العربية والأدب وغير ذلك، توفي ببلدة بسط سنة (٣٨٨هـ). انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/١٠١٨-١٠٢٠)، وطبقات الشافعية للأسنوي (١/٢٢٣-٢٢٤).

ذلك على الرحم، ويخاف عليها الغم، وأيضاً فيه إظهار آثار قدرة الله تعالى، وإشعار إكثار نعمته على عبده ليعبدوه ويشكروا له على جميع نعمه، وأيضاً تقلبيه في هذه الأطوار المبينة تأكيد لأمر البعث، لأن من قدر عليه ابتداء يقدر على إعادته انتهاء (١).

الثالث : من أقوال أئمة السنة في هذه الدلالة :

إن النظر في دلالة الأنفس وما أودع الله ﷻ فيها من الحكم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى قد نبه عليها أئمة السنة، ومنهم :

(١) أبو الشيخ ابن حبان الأصبهاني (٢) في كتابه العظمة، فقد عقد مبحث أسمائه (ذكر نوع من التفكير في عظمة الله ﷻ ووحدانيتها، وحكمته، وتديره، وسلطانه، قال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣)، فإذا تفكر العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك وظلمة الريب (٤).

(٢) وابن منده ، فقد عقد في كتابه التوحيد عدة فصول تدل على هذا المعنى، فمن تلك الفصول قوله (ذكر الآيات الدالة على وحدانية الله ﷻ وأنه خالق الخلق ومنشئها من تراب آدم ﷺ ثم من نطفة ولده، وخلق منها

(١) شرح الأربعين النووية للقاري خ ق (٢٨) .

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري، حافظ أصبهان، ومسند زمانه، صاحب المصنفات السائرة، يعرف بأبي الشيخ، ولد سنة (٢٦٤هـ)، وتوفي سنة (٣٦٩هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٣/٩٤٥-٩٤٧) .

(٣) سورة الذاريات، آية (٢١) .

(٤) (٢٧١/١) .

زوجها حواء) ^(١)، ثم ذكر بعد هذا العنوان العام آيات وأحاديث تدل على ذلك المعنى .

وقال أيضاً - رحمه الله - : (ذكر آية تدل على وحدانية الله ﷻ من انتقال الخلق من حال إلى حال) ^(٢) .

٣ (قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة، ثم من علقه، هذا لم يُعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول، أو لم يُخبر. لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودلّ به، وبينه، واحتج به، فهو دليل شرعي؛ لأن الشارع استدل به، وهو عقلي؛ لأنه بالعقل تُعلم صحته) ^(٣) .

٤ (قال ابن قيم الجوزية : (وإذا تأملت ما دعا الله ﷻ في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ بوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه. فبهذا تعرّف إلى عباده، وندبهم إلى التفكير في آياته، ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله - سبحانه -

(١) كتاب التوحيد لابن منده (٢٠٧/١) .

(٢) المرجع السابق (٢١٨/١)، وانظر أيضاً: (٢٢٢/١، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٩) .

(٣) النبوات لابن تيمية (٢٩٢/١-٢٩٣) .

لِيُستدل بها على غيرها: فمن ذلك خلق الإنسان ... (١). ثم ذكر الأدلة على ذلك وتكلم على تلك الحكم بكلام حسن بديع .

وبهذا يتبين لنا أن استدلال القاري على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهو موافق لما دل عليه الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة.

* * * * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٥-٢٨) .

المطلب الثالث : طريق المعجزة^(١).

إن من الطرق التي سلكها القاري - رحمه الله - لإثبات وجود الله تعالى طريق المعجزة. فالله ﷻ لم يبعث نبياً إلا ومعه معجزة تدل على صدق قوله من جنس ما قومه عليه. فعيسى - عليه الصلاة والسلام - مثلاً بعث في زمان الحكماء والأطباء، وكانت معجزته إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى. فلما عجزوا عن هذه الحكمة مع كونهم حكماء، استدّلوا على أنه رسول الله^(٢)، وإذا ثبت أنه رسول الله بتلك المعجزة، ثبت أن هناك مرسلاً لذلك الرسول أيده بهذه المعجزة لتكون دليلاً على صدقه، فيصدقونه في جميع ما أخبر به، وأهم ذلك كله وجود خالق واحد خلقهم من العدم، فيجب عليهم أن يفرّدوه بالعبادة دون ما سواه^(٣).

فالقاري - رحمه الله - استدل بمعجزة الأنبياء على وجود الخالق؛ لهذا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنْ آتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ قال أولو جئتك بشيء مبين^(٤): (أي: أتفعل في ذلك ولو جئتك بحجة ظاهرة هنالك من المعجزة تبين صدق دعواي بالرسالة

(١) المعجزة: هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية تشاهد بالبصر أو تسمع كخروج الناقة من الصخرة، وانقلاب العصا حية، وكلام الجمادات، ونحو ذلك. وإما معنوية تشاهد بالبصيرة كمعجزة القرآن.

إعلام السنة المنشورة للحكمي (٥٣).

(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني (١٩٩/٢).

(٣) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات (١٠٦).

(٤) سورة الشعراء، آية (٢٩-٣٠).

المتضمنة الدالة على وجود الصانع وحكمته (١).

فهذه الطريقة التي سلكها القاري هي طريقة الكتاب والسنة وأئمة السنة، وإليك الأدلة على ذلك :

أولاً : الأدلة من كتاب الله ﷻ :

(١) قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَسْأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۖ ۝ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَلِي لَأَظُنُّكَ يُفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۖ ۝ ﴾ (٢).

ومعنى بصائر: دلالات على وحدانية الله، وصدق رسوله، والإشارة بهؤلاء إلى الآيات التسع (٣)، وهي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات. ذكر هذا البغوي عن عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء (٤). فهذه الآيات الظواهر البواهر تبصرك يا فرعون بصدق ما يدعيه موسى ﷺ من أن الله - جل وعلا - هو رب العالمين، وأنه الإله الحق المبين الذي يجب أن يفرد بالعبادة وحده (٥)، فموسى ﷺ يحتاج

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٠٠-١٠٠١) .

(٢) سورة الإسراء، آية (١٠١-١٠٢) .

(٣) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨٣/٦) .

(٤) معالم التنزيل للبغوي (١٣٩/٣)، وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (١٠٩/٣)، فقد ذكر هذه الآيات التسع ونسبها إلى ابن عباس والشعبي بالإضافة إلى ما ذكره البغوي باستثناء عطاء، ثم قال بعد ذكره لهذه الآيات التسع : (وهذا القول ظاهر جلي، حسن قوي) .

(٥) انظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان للقاري رقم اللوح (٤٥٧/ب) .

بالمعجزات على من أنكر وجود الخالق، وهذا يبين لنا الاستدلال بالمعجزات على وجود الخالق هي طريقة الأنبياء ومن سار على نهجهم .

(٢) وقال تعالى: ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) أن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٩﴾ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٣﴾ (١).

فهنا موسى عليه السلام عرض على فرعون الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدق دعواه بأنه رسول رب العالمين، وهذا يتضمن الدلالة على وجود الصانع وحكمته .

(٣) وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٢﴾ قَالَ هُمْ مُوسَى الْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاحِدِينَ ﴿٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٨﴾ (٢).

(١) سورة الشعراء، آية (١٦-٣٣) .

(٢) سورة الشعراء، آية (٤١-٤٨) .

فانقلاب العصا ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به، ثم يعود عصا كما كانت من أدلّ الدليل على وجود الخالق وحياته، وقدرته، وإرادته، وعلمه بالكيلات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد (١).

٤ (وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْخَرْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْخَرْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٤)، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٥).

فالنبي ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء الذين يقدرّون على النظم والنثر. وأنزل عليه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقال لهم ائتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، فلما عجزوا عن ذلك مع قدرتهم على الكلام، وطول باعهم في الفصاحة والبلاغة، استئذّل بذلك على أنه كلام الله، وأن النبي ﷺ مرسل من عند الله (٦). فإذا كان الأمر كذلك

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، لابن قيم الجوزية (١١٩٧/٣).

(٢) سورة الإسراء، آية (٨٨).

(٣) سورة هود، آية (١٣-١٤).

(٤) سورة يونس، آية (٣٨).

(٥) سورة البقرة، آية (٢٣).

(٦) انظر: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، للأصبهاني (١٩٩/٢-٢٠٠).

وجب تصديقه في كل ما أنبأهم عنه من الغيوب، ودعاهم إليه من أمر وحدانية الله ﷻ^(١). والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً يطول حصرها، والمقصود هنا التنبيه على طريق الرسل في الاستدلال على معرفة الخالق ﷻ بطريق المعجزة.

الثاني : الأدلة من السنة :

إن من طرق الاستدلال على وجود الخالق الاستدلال بمقدمات النبوة، ومعجزات الرسالة، لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها^(٢). وإليك بعض الأدلة على ذلك:

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: «أرأيت لو دعوت هذا العذق من النخلة أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض، فجعل ينقر حتى أتى النبي ﷺ قال: ثم قال لله: ارجع، فرجع، حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وآمن»^(٣).

فهذا الرجل لما شاهد هذه الآية صدق النبي ﷺ فيما جاء به من الرسالة، فاكتمى به، وآمن به، وبما جاء به من عند الله، فكان فيما جاء به إثبات الخالق ﷻ، وأنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه .

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٢٩٩/٧) .

(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، للبيهقي (٣٩-٤٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب المناقب، باب (٦) (٥٥٤/٥) رقم (٣٦٢٨). والحاكم في المستدرک (٦٢٠/٢). وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني. انظر: صحيح سنن الترمذي (١٩٣/٣)، وهداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصاييح والمشكاة (٣٤٨/٥).

(٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ. فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ، فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ، فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ أَلَا اللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا. قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ... الْحَدِيثُ « (١).

فهذا السائل كان قد سمع بمعجزات رسول الله ﷺ فكانت مستفيضة في زمانه، ولعله سمع أيضاً ما كان يتلوه من القرآن فاقصر في إثبات الخالق ومعرفة خلقه على سؤاله وجوابه عنه (٢).

الثالث : من أقوال أئمة السنة في هذه الدلالة :

إن طريق الاستدلال على وجود الخالق عند السلف الاستدلال بالمعجزات التي أرسل الله بها رسله؛ ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الطريقة: (وهذه طريقة السلف من أئمة المسلمين في الاستدلال على معرفة الصانع، وحدوث العالم؛ لأنه إذا ثبت نبوته بقيام المعجزة، وجب تصديقه على ما أنبأهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١/٤١-٤٢/ رقم ١٢).

(٢) الاعتقاد للبيهقي (٤٢) .

عنه من الغيوب، ودعا لهم إليه من أمر وحدانية الله - تعالى - وصفاته (١).

وقال أيضاً في قصة موسى عليه السلام مع فرعون (﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾) (٢)، ﴿ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ قال فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٣)، فهنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه، وكذلك قال تعالى: ﴿ فَإِلَٰمٌ يَّسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٤)، فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة التي هي فعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث بل هي أخص من ذلك (٥).

ويقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (وهذه الطريق من أقوى الطرق، وأصحّها، وأدلّها على الصانع، وصفاته، وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها فإنها جمعت بين دلالة الحسّ والعقل، ودلالاتها ضرورية بنفسها ولهذا يسميها الله - سبحانه - آيات بيّنات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها) (٦).

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٥٢/٨) .

(٢) سورة الشعراء، آية (٢٩-١٦) .

(٣) سورة الشعراء، آية (٣٣-٣٠) .

(٤) سورة هود، آية (١٤) .

(٥) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٧٩/١١) .

(٦) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة (١٢٠٠-١١٩٧/٣) .

وبهذا يتبين لنا أن استدلال القاري بطريق المعجزة على وجود الله موافق للكتاب والسنة وسلف هذه الأمة .

* * * * *

الباب الثالث

عقيدة القاري في توحيد الألوهية

وفيه ثلاثة فصول :-

- ❖ الفصل الأول : مفهوم توحيد الألوهية .
- ❖ الفصل الثاني : العبادة .
- ❖ الفصل الثالث : بعض صور الشرك ووسائله .

* * * * *

الفصل الأول

مفهوم توحيد الألوهية

وفيهِ ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية .
- المبحث الثاني: حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة السلام .
- المبحث الثالث: الأدلة العقلية النقلية لتوحيد الألوهية .

* * * * *

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية .

وفيهِ مطلبان :

- المطلب الأول: توحيد الألوهية لغة .
- المطلب الثاني: توحيد الألوهية في الشرع .

* * * * *

المطلب الأول: توحيد الألوهية لغة :

توحيد الألوهية مركب من كلمتين: مضاف، ومضاف إليه، وقد سبق بيان معنى التوحيد لغة وشرعاً^(١)، والمقصود من هذا المبحث بيان الألوهية في مدلولها اللغوي .

الألوهية لفظ منسوب إلى: "الإله"، و"الإله": "فِعَال" بمعنى مفعول أي: معبود، وهذا ما يرجحه القاري في معنى لفظ الجلالة "الله" حين ذكر الخلاف في هذا الاسم الشريف، وارتضى من تلك الأقوال أنه مشتق من أله بمعنى عبد، ولذا استدل لهذا الرأي بقراءة ابن عباس ﴿وَيَذَرَكْ وَالَاهْتَكْ﴾^(٢) أي: عبادتك. بخلاف الأقوال الأخرى التي ذكرها فإنه لم يستدل لها بقول أحد من السلف.

والذي يهمنا من تلك الأقوال هو قول القاري، قال رحمه الله: (فالإله فِعَال بمعنى "المعبود" كالكتاب بمعنى المكتوب، ويدل عليه قراءة ابن عباس ﴿وَيَذَرَكْ وَالَاهْتَكْ﴾^(٣) أي: عبادتك)^(٤).

ومما يدل أيضاً على أن القاري يرى أن "الإله" بمعنى المعبود هو ما ذكره في شرحه ضوء المعالي حيث قال: (المراد بالإله: المعبود بحق)^(٥).

(١) انظر: (٨٠-٨٦) وما بعدها .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٢٧) .

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥٤/١) .

(٤) مرقاة المفاتيح (٤٠/١) .

(٥) ضوء المعالي (٣٥) .

فالقاري يرى أن "الإله" بمعنى "المعبود" وهذا هو الحق الذي دل عليه كلام العرب وإليك البيان من كلام أئمة اللغة .

قال ابن فارس: (أله: الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التَّعْبُدُ، فالإله: الله تعالى، وسمى بذلك لأنه معبود، ويقال تأله الرجل إذا تعبد، قال رؤبة^(١):

لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهي^(٢).

وقال الجوهري :

(أله بالفتح إلهة، أي عَبْدَ عِبَادَةٍ، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَيَذَرَكْ وَالْإِهْتِكْ﴾^(٣) بكسر الهمزة، قال: وعبادتك وكان يقول: إن فرعون كان يُعْبُدُ في الأرض)^(٤).

وقال ابن منظور: (الإله "الله" عَزَّ وَجَلَّ، وكل ما اتخذ من دون الله معبوداً، "إله" عند متخذه، والجمع "آلهة" ...)^(٥).

فما ذكره القاري في معنى الإله موافق لما عليه أهل اللغة كما سبق النقل عنهم، فالألوهية مصدر أله يأله الالهة وألوهة بمعنى العبادة .

* * * * *

(١) هو رؤبة بن الحجاج التميمي، أبو الجحاف الراجز، من أعراب البصرة، كان رأساً في اللغة، توفي سنة (١٤٥ هـ). انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٦٣-٣٦٦)، والسير (١٦٢/٦).

(٢) مقاييس اللغة (١٢٧/١) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٢٧) .

(٤) الصحاح (٢٢٢٣/٦) .

(٥) لسان العرب (٤٦٧/١٢) .

المطلب الثاني : توحيد الألوهية في الشرع

سبق أن بينا أن "الإله" في اللغة بمعنى المعبود، وفي هذا المطلب سيكون الحديث عن معناه في الشرع .

(١) قال القاري - رحمه الله تعالى - في تفسير كلمة التوحيد :

(لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق في الوجود إلا الله الواجب الوجود لذاته)^(١) .

(٢) وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكْتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٢) :

(﴿ قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكْتَبِ ﴾ يعم أهل الكتاب ومن يجري مجراهم في الخطاب، ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ أي مستوية بيننا وبينكم مما لا يختلف فيه الرسل الواردة عليكم، والكتب المنزلة إليكم، والكلمة تطلق على الجملة، وتفسيرها ما بعدها وهي أن لا نعبد إلا الله أي نوحده بالعبادة، ونخلصه في الطاعة ولا نشرك به شيئاً من الإشراك لا جلياً ولا خفياً)^(٣) .

وفسر أيضاً الكلمة التي في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾^(٤) وجعلها كلمة باقية

(١) مرقاة المفاتيح (٢/٦٢٩) . وانظر: (١/١١٢، ١٣٦)، وشرح عين العلم وزين الحلم (١/١٣) .

(٢) سورة آل عمران، آية (٦٤) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٩٥/ب) .

فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(١) بكلمة التوحيد، لا إله إلا الله .

(٣) قال القاري: (﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴾ أي جعل الله كلمة التوحيد كلمة باقية، ﴿ فِي عَقِبِهِ ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى ملته^(٢) .

(٤) قال القاري في تفسير كلمة التوحيد: (وأما الكلام عليه بمقتضى المعنى "لا إله إلا الله" : لا مستغنى عن كل ما سواه، ولا مفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى، وهذا معنى جامع مانع في ملاحظة التوحيد، ومطالعة التفريد في نظم المرید بما ليس عليه مزيد)^(٣) .

يتبين لنا من كلام القاري السابق أن له تفسيرين لكلمة "الإله" :

الأول: أنه بمعنى المعبود . فالقاري في النص الأول فسر "الإله" بالمعبود. وفي الثاني والثالث فسر الكلمة التي جعلها إبراهيم في عقبه -أي ذريته- والكلمة التي أمر نبينا ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إليها بكلمة التوحيد، لا إله إلا الله، فنتج من ذلك أن تفسير كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾^(٤)، و﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾^(٥) .

فكلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات، النفي المستفاد من قول "لا إله"، والإثبات المستفاد من قول "إلا الله". وكذلك تفسير هذه الكلمة

(١) سورة الزخرف، آية (٢٦-٢٨) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٥٣) .

(٣) التجريد لإعراب كلمة التوحيد (٣٥-٣٦) .

(٤) سورة آل عمران، آية (٦٤) .

(٥) سورة الزخرف، آية (٢٦، ٢٧) .

وهي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾، و﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي، فإنهما اشتملتا على نفي وإثبات كما اشتملت عليه كلمة التوحيد، فتحصل من ذلك أن "الإله" بمعنى المعبود، وهذا هو الحق، فالإله في اللغة والشرع اسم لكل معبود حقاً كان أو باطلاً.

قال الراغب: (إله : جعلوه اسماً لكل معبود) ^(١).

ومما يدل على أن الإله بمعنى المعبود علاوة على ما ذكره القاري قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا﴾ ^(٢)، فالله - جل وعلا - سمي معبودات المشركين آلهة، وأبطل كونها آلهة حقاً، فدل ذلك على أن "الإله" بمعنى "المعبود".

وكذلك مشركو العرب كانوا يسمون معبوداتهم آلهة، كما حكى الله عنهم ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ^(٣).
﴿وَيَقُولُونَ أَبِنَا لَتَارِكُنَا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ ^(٤).
﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ^(٥).
فهؤلاء المشركون كما في هذه الآيات سموا معبوداتهم آلهة.

(١) المفردات في غريب القرآن (٣١).

(٢) سورة الفرقان، آية (٣).

(٣) سورة الفرقان، آية (٤٢).

(٤) سورة الصفات، آية (٣٦).

(٥) سورة ص، آية (٥).

فنتج من ذلك أن "الإله" هو "المعبود"، وليس معنى الإله القادر على الاختراع كما عليه علماء الكلام .

"فالإله" : هو المعبود سواء عبد بحق، أو بباطل هذا هو المتقرر في اللغة والشرع كما سبق بيانه .

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: « الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين »^(١)، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكْ وَلَا تَهْتَكْ﴾^(٢) بكسر الهمزة أي وعبادتك، وعلل ذلك بقوله: (لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد)^(٣) .

فالقاري في نصوصه السابقة ما عدا النص الأخير لم يُرجع توحيد الألوهية إلى توحيد الربوبية كما عليه علماء الكلام، بل فسر توحيد الألوهية بإفراد الله ﷻ بالعبادة، ولهذا قال في تفسير كلمة التوحيد: (﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٤) أي: نوحده بالعبادة، ونخلصه في الطاعة، ولا نشرك به شيئاً من الإشراف لا جلياً ولا خفياً)^(٥) .

وقال أيضاً في تفسيره للفظ الجلالة "الله" : (ومعناه المستحق للعبادة)^(٦) .

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥٤/١) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٢٧) .

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير (٥٤/١) .

(٤) سورة آل عمران، آية (٦٤) .

(٥) أنوار القرآن وأسرار الفرقان ق (٩٥/ب) .

(٦) مرقاة المفاتيح (٧٥/٥) .

التفسير الثاني لكلمة التوحيد أنه بمعنى المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه كل ما عداه، هذا التفسير الذي ذكره القاري وزعم أنه جامع مانع مأخوذ من متن عقيدة السنوسي الأشعرية^(١).

فتفسير القاري لكلمة التوحيد - لا إله إلا الله - بأن معناها لا مستغني عما سواه، ولا مفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله، تفسير باطل ترده اللغة، وترده النصوص الشرعية كما سبق بيانه، فالله ﷻ في أكثر من آية فسر كلمة التوحيد التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه بأن معناها: إفراده جل وعلا بالعبادة دون ما سواه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصِّغُورَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.....﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿الرَّكَعُتَيْنِ أَحْكَمَتِ أَيْتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ نِيَ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٥).

إلى غير ذلك من الآيات التي فيها بيان وتفسير لكلمة التوحيد التي أرسلت بها الرسل، هذا من وجه .

(١) انظر: متن السنوسية المسمى بأم البراهين تهذيب شرح السنوسية (١٦٨) .

(٢) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٣) سورة الإسراء، آية (٢٣) .

(٤) سورة هود، آية (١-٢) .

(٥) سورة النساء، آية (٣٦) .

ومن وجه آخر مما يبين بطلان هذا التفسير لكلمة التوحيد أن هذا التفسير يعود إلى توحيد المعرفة والإثبات، وثمة فرق بين توحيد المعرفة والإثبات وتوحيد القصد والطلب .

فالنزاع الذي حصل بين الرسل وأممهم هو في توحيد القصد والطلب وليس في توحيد المعرفة والإثبات، ولهذا لو كان تفسير كلمة التوحيد بأنه لا مستغني عما سواه، ولا مفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله لكان كفار قريش مؤمنين ولم ينازعوا النبي ﷺ في هذه الكلمة ولم يقولوا له: ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾^(١).

ومما يدل على أن المشركين قد أقروا بتوحيد الربوبية ما حكاه الله عنهم في القرآن .

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾^(٣).

(١) سورة ص، آية (٥) .

(٢) سورة يونس، آية (٣١) .

(٣) سورة المؤمنون، آية (٨٤-٨٩) .

قإقرارهم بأن الله هو الرازق، وهو المالك للسمع والبصر، وهو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، إلى غير ذلك من أفراد توحيد الربوبية، يدل على أن الكفار كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، إذ إن توحيد الربوبية - كما مر معنا^(١) - هو أفراد الله بالخلق والملك والتدبير، فالكفار لم ينازعوا الرسل - عليهم السلام - في توحيد الربوبية، بل نازعوا في أفراد الله ﷻ بالعبادة، ولهذا قال الكفار لنبينا محمد ﷺ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾^(٢).

قال المقريري^(٣) رحمه الله : (ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الألوهية ... فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد؛ ولهذا كان أصل "الله" الإله، كما هو قول سيويه وهو الصحيح)^(٤).

فتحصل مما ذكرناه أن تفسير القاري لكلمة التوحيد كما في كتابه التجريد في إعراب كلمة التوحيد^(٥)، تفسير مجانب للصواب، وهو مأخوذ من

(١) انظر: (٩٩) .

(٢) سورة ص، آية (٥) .

(٣) هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريري، مؤرخ الديار المصرية ولد بالقاهرة سنة (٧٦٦هـ)، وتوفي بها سنة (٨٤٥هـ). من مصنفاته: تاريخ بناء الكعبة، تاريخ الأقباط، تجريد التوحيد المفيد .

انظر: الأعلام للزركلي (١/١٧٧-١٧٨).

(٤) تجريد التوحيد المفيد (٤٦-٤٨) .

(٥) انظر: (١٧٧) من هذه الرسالة .

علماء الكلام الذين لم يهتموا بتوحيد القصد والطلب الذي من أجله أرسل الله الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١).

تنبيه : لو قال قائل: لماذا لا نقول بأن القاري مراده بالافتقار، الافتقار الاختياري الذي يدخل في معنى العبادة؟.

الجواب :

هذا الحمل لكلام القاري حسنٌ وله وجه لو لم يكن للقاري تفسير لكلمة الافتقار، قال القاري: (وأما افتقار كل ما سواه إليه فيوجب له الحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم؛ لأنه لو انتفى شيء من هذا لما أمكن أن يوجد شيء من الحوادث فلا يفتقر إليه شيء، كيف؟ وهو الذي يفتقر إليه كل ما عداه، وكذلك يوجب له الوجدانية، إذ لو كان معه ثان في الألوهية لما افتقر إليه شيء للزوم عجزهما حينئذٍ، كيف؟ وهو الذي يفتقر إليه كل ما سواه)^(٢).

فالقاري من خلال شرحه للافتقار يتبين لنا أنه يرجع الافتقار إلى الافتقار الاضطراري الذي يدخل في توحيد المعرفة والإثبات، وبهذا لا يمكن حمل كلامه على الافتقار الاختياري، ولكن الشرح المذكور لكلمة الافتقار منقول عن بعض شراح متن عقيدة السنوسي، وليس من كلام القاري بل إن القاري ناقل لهذا التفسير عن غيره، ولعله حينما نقله لم يتبين له بطلانه، ولا سيما أن القاري في كثير من كتبه يقرر توحيد الألوهية، وأن الرسل ما أرسلوا إلا

(١) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٢) التجريد لإعراب كلمة التوحيد (٣٦) .

لتحقيق توحيد العبادة - كما سيأتي بمشيئة الله بيانه في المبحث الثاني - فتفسير من فسر كلمة التوحيد بتوحيد الربوبية تفسير باطل لا دليل عليه.

وبعد عرض كلام القاري للمدلول اللغوي والشرعي لكلمة "الإله" بأنه المألوه المعبود، نخلص إلى تعريف توحيد الألوهية، وهو إفراد الله ﷻ بالتأله أي: التعبد. وهذا ما قرره علماء المذهب السلفي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والإله المألوه الذي تأله القلوب، وكونه يستحق الألوهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبوداً محبوباً لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل)^(١).

* * * * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٨٤٦) .

المبحث الثاني: حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم السلام.

سبق أن أشرت إشارة في الفصل الثاني في معرفة الله ﷻ^(١) بأن القاري يرى أن الهدف من إرسال الرسل هو تحقيق توحيد العبادة، وفي هذا المبحث -بمشيئة الله- سوف نزيد المسألة إيضاحاً، ونبين بالأدلة من الكتاب وصحيح السنة أن حقيقة بعثة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما كانت لتحقيق توحيد الألوهية .

قال القاري: (فاعلم أن أدلة التوحيد مشحون بها القرآن لأهل العرفان قال تعالى: ﴿وَاللَّهُكُمُّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٣)، وقد جعلت كلمة التوحيد مفيدة لنفي ما سواه في الألوهية، وعدم غيره في استحقاق العبودية مع اعتراف جميع الكفار بتوحيد الربوبية)^(٤).

وقال أيضاً: (وإنما جاء الأنبياء -عليهم السلام- لبيان التوحيد وتبيان التفريد، ولذا أطبقت كلمتهم وأجمعت حجتهم على كلمة لا إله إلا الله، ولم يؤمروا بأن يأمرُوا أهل ملتهم بأن يقولوا الله موجود بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود رداً لما توهموا وتخلوا حيث قالوا ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥)،

(١) انظر: (١٢٠) .

(٢) سورة البقرة، آية (١٦٣) .

(٣) سورة محمد، آية (١٩) .

(٤) ضوء المعالي (٣٠) .

(٥) سورة يونس، آية (١٨) .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(١) (٢).

يتبين لنا من خلال هذين النصين أن القاري يقرر أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وركزت عليه هو توحيد الألوهية الذي هو حق الله على العبيد، وأن المستحق لهذه العبادة هو الله - جل وعلا - وحده وهذا الذي ذكره القاري هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإليك بعض النصوص علاوة على ما ذكره القاري .

أولاً : الأدلة من الكتاب العزيز .

١ - قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾^(٣).

فهذه الآية دلت على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة وإن اختلفت شرائعهم، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(٤) (٥).

٢ - وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٦).

(١) سورة الزمر، آية (٣) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٢٣-٢٤) .

(٣) سورة النحل، آية (٣٦) .

(٤) سورة المائدة، آية (٤٨) .

(٥) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله التميمي (٥١).

(٦) سورة الأنبياء، آية (٢٥) .

فهذه الآية تبين لنا أن كل الرسل الذين من قبل نبينا محمد ﷺ مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة^(١).
والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصر.

ثانياً : الأدلة من السنة .

١ - حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: " إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ... " وفي رواية: " إلى أن يوحدوا الله ... " (٢).

٢ - حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: " لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟، ف قيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: " انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ... " (٣).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعد (٢٢٣/٥) .

(٢) سبق تخريجه (٨٥) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة (٣٤٤/٢ - ٣٤٥ / رقم ٣٩٤٢) . ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة،
تتبع

ففي هذين الحديثين دلالة ظاهرة على أن التوحيد هو إخلاص العبادة لله وحده والبعد عن عبادة ما سواه .

وهذا هو أول واجب على العباد، لا كما يقول أهل الكلام من المعتزلة، والأشاعرة وغيرهم، أن أول واجب على العبد النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصد إلى النظر، أو الشك، ففي هذين الحديثين وأمثالهما من نصوص الكتاب والسنة ما يبطل هذا الزعم الخاطئ^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء)^(٢).

إذا فالقاري يتفق مع أئمة المذهب السلفي في تقرير هذه المسألة.

وهذا يبين لنا أنه لم يذهب إلى ما ذهب إليه علماء الكلام من تركيزهم على توحيد الربوبية، وإهمالهم لتوحيد العبادة الذي من أجله أرسل الله الرسل،

==

باب فضائل علي بن أبي طالب ﷺ (٤/١٨٧٢ / رقم ٢٤٠٦).

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ عبد الله الغنيان (١/٣٩-٤٠).

(٢) فتح المجيد (١/١٩١) .

فتوحيد الألوهية هو أول دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كما مر معنا في النصوص التي سبق ذكرها، وهو أيضاً آخر دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهو أول الأمر وآخر الأمر .

فهذا يعقوب -عليه الصلاة والسلام- لما حضره الموت وصى بنيه بتوحيد الألوهية الذي من أجله أرسل، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١).

ونخلاصة الكلام في هذا المبحث أن القاري يرى أن حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو توحيد العبادة، ومما يدل على ذلك أيضاً اهتمام القاري -رحمه الله تعالى- لتقرير هذا النوع بالأدلة العقلية النقلية الواردة في كتاب الله ﷻ ، وهذا ما سأبينه -بمشيئة الله- في المبحث الثالث.

* * * * *

(١) سورة البقرة، آية (١٣٣) .

المبحث الثالث : الأدلة العقلية النقلية لتوحيد الألوهية .

وفيه ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.
- المطلب الثاني: الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات .
- المطلب الثالث: الاستدلال بضرب الأمثال .

* * * * *

المطلب الأول : الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

اشتمل كتاب الله ﷻ على كثير من الأدلة العقلية التي تدعو الناس إلى عبادة الله ﷻ وأنه المستحق للعبادة وحده، وأن ما سواه لا يستحق شيئاً من ذلك.

وقد عرض القاري هذه الأدلة العقلية، وبين كيفية دلالتها على توحيد العبادة، ويمكن حصر كلام القاري في الاستدلال على توحيد الألوهية في ثلاث طرق:

الأول: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية .

الثاني: الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات .

الثالث: الاستدلال بضرب الأمثال .

ومجال الحديث هنا عن أول هذه الأدلة .

قال القاري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۚ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ۚ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۙ﴾^(١):
(﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ۚ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله، فلا تعبدوا إلا إياه،
﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۙ﴾ أي: كيف تصرفون عنه إلى ما سواه)^(٢).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۚ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۙ﴾^(٣):

(١) سورة الأنعام، آية (٩٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢١٥/ب). وانظر: خ ق (١٢٢١) .

(٣) سورة يونس، آية (٣١، ٣٢) .

(﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أي: المتولي لهذه الأمور هو المستحق للعبادة، هو ﴿ رَبُّكُمُ ﴾ الربوبية حيث أنشأكم، وأحياكم، ورزقكم، ودبر أمركم على وفق المشيئة والإرادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ليس بعد الحق إلا الباطل فمن يخطئ الحق الذي هو عبادة الحق وقع في تيه الضلال الموجب للأغلال والأنكال، ﴿ فَأَنِّي تُصَرَّفُونَ ﴾ عن الحق إلى الباطل مع وضوح أنه ليس تحته طائل (١).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنِّي تُؤَفَّكُونَ ﴾ (٢):

(﴿ ذَلِكُمُ ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمُ ﴾، ﴿ فَأَنِّي تُؤَفَّكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأنتم مغمورون في فضله وخيره (٣).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤):

(﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجأ إلى الله، والرجأ من بابه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ ﴾ الذي عمكم بهذه النعمة العامة، وخصكم بهذه المنحة الخاصة، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: تذكرون آلائه ونعمائه تذكراً قليلاً، و﴿ مَا ﴾ زائدة، والمراد بالقللة العدم

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٣٥/ب).

(٢) سورة غافر، آية (٦٢).

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢١).

(٤) سورة النمل، آية (٦٢).

والحقارة المربحة للفائدة إذ فائدة التذكر هي توحيد الله - سبحانه - بالعبادة، ولا ترتب على تذكرهم تلك الفائدة (١).

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق، أنه يستدل بإقرار الكفار بتوحيد الربوبية على إلزامهم بتوحيد الألوهية؛ ولذا قال في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ (٢): ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله (٣).

وهذه الأشياء هي فلق الحب والنوى، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، وهذه كلها أفعال داخلية في توحيد الربوبية فإذا كنتم تقولون أن الله فاعل هذه الأشياء فكيف تصرفون عنه إلى ما سواه؟ .

وقال أيضاً في آية سورة يونس ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ (٤): (أي: المتولي لهذه الأمور هو المستحق للعبادة) (٥)، وهذه الأمور التي أشار إليها القاري هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (٦)، فإذا كنتم تقولون أن الله هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، وهو الذي يملك السمع والأبصار، وهو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وهو الذي يدبر الأمر فلماذا لا

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٣٠)، وانظر: ق (١٠٢٩) .

(٢) سورة الأنعام، آية (٩٥) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان ق (١٢٢١) .

(٤) سورة يونس، آية (٣٢) .

(٥) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢١٥/ب) .

(٦) سورة يونس، آية (٣١) .

تفردونه بالعبادة دون ما سواه؟ .

وكذلك يقال في الآية الثالثة والرابعة كما قيل في الآية الأولى والثانية، فالقاري يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، أي أنه يلزم هؤلاء المشركين أن يخلصوا العبادة لله لأنه هو الخالق والرازق والمحيي والمميت وغير ذلك من أفراد توحيد الربوبية، وإذا كان الأمر كذلك فإن لازم هذا الإيمان أن تؤمنوا بأنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه، فلا يصرف شيء من أنواع العبادة لغيره سبحانه .

فالقُرآن مملوء بهذا النوع من الاستدلال العقلي القاطع، ولهذا قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وقد أقام الله - جل وعلا - البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله نفيًا وإثباتًا، بخلقه للسموات والأرض، وما بينهما في قوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) (١) الآية، وبذلك تعلم أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بأعظم الحق الذي هو إقامة البرهان القاطع، على توحيده جل وعلا، ومن كثرة الآيات القرآنية، الدالة على إقامة هذا البرهان القاطع المذكور على توحيده جل وعلا، علم من استقرأ القرآن، أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج لا يصح أن يعبد بحال (٢) .

وقال المقرئ: (ويحتج الرب - سبحانه - عليهم بتوحيدهم ربوبيته على

(١) سورة البقرة، آية (٢١-٢٢) .

(٢) أضواء البيان (٣٦٦/٧) .

توحيد ألوهيته كما قال الله تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ ٥٩ آله خيرٌ أمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٥٧﴾ (١) (٢).

وقال ابن قيم - رحمه الله - في الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية: (وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده) (٣).

وقد ذكر ابن سعدي - رحمه الله - أن توحيد الربوبية يدل على إفراد الله ﷻ بالعبادة فقال: (ويدعو العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير، والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي: قدرة على خلق، ولا نفع ولا دفع ضرر عن أنفسهم فضلاً عن أن يُغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً) (٤).

* * * * *

(١) سورة النمل، آية (٥٩-٦٠) .

(٢) تجريد التوحيد المفيد (٤٨) .

(٣) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (٤٢٧-٤٢٨) .

(٤) القواعد الحسان لتفسير القرآن، لابن سعدي (٢٣/٨) موجودة ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله .

المطلب الثاني: الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات

قال القاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١):

(قوله ﴿وَاللَّهُمَّ﴾ خطاب عام أي: المستحق منكم العبادة على نعت الألوهية، ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له أن يسمى إلهاً معبوداً، ولا نظير له أن يجعل مشهوداً، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية واستحقاق العبودية، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: مولي النعم كلها أصولها وفروعها، وما سواه إما نعمة أو منعم عليه. فلم يستحق العبادة غيره لأن مرجع الكل إليه)^(٢).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣):

(﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته، وتحرير لعزته وغلبته، ورد على من زعم منهم أن آلهتهم تشفع لهم، وإثبات الشفاعة لمن حصل إذن من ربهم، ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفات العلية المقتضية للألوهية والربوبية، ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد من ذلك، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أمركم أيها المشركون

(١) سورة البقرة، آية (١٦٣) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٢/ب). وانظر: خ ق (١٠٥٥) .

(٣) سورة يونس، آية (٣) .

فتعرفون أنه المستحق للعبادة لا ما تعبدونه (١).

يتبين لنا من خلال النصين السابقين أن القاري يستدل بتوحيد الأسماء والصفات على إفراد الله ﷻ بالعبادة، فقد ذكر في النص الأول أن مولي النعم كلها أصولها وفروعها هو الله ﷻ ، وإذا كان هو مولي النعم فإنه هو الذي يستحق أن يعبد وحده دون ما سواه، فهذه النعم كلها من آثار صفة الرحمة، وبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عن العباد كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلت فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم، الدافع للمكاره، وتعين على العباد أن يفردوه بالحب، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع العبادات (٢).

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله: (ففي هذه الآية (٣) إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، والاستدلال على ذلك بتفرد بالرحمة، التي من آثارها جميع البر والإحسان في الدنيا والآخرة) (٤).

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٢٨/ب). وانظر: خ ق (٨٣٢) .

(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لابن سعدي (١٩٤/٨) الموجود ضمن المجموعة الكاملة للمؤلف .

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: (١٦٣).

(٤) المرجع السابق (١٩٤/٨) .

وفي النص الثاني نرى القاري يستدل على توحيد الألوهية بأن الموصوف بتلك الصفات العليا: من الاستواء على العرش، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، وتدبير الأمر هو المستحق للعبادة دون ما سواه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

(والله - سبحانه - لم يذكر هذه النصوص - يعني آيات الصفات - لمجرد تقرير صفات الكمال له، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد، وهما إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو رداً على المشركين والشرك في العالم أكثر من التعطيل)^(١).

وقال ابن سعدي - رحمه الله - في القاعدة السادسة، في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده: (ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل - وهو إفراد الله بالعبادة - بما يتمدح به، ويثني على نفسه الكريمة، من تفرد به بصفات العظمة والجحد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أخلصت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة)^(٢).

* * * * *

(١) مجموع الفتاوى (٨٣/٦) .

(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن (٢٣/٨) الموجود ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن سعدي .

المطلب الثالث: الاستدلال بضرب الأمثال .

١ - قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١).

قال القاري: (﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ ولّد أخرس لا يفهم ولا يفهم، ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من تدبير عمله لنقصان عقله، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أي: ثقل وعيال على ولي أمره، ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ ﴾ حيث ما يرسله مولاه في أمر ينفعه، ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ من كفاية مهمة .

﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ أي: في الفضل، ﴿ هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي: ومن هو فهم منطيق عليم، ذو كفاية ورشد ورعاية ينفع نفسه، وينصح غيره بحشه على العدل الشامل لمجامع الفضائل ومكارم الشمايل .

﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ في دين قويم لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بسعي أقرب، وهذا تمثيل آخر ضربه الله لنفسه والأصنام لإبطال المشاركة بينه وبينها كما وقعت في الأوهام، أو للمؤمن والكفار وبرهان ملة الإسلام وبطلان عبادة الأصنام^(٢).

٢ - وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣).

(١) سورة النحل، آية (٧٦) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣٠/أ) .

(٣) سورة الزمر، آية (٢٩) .

قال القاري: (﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي: بين مثلاً للمشرك والموحد وأبدل منه ﴿ رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَبِّهُونَ ﴾ متخالفون متنازعون، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ مثل المشرك على ما يقتضيه طريقته من أبدى كل واحد من معبوديه عبوديته بعدد يتشارك فيه جمع يتجاذبونه ويتناوبونه في خدمته على وفق مهامهم المختلفة في تحيره، وتشئت فكره، وتوزع أمره، وتضييق صدره. ومثل الموحد بمن خلص لواحد في ملازمته ليس لغيره عليه سبيل في مطالبته

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ أي: الرجلان أو المثالان، ﴿ مَثَلًا ﴾ أي: صفة وحالاً. ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه لأنه المنعم بالذات على ما عداه، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون غيره به من غلبة جهالتهم وقوة ضلالهم (١).

٣ - وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٢).

قال القاري: (والمعنى بينا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسل) (٣).

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يستدل لتوحيد الألوهية بالأمثلة العقلية المضروبة في القرآن لبيان توحيد العبادة، وأن الله هو المستحق للعبادة دون ما سواه .

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١٩٧-١١٩٨) .

(٢) سورة الروم، آية (٥٨) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٠٩١) .

ولهذا قال القاري في النص الأول : (وهذا تمثيل آخر ضربه الله لنفسه والأصنام لإبطال المشاركة بينه وبينها كما وقعت في الأوهام، أو للمؤمن والكفار وبرهان ملة الإسلام وبطلان عبادة الأصنام)^(١).

وهذا موافق لمنهج أعلام المذهب السلفي .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى :

(وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله ﷻ لنفسه ولما يعبد من دونه أيضاً، فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي، قادر، متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل -وهو الحق- يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راضٍ به، أمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل تنزهه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل)^(٢).

وكذلك بين القاري في النص الثاني أن الله ضرب مثلاً بين عبدين أحدهما يملكه جماعة من الشركاء متشاكسون متخالفون متنازعون، كل واحد منهما له مطلب يريد من هذا العبد أن يُنفذه ويريد الآخر غيره، وأما الآخر فقد خلص لواحد في ملازمته ليس لغيره عليه سبيل في مطالبته، فهل يستويان هذان؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق؟ لا يستويان.

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣٠/أ) .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٦١-١٦٢) .

وهذا المعنى قرره علماء المذهب السلفي .

قال ابن قيم - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية :

(احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له، فهل يصح في العقول استواء حال العبدین؟ فكذاك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإله الحق؟ لا يستويان)^(١).

* * * * *

(١) مدارج السالكين (١/٢٦٤). وانظر: إعلام الموقعين (١/١٨٧)، وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٦/٤٦٩).

الفصل الثاني

العبادة

وفيهِ مَبْحَثَانِ :

- المبحث الأول: تعريف العبادة وشروط قبولها .
- المبحث الثاني: بعض أنواع العبادة .

* * * * *

تمهيد:

لما رجعت مادة آله، يأله، إلهة، من حيث المدلول اللغوي والشرعي إلى عبد، يعبد، عبادة، كان لا بد من بيان المراد بالعبادة، وشروطها التي تكون بها مقبولة عند الله مع ذكر بعض أنواع العبادة، وقد تعرّض القاري لبعض المسائل المتعلقة بالعبادة، فعرف العبادة لغة وشرعاً .

كما أنه تحدث عن شروط قبولها، وبعض أنواع العبادة .

ولذا سأورد هذه المسائل في مبحثين، وسيكون الكلام مع القاري

من خلالها .

* * * * *

المطلب الأول : تعريف العبادة .

قال القاري - رحمه الله - عند شرحه لحديث معاذ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول! أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن أمر عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً....» ^(١) الحديث :

(العبادة أقصى غاية الخضوع، والمراد به التوحيد لقوله: «ولا تشرك به شيئاً»، أو الأعم منه ليعم امثال كل مأمور، واجتناب كل محظور) ^(٢) .
ونقل عن الطيبي ^(٣) معنى العبادة فقال: (هو غاية التذلل، والافتقار، والاستكانة) ^(٤) .

وقال أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي

(١) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حُرمة الصلاة (١٣/٥) رقم (٢٦١٦). وابن ماجه في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (١٣١٤/٢) رقم (٢٩٧٣). وأحمد في مسنده (٢٣١/٥، ٢٤٥، ٢٣٧).

والحديث صححه الترمذي، وابن حبان كما في الإحسان (٤٧٧/١) رقم (٢١٤)، والحاكم والذهبي كما في المستدرک (٤١٢/٢-٤١٣)، والأرنأؤوط كما في شرح السنة (٢٦/١) رقم (١١).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٩٢/١) .

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي، نبغ في علوم كثيرة، كان زاهداً ورعاً تقياً، له الباع الطولى في العلوم. من مصنفاته: الكاشف عن حقائق السنن النبوية، التبيان في المعاني والبيان. توفي سنة (٧٤٣هـ) .

انظر: شذرات الذهب (١٣٧/٦)، وبغية الوعاة (٢٢٨-٢٢٩)، ومعجم المؤلفين (٥٣/٤).

(٤) مرقاة المفاتيح (١٢/٥) .

خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١): (قوله ﴿ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي: وحدوه، وأطيعوه بامثال أوامره، واجتناب زواجره)^(٢).

اشتمل كلام القاري السابق على مسألتين :

المسألة الأولى : تعريف العبادة في اللغة .

المسألة الثانية : تعريف العبادة في الشرع .

وفيما يلي بيان لمدى موافقة كلامه رحمه الله لكلام أهل اللغة، وتعريف العلماء للعبادة في الشرع .

أ < تعريف العبادة في اللغة :

يتبين لنا من كلام القاري السابق وفيما نقله عن الطيبي بأن العبادة في اللغة: هي غاية الخضوع، والذل، والافتقار، والاستكانة. وهذا موافق لما قاله أهل اللغة .

قال الجوهري: (وأصل العبودية الخضوع والذل)^(٣).

وقال الأزهرى^(٤): (معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، يقال:

(١) سورة البقرة، آية (٢١) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧/ب - ٨/أ) . وانظر: خ ق (٨٢٦) .

(٣) الصحاح (٥٠٣/٢) .

(٤) هو العلامة، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، المعروف بالأزهري، إمام في اللغة، ولد بهراة سنة (٢٨٢هـ)، كان فقيهاً صالحاً، غلب عليه علم اللغة، توفي بهراة سنة (٣٧٠هـ). من مصنفاته: تهذيب اللغة، وشرح ألفاظ مختصر المزني.

انظر: طبقات الشافعية للأسنوي (٣٥/١)، وشذرات الذهب لابن العماد (٣٧٩/٤ - ٣٨٠).

طريق معبد إذا كان مذلاً بكثرة الوطاء (١).

وقال ابن سيده (٢): (أصل العبادة في اللغة التذلل من قولهم طريق معبد أي: مذلل بكثرة الوطاء عليه قال طرفة (٣):

تُبَارِي (٤) عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ مُعَبَّد (٥).

المور: الطريق، ومنه أخذ العبد لذلته لمولاه، والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب من المعاني (٦).

(١) تهذيب اللغة (٢/٢٣٤) .

(٢) هو إمام اللغة، أبو الحسن، علي بن إسماعيل المُرسي الضرير، المعروف بابن سيده، أحد من يضرب بذكائه المثل، توفي سنة (٤٥٨هـ). من مصنفاته: "المحكم"، و"شرح الحماسة"، و"شعراء اللغة".

انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/٨٥)، والسير (١٨/١٤٤-١٤٦) .

(٣) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك، البكري الوائلي، أبو عمرو، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى .

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (٩٥) .

(٤) قال الزوزني في شرحه لهذا البيت : (باريت الرجل: فعلت مثل فعله مغالباً له. العتاق: جمع عتيق، وهو الكريم. الناجيات: المسرعات في السير، نجا ينجو نجاً ونجاء أي: أسرع في السير. الوظيف: ما بين الرسغ إلى الركبة وهو وظيف كله. المور: الطريق. المعبد: المذلل ... يقول: هي تباري إبلاً كراماً مسرعات في السير، وتتبع وظيف رجلها وظيف يدها فوق، طريق مذلل بالسلوك والوطء بالإقدام والخوافر والمناسم في السير). شرح المعلقات السبع (٤٩) .

(٥) انظر: البيت في شرح المعلقات السبع، للزوزني (٤٩) .

(٦) المخصص (١٣/٩٦) .

ب (تحريف العبادة في الشرع :

ذكر القاري أن العبادة في الشرع هي: طاعة الله، وتوحيده بامثال أوامره واجتناب زواجره، ولهذا قال عند قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(١) أي: وحدوه، وأطيعوه بامثال أوامره واجتناب زواجره^(٢).

فهذا التعريف الذي ذكره القاري جامع مانع حيث يدخل فيه جميع أمور الشريعة من الأوامر والنواهي، سواء كانت على سبيل الإلزام أو الأفضلية. وأعظم هذه الأوامر إخلاص الدين لله وحده، وأعظم الزواجر النهي عن الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)^(٣).

فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله^(٤).

فعلى هذا التعريف الذي ذكره القاري يتبين لنا أن العبادة مفهومها

(١) سورة البقرة، آية (٢١) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧/ب - ٨/أ) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٤٩/١٠) .

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤٩/١٠ - ١٥٠) .

شامل وواسع يشمل الدين كله، وهذا ما قرره شيخ الإسلام في رسالة
العبودية^(١).

* * * * *

(١) انظر: رسالة العبودية لشيخ الإسلام .

المطلب الثاني : شروط قبول العبادة .

العبادة الشرعية لا تكون مقبولة عند الله ﷻ إلا إذا توافر فيها ثلاثة أصول: الإيمان بالله ﷻ ، والإخلاص له، والمتابعة لرسوله ﷺ . وإلا فهي مردودة على صاحبها غير مقبولة. وقد نبه القاري على هذه الأصول الثلاثة.

١ الأصل الأول: الإيمان بالله ﷻ : -

وهو أصل لقبول العمل وإلا رد على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١).

قال القاري عند تفسيره لهذه الآية: (من عمل صالحاً موافقاً لقواعد الشريعة العليا من ذكر أو أنتى، وهو مؤمن بالمولى إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في العقبى لاستحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العقاب ^(٢)) إن لم يُجازوا عليها في الدنيا بطول الأعمال وكثرة الأولاد وزيادة الجاه والأسباب وأفاد الأستاذ أن الصالح ما يصلح للقبول وهو ما كان على وجه أمر به الرسول، فالعمل الصالح لا يكون من غير إيمان فقلوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ معناه عمل صالح في الحال، وهو مؤمن في المآل ^(٣) .

٢ الأصل الثاني : أن يكون العمل خالصاً لله تعالى : -

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا

(١) سورة النحل، آية (٩٧) .

(٢) هذا مخالف لظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾.

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣٣/ب - ٣٣٤/أ) . وانظر: رقم اللوح (٤٤٢/أ-ب) .

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿١﴾.

وقد بين القاري هذا الشرط في كثير من كتبه وأكتفي بإيراد نصين من ذلك.

قال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أي: في كتبهم فيما فيها، ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لا يشركون، به أو وما أمروهم وغيرهم إلا ليعبدوا الله دون غيره، مخلصين له الطاعة من الرياء والسمعة (٢).

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿٥﴾:

(﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي: الانقياد في الطاعة على وجه المحبة، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والعقبى لأن إحراز قصب السبق في الدارين بالإخلاص في الدين ... ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص في الدعاء، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء ... ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ في جميع أعمالي، وسائر أحوالي من القيام بالطاعة، والحذر من المخالفة (٤).

(١) سورة البينة، آية (٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٤٨٢) .

(٣) سورة الزمر، آية (١١-١٤) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١٩٤) .

الأصل الثالث : المتابعة : -

وهي أن تكون العبادة موافقة لسنة النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)
 قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

وفي الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٤).

وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٥).

وقد بين القاري هذا الشرط في مواضع مختلفة من كتبه فمن ذلك:

ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٦).

(﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ ما أعطاكم من الشيء، أو من الأمر،
 ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه على وجه الاستطابة، أو فتمسكوا به لأنه واجب الطاعة،

(١) سورة آل عمران، آية (٣١-٣٢).

(٢) سورة الحشر، آية (٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢/٢٦٧/٢ رقم ٢٦٩٧). ومسلم في صحيحه كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/١٣٤٣/٣ رقم ١٧١٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/١٣٤٤/٣ رقم ١٧١٨).

(٥) سورة الحشر، آية (٧).

﴿ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ ﴾ عن أخذه، أو عن إتيانه، ﴿ فَأَنْتَهُوْا ﴾ اجتنبوا منه بقدر الطاعة، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في مخالفة رسوله في أمره ونهييه، ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالف في هذا الباب (١).

وقال أيضاً: (إن طريق النجاة للأنام هو متابعتة ﷺ وأصحابه الكرام في جميع أحكام الإسلام كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢)، ويدل عليه حديث " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " (٣) (٤).

وقال أيضاً في المرقاة عند شرحه لحديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (٥):

(وهذا الحديث عماد في التمسك بالعروة الوثقى، وأصل في الاعتصام بحبل الله الأعلى، ورد للمحدثات والبدع والهوى، وأنشد في هذا المعنى :

إذا ما جا الليل البهيم وأظلما بأمرٍ فظيعٍ شقٍّ أسودٍ أدهمنا
فأعلى البرايا من إلى السنن اعتزى وأعمى البرايا من إلى البدع انتمى

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٣٦٨-١٣٦٩). وانظر: شرح الشفاء (١١/٢-١٢).

(٢) سورة آل عمران، آية (٣١).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع العلم وفضله (٩٢٥/٢ / رقم ١٧٦٠) وقال: هذا إسناد لا تقوم به حجة، لأن الحارث بن غصين مجهول. وأخرجه ابن حزم في الأحكام (٨٢/٢).

وحكم عليه محدث العصر الألباني بأنه حديث موضوع. انظر: السلسلة الضعيفة (٧٨/١-٧٩ / رقم ٥٨).

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (١٣/١). وانظر: شرح الشفاء (٣/٢، ١٤-١٥).

(٥) سبق تخريجه (٢١٢).

ومن ترك القرآن قد ضل سعيه وهل يترك القرآن من كان مسلماً^(١)

وقال أيضاً في قول ابن مسعود رضي الله عنه : « القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة »^(٢) :

(« القصد في السنة » أي التوسط في العمل بها بين الكثرة والقلة، « خير من الاجتهاد في البدعة » أي أحسن من المبالغة في بذله الوسع والطاقة والكثرة من الطاعة في حال الأخذ بالبدعة ولو كانت مستحسنة)^(٣).

فالقاري من خلال هذه النصوص التي سقتها من كلامه يتبين لنا أنه يشترط المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم في كل عمل يعمل به العبد يتقرب به إلى الله .

وهذه الأصول التي ذكرها القاري هي التي دل عليها الكتاب، وصحيح السنة، وأكدها علماء الأمة .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في بيان تلك الأصول الثلاثة في كتابه القيم "أضواء البيان" :

(اعلم أولاً أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور :

أولاً : موافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله يقول ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٤).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٦٦) .

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة (٣٠/ رقم ٨٨)، والمروزي في ذم الكلام وأهله (٢/ ٣٤٤، ٣٤٥/ رقم ٤٣٧، ٤٣٨) .

(٣) شرح الشفاء (٢/ ٢٦) .

(٤) سورة الحشر، آية (٧) .

ثانياً : أن يكون خالصاً لله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يقول ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١)، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾^(٢) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ^(٣).

ثالثاً : أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾^(٤)، ففقد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح .

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٥)، وقوله ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦)، وقوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ.....﴾^(٧)، وقوله ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(٨) إلى غير ذلك من (الآيات)^(٩).

* * * * *

(١) سورة البينة، آية (٥) .

(٢) سورة الزمر، آية (١٤-١٥) .

(٣) سورة النحل، آية (٩٧) .

(٤) سورة الفرقان، آية (٢٣) .

(٥) سورة هود، آية (١٦) .

(٦) سورة النور، آية (٣٩) .

(٧) سورة إبراهيم، آية (١٨) .

(٨) أضواء البيان (٣/٣٢١-٣٢٢) .

المبحث الثاني : بعض أنواع العبادة .

وفيهِ أربعة مطالب :

- المطلب الأول: الدعاء .
- المطلب الثاني: الذبح .
- المطلب الثالث: الخوف والرجاء .
- المطلب الرابع: المحبة .

* * * * *

المطلب الأول : الدعاء .

سبق أن بينا في المبحث الأول أن مفهوم العبادة شامل واسع، يشمل الدين كله، فجميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة التي أمرنا الله بها، أو نهانا عنها داخلية في مسمى العبادة .

ولكثرة أنواع العبادات سأقتصر - بمشيئة الله - على ذكر جملة منها وكلام القاري عليها .

وأول ما نبدأ به الدعاء لأنه هو العبادة كما نطق بذلك الصادق المصدوق^(١).

رأي القاري في الدعاء :

تكلم القاري على هذا النوع من العبادة - وهو الدعاء - في أول شرحه لكتاب الدعوات من المشكاة، وكذلك في تفسيره لبعض الآيات التي ذكر فيها الدعاء. وقد ذكر - رحمه الله - أنه لا شيء أكرم على الله من الدعاء، ثم علل ذلك بقوله: (لأن فيه إظهار العجز، والافتقار، والتذلل، والانكسار، والاعتراف بقوة الله وقدرته، وغناه، وكبريائه)^(٢).

وقال أيضاً عند شرحه لحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٣).^(٤)

(١) يأتي بمشيئة الله قريباً بيان الحديث الدال على ذلك .

(٢) مرقاة المفاتيح (١٣/٥) .

(٣) سورة غافر، آية (٦٠) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧١/٤). وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب الدعاء

(قوله « الدعاء هو العبادة » أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه، قائماً بوجوب العبودية، معترفاً بحق الربوبية، عالماً بنعمة الإيجاد^(١)).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٢):

(﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي ﴾ اعبدوني، ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أثبكم لقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾، والمراد بالعبادة الدعاء فإنه من أبواها بل زبدة أسبابها، فقد ورد أن الدعاء مخ العبادة^(٣))^(٤).

==

(٢/١٦١/رقم ١٤٧٩). والترمذي في جامعه كتاب تفسير القرآن باب ٣ ومن سورة البقرة (٥/١٩٤-١٩٥/رقم ٢٩٦٩). وأخرجه في كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/٤٢٦/رقم ٣٣٧٢). وابن ماجه في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء (٢/١٢٥٨/رقم ٣٨٢٨). والحاكم في مستدركه في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/٤٩٠-٤٩١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه النووي كما في كتابه الأذكار (٤٧٨). والألباني في صحيح الجامع (٣/١٥٠/رقم ٣٤٠١) وفي صحيح الترمذي (٣/٢٤، ١٠١، ١٣٨) وصحيح ابن ماجه (٢/٣٢٤/رقم ٣٠٨٦).

(١) مرقاة المفاتيح (١٢/٥).

(٢) سورة غافر، آية (٦٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/٤٢٥-٤٢٦/رقم ٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

وضعف الحديث المحدث الألباني كما في مشكاة المصابيح (٢/٦٩٣/رقم ٢٢٣١)، وأحكام الجنائز وبدعها (١٩٤-١٩٥).

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢٠).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١):

(قوله ﴿فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الطاعة من الشرك والسمعة قائلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على سائر النعمة)^(٢).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣):

(﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ من الحجج والآيات، ﴿مِنْ رَبِّي﴾ من عنده على وجه الكرامات، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن أنقاد له في ديني، وأخلص له في يقيني)^(٤).

وقال أيضاً: (واختلف هل الأفضل هو الدعاء أو السكوت تحت جريان القضاء مع أن الدعاء لا ينافي الرضاء؟)^(٥).

يتبين لنا من تلك النصوص التي سقتها من كلام القاري أنه تطرّق إلى مسألتين :

(١) سورة غافر، آية (٦٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢٢) .

(٣) سورة غافر، آية (٦٦) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٢٢٢) .

(٥) شرح عين العلم وزين الحلم (٩٩/١) .

المسألة الأولى : أن الدعاء من أنواع العبادة .

المسألة الثانية : أيهما أفضل الدعاء أو السكوت تحت جريان القضاء؟.

وسيكون الكلام مع القاري من خلال هاتين المسألتين .

* * * * *

المسألة الأولى : الدعاء من أنواع العبادة .

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الدعاء من أنواع العبادة^(١)، بل هو العبادة الحقيقية؛ لأن فيها الإقبال على الله، والإعراض عما سواه بحيث لا يرجو ذلك الداعي، ولا يخاف إلا الله وحده لا شريك له، وهذا هو حقيقة العبادة التي من أجلها خلق الله الخلق: وهو الإقبال على الله في جميع الأمور، والإعراض عما سواه .

فالقاري يرى أن الدعاء من أنواع العبادة، وقد استدل على ذلك ببعض الأدلة منها: حديث أنس رضي الله عنه : « الدعاء مخ العبادة »^(٢).

وحديث: « الدعاء هو العبادة »^(٣).

وحديث: « ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء »^(٤) - ثم قال بعد ذكره لجملة من الأحاديث - : (ونعم ما قيل:

(١) انظر: شرح عين العلم وزين الحلم (١/٦٨-٩٩) .

(٢) سبق تخريجه (٢١٨) .

(٣) سبق تخريجه (٢١٧-٢١٨) .

(٤) يأتي تخريجه قريباً - بمشيئة الله - (٢٢٥) .

الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنيَّ آدمَ حينَ يسألُ يغضبُ (١).

فما ذكره القاري من كون الدعاء من أنواع العبادة بل هو العبادة الحقيقة حق كما نطقت بذلك النصوص .

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى: (ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الذل، والخضوع لله ﷻ الدعاء قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٣) (٤).

والدعاء الذي أمر الله به عباده في كتابه الكريم نوعان :

أحدهما : دعاء العبادة، وهو التقرب إلى الله -جل وعلا- بأنواع العبادات: من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وبر الوالدين، وغير ذلك من أنواع العبادات، طمعاً في رحمة الله جل وعلا، وخوفاً من عقابه .

الثاني : دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع، أو دفع ضرر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (لفظ "الدعاء، والدعوة" في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة) (٥).

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (١/٩٨-٩٩) .

(٢) سورة الأعراف، آية (٥٥) .

(٣) سورة الأنبياء، آية (٩٠) .

(٤) الخشوع في الصلاة (٣٠) .

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/٢٣٧-٢٣٨) .

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ :

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان. فإن دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً. وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (٢)، وقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ (٣)، فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم .

وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع، والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء مسألة. ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (٤) يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان

(١) سورة الأعراف، آية (٥٥-٥٦) .

(٢) سورة يونس، آية (١٠٦) .

(٣) سورة يونس، آية (١٨) .

(٤) سورة البقرة، آية (١٨٦) .

متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل ما يفطن له، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً، فهي من هذا القبيل^(١).

٤ المسألة الثانية : أيهما أفضل الدعاء أو السكوت تحت جريان القضاء؟

ذكر القاري أربعة أقوال لأهل العلم في هذه المسألة :

القول الأول : أن الدعاء أفضل لحديث الدعاء مخ العبادة^(٢).

القول الثاني : أن ترك الدعاء والاستسلام للقضاء أفضل .

واستدلوا بحديث: « من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي

السائلين »^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٠-١١). وانظر: بدائع الفوائد لابن قيم (٢/١٩٠) (٢/٣) وما بعدها .

(٢) سبق تخريجه (٢١٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب رقم (٢٥) (٥/١٦٩) رقم (٢٩٢٦). والدارمي في سننه في كتاب فضائل القرآن، باب فضل كلام الله على سائر الكلام (٢/٥٣٣/٢) رقم (٣٣٥٦). وأخرجه عبد الله بن أحمد في المسند (١/١٤٩-١٥٠) رقم (١٢٨). وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية (١٥٩/١) رقم (٢٨٦ و ٣٣٩). والعقيلي في الضعفاء (٤/٤٩). وابن أبي حاتم في العلل (٢/٨٢). كلهم من طريق محمد بن الحسين بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري به .

قال ابن أبي حاتم في العلل (٢/٨٢): (سألت أبي عن حديث رواه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: « قال الله عز وجل : من شغله ... » قال أبي: هذا حديث منكر، ومحمد بن الحسن ليس بالقوي).

وذكر أنه يؤيده قول الخليل عليه السلام : « علمه بحالي يغني عن سؤالي » ^(١).

القول الثالث : وقيل يختلف باختلاف الأوقات .

القول الرابع : وقيل ما كان لنفسه فالسكوت أولى، وما كان لغيره فالدعاء أخرى ^(٢).

من خلال هذه الأقوال التي ذكرها القاري يتبين لنا أنه لم يرجح شيئاً من تلك الأقوال، وإن كان قد يقال: إن القاري يرجح القول الثاني؛ لأنه لما ذكر استدلالهم بحديث « من شغله ذكرني عن مسألتي ... » قال: ويؤيده قول الخليل عليه السلام « علمه بحالي يغني عن سؤالي » فقول القاري: (ويؤيده) هذا مما يؤكد أنه يذهب إلى القول الثاني، ولكن على كل حال فالراجح في هذه المسألة هو القول الأول وهو ما عليه جمهور أهل العلم ^(٣).

وسبب الترجيح لذلك عدة أمور منها :

أولاً: قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ^(٤) فهذه الآية ظاهرة في

==

وقال الذهبي في الميزان (١١٥/٣) بعدما ذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (حسنه الترمذي فلم يحسن)، وضعفه الألباني. انظر: السلسلة الضعيفة (٤/٥٠٦-٥٠٩/ رقم ١٣٣٥). وانظر: ضعيف الجامع (٩٣٤/ رقم ٦٤٣٥).

(١) ليس له إسناد معروف وهو باطل كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: الفتاوى (١٨٣/١). قال الألباني: لا أصل له. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١/٢٨-٢٩).

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٩٩/١) .

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٩٤/١١) .

(٤) سورة غافر، آية (٦٠) .

ترجيح الدعاء على التفويض^(١).

ثانياً : قوله ﷺ: فيما رواه النعمان بن بشير ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(٢).

ثالثاً : وقوله ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»^(٣).

وهذه الأدلة تدل على أن الدعاء أفضل، فأعلى مقامات العبد أن يدعو بلسانه ويرضى بقلبه^(٤)، وبهذا تتحقق للعبد عبودية الدعاء، وعبودية الرضا بالقضاء والقدر^(٥).

* * * * *

(١) فتح الباري لابن حجر (٩٤/١١) .

(٢) سبق تخريجه (٢١٧-٢١٨) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٢/٢). والترمذي في سننه في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٤٢٥/٥ / رقم ٣٣٧٠). وابن ماجه في سننه في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (١٢٥٨/٢ / رقم ٣٨٢٩). والبخاري في الأدب المفرد باب فضل الدعاء (١٧٦/٢ / رقم ٧١٢). وحسنه الألباني رحمه الله تعالى. انظر: صحيح سنن الترمذي (١٣٨/٣ / رقم ٢٦٨٤)، وصحيح سنن ابن ماجه (٣٢٤/٢ / رقم ٣٠٨٧).

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٩٥/١١) .

(٥) انظر: منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة، لمحمد إسحاق كندو (١٠٠٦-١٠٠٧) .

المطلب الثاني : الذبح .

رأي القاري في عبادة الذبح :

قال - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له... ^(١) :

(﴿ قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي ﴾ عبادتي، وقرباني وذبيحتي، أو ححي وعمرتي، ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ أي: وما أنا عليه في حياتي وموتي من إيماني، وطاعتي، وجميع حالاتي ... ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي خالص له، وهو خالقه ومالكة، ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ أي في خلقه وملكه وبذلك الإخلاص الذي هو طريق الخلاص أمرت في مقام الاختصاص ^(٢) .

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنَحِرْ ﴾ ^(٣) :

(﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ قدم على الصلوة الجامعة للعبادات القلبية والقلبية من اللسانية والأركانية، خالصاً لوجه الله، ذاهلاً عن ملاحظة ما سواه، شاكراً لما أعطاك من نعمائه، ﴿ وَأَنَحِرْ ﴾ البدن التي خيار أموال العرب وتصدق على أهل الاحتياج والمراد بالصلوة صلوة العيد، وبالنحر التضحية بالوجه السديد ليكون جامعاً بين العبادات البدنية والطاعة المالية ^(٤) .

(١) سورة الأنعام، آية (١٦٢-١٦٣) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٣١/ب - ٢٣٢/أ) .

(٣) سورة الكوثر، آية (٢) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١٤٩٣-١٤٩٤) .

المناقشة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الذبح من أنواع العبادات وهو من العبادات المالية التي يجب صرفها لله ﷻ ولهذا قال في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين^(١): (أي: خالص له، وهو خالقه ومالكه، أي: في خلقه ومملكه، وبذلك الإخلاص الذي هو طريق الخلاص أمرت في مقام الاختصاص)^(٢).

فالذبح من أنواع العبادات التي يجب صرفها لله ﷻ ومن صرفها لغير الله فقد أشرك، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾^(٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضع، والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله... والمقصود: أن الصلاة

(١) سورة الأنعام، آية (١٦٢-١٦٣).

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٣١/ب - ٢٣٢/أ).

(٣) سورة النساء، آية (٣٦).

(٤) سورة الإسراء، آية (٢٣).

(٥) سورة الكوثر، آية (٢).

والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله ... وأجل العبادات المالية النحر،
وأجل العبادات البدنية الصلاة (١).

* * * * *

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥٣١-٥٣٢).

المطلب الثالث : الخوف والرجاء .

رأي القاري في عبادة الخوف والرجاء :

قال القاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) :

(﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والآثام، ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ببعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وشرعهم الأحكام ... ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خائفين من عقابه، وطامعين في ثوابه، أو خائفين من رده عدلاً، وطامعين في قبوله فضلاً^(٢) .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣) :

(﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ ثوابه ولقائه، ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ نعيمه وجزاءه، أو يخاف عذابهما في دنياه وعقابه، ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فإن كثرة الذكر تؤديه إلى ملازمة الطاعة في الدنيا، وتقتضي له حساباً يسيراً في العقبى^(٤) .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٥) قال:

(١) سورة الأعراف، آية (٥٦) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٤٨/أ)، وانظر: (١٢٣/أ)، خ ق (١١٠٣) .

(٣) سورة الأحزاب، آية (٢١١) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١١١) .

(٥) سورة الأحزاب، آية (٣٩) .

(﴿ وَتَخْشَوْنَهُ وَلَا تَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ لعلمهم بأنه لا يصيب أحداً ضرر ولا محذور إلا بتقدير مقدور، فيفردونه بالخشية عند كل أمور... ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ كافياً للمخاوف، أو محاسباً للذنوب فينبغي ألا يخشى إلا من علام الغيوب (١).

وقال أيضاً: (فالواجب على كل مؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء، والقبول والرد في الانتهاء، ولا يغتر بأنه بحسب الظاهر في صورة العلماء، وفي سيرة الصالحاء، وكذلك لا يقنط من رحمته تعالى، ولو كان في طريق الفسقة أو الجهلاء، فإن المدار على الخاتمة اللاحقة، على وفق ما جرى القلم في الساعة السابقة، وقد ورد في السنة حديث صحيح رواه أصحاب الكتب الستة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ووزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة " (٢). والآيات في هذا المعنى

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (١١١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٤٢٤/٢) رقم ٣٢٠٨. ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٢٠٣٦/٤) رقم ٢٦٤٣. وأحمد في مسنده (٣٨٢/١، ٤٣٠). وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر (٨٢/٥-٨٣/ رقم ٤٧٠٨). والترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم (٣٨٨/٤-٣٨٩/ رقم ٢١٣٧). وابن ماجه في المقدمة باب في القدر (٢٩/١) رقم ٧٦.

كثيرة والأحاديث في هذا المبنى شهيرة (١).

وقال أيضاً: (اعلم أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً راجياً لقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً تَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (٢).

وقوله ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ (٣). والتحقيق أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، فالخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله سبحانه، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود رجاء -رجل (٤)- عمل بطاعة الله -تعالى- على نور من ربه، فهو راجٍ لمثوبته، أو رجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله فهو راجٍ لمغفرته.

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا ويرجو رحمة الله تعالى بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

قال أبو علي الروذباري (٥) رحمه الله: (الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا

(١) المقدمة السالمة في خوف الخاتمة (١٢-١٣). وانظر: الذخيرة الكثيرة في رجاء المغفرة الكبيرة (٣٠)، وشرح عين العلم وزين الحلم (٢٤/١).

(٢) سورة الزمر، آية (٩).

(٣) سورة السجدة، آية (١٦).

(٤) في المطبوع (رجاء عمل بطاعة الله ...)، وهذا لا يستقيم، والصواب رجاء رجل عمل بطاعة الله. انظر: شرح الطحاوية (٤٥٦/٢).

(٥) هو محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري من كبار الصوفية، سكن مصر، توفي سنة (٣٣٢هـ). انظر: تاريخ بغداد (٣٢٩/١-٣٣٣).

ذهبا صار الطائر في حد الموت (١).

المناقشة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه يرى أن الخوف والرجاء من أنواع العبادات التي أمر الله بها، وأثنى على المؤمن المتحلي بها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)، وأنه يجب على العبد أن يكون خائفًا راجيًا كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (٣).

وذكر رحمه الله تعالى أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، فالخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود رجاء عمل بطاعة الله تعالى على نور من ربه، وأما من تماد في التفريط والخطايا، ورجى رحمة الله تعالى بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب .

هذا التحقيق المتين الذي ذكره القاري في عبادة الخوف والرجاء أحذه القاري من كلام ابن أبي العز شارح الطحاوية دون عزوه إليه، وإليك نص عبارة ابن أبي العز .

قال رحمه الله: (يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود

(١) شرح الفقه الأكبر (١٥٥). وانظر: شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٢٤٧-٢٧٤).

(٢) سورة الأعراف، آية (٥٦) .

(٣) سورة الزمر، آية (٩) .

الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجلٍ أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله، فهو راجٍ لمغفرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني، والرجاء الكاذب، قال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٣).

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنه إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه^(٤).

وخلاصة الكلام في هذا المرام أن الخوف المحمود: هو ما حجز العبد عن محارم الله. والخوف المذموم: هو ما أدى بالعبد إلى اليأس والقنوط من

(١) سورة البقرة، آية (٢١٨).

(٢) سورة الزمر، آية (٩).

(٣) سورة السجدة، آية (١٦).

(٤) شرح الطحاوية لابن أبي العز (٤٥٦/٢-٤٥٧). وانظر: مدارج السالكين (٣٧/٢).

رحمة الله^(١).

والرجاء المحمود لا يصلح إلا مع العمل^(٢) كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣).
وأما الرجاء بلا عمل مع التماذي في التفريط والخطايا فهذا هو الغرور،
والرجاء الكاذب .

* * * * *

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/١٥٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز
(٢/٤٥٦-٤٥٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن قيم (٢/٣٧) .

(٣) سورة الكهف، آية (١١٠) .

المطلب الرابع : المحبة .

رأي القاري في المحبة :

المحبة قسمان :

الأول : محبة الرب ﷻ لعبده .

الثاني : محبة العبد لربه ﷻ .

وللقاري كلام في كلا القسمين .

وفي هذا المطلب عرض للقسم الثاني فقط، وأما القسم الأول فسأرجئ الكلام عنه مع الكلام في صفات الله ﷻ .

كلام القاري في محبة العبد لربه جاء متشعباً، ولكن أجمل كلامه في ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : رأي القاري في محبة العبد لربه .

المسألة الثانية : رأي القاري في الطرق الموصلة إلى محبة العبد لربه .

المسألة الثالثة : رأي القاري فيمن قال: "ما عبدتك خوفاً من نارك ولا رجاء لجنّتك، بل حباً لك وشوقاً لرؤيتك" .

* * * * *

٤ المسألة الأولى : رأي القاري في محبة العبد لربه .

للقاري في تفسير محبة العبد لربه تفسيران :

- الأول : التأويل ويتضح ذلك في النصوص الآتية :

١ - قال القاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(١) :
(محبة العبد لربه إرادة طاعته، والاعتناء بتحصيل مرضاته)^(٢) .

فقد فسر المحبة بإرادة الطاعة .

٢ - وقال أيضاً عند تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ^٤ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣) :
(" أحب إليكم من الله ورسوله " أي: من أمره، وحكمه في دينه)^(٤) .

فقد فسر المحبة بمحبة أمره، وحكمه وَعَلَيْكُمْ .

- الثاني : إثبات المحبة بدون تأويل ويتضح ذلك في النصوص الآتية :

١ - قال رحمه الله: (ومما يدل على إثبات الحب لله قوله وَعَلَيْكُمْ : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٥) ، ثم في قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٦) دليل

(١) سورة البقرة، آية (١٦٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٣/ب) .

(٣) سورة التوبة، آية (٢٤) .

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٠٣/ب) .

(٥) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٦) سورة البقرة، آية (١٦٥) .

على إثبات الحب ومناقبه، والتفاوت في مراتبه (١).

وقال أيضاً في موضع آخر: (وورد في التنزيل ما يدل على ثبوت المحبة من الجانبين حيث قال: ﴿تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ﴾ (٢) (٣).

٢ - وقال: (تتجلى الأمور، وتشرح الصدور، والأمة مجمعة على أن الحب لله ورسوله فرض، فكيف يفترض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تتبع الحب وثمرته؟ فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب (٤).

فهو في هذا النص يؤكد ثبوت الحب، وتقدمه على الطاعة .

٣ - وقال رحمه الله: (ثم اعلم أن المستحق للمحبة إنما هو الله وحده وإنما يحب غيره من الأنبياء والأصفياء؛ لكونهم أحياء له سبحانه، ومحبوب المحبوب محبوب (٥).

٤ - وقال أيضاً: (وأنها - أي المحبة - حقيقة في حقه ﷻ (٦).

المناقشة :-

يتبين لنا من عرض القاري السابق أن له تفسيرين في محبة العبد لربه ﷻ:

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٥٤/٢) .

(٢) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٣/٢) .

(٤) المصدر السابق (٣٥٤/٢) .

(٥) المصدر السابق (٣٦١/٢) .

(٦) المصدر السابق (٣٦١/٢) .

الأول : تأويل الحب .

الثاني : إثباته .

فأما التفسير الأول، وهو تفسير محبة العبد لربه بإرادة طاعته، والاعتناء بتحصيل مرضاته فإنه تفسير باطل؛ لأن ثمة فرقاً بين المحبة والإرادة، ولأن جميع طرق الأدلة عقلاً ونقلاً وفطرة وقياساً تدل على إثبات محبة العبد لربه حقيقة^(١)، فإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً^(٢).

فالقاري في التفسير يؤول محبة العبد لربه بتأويلات الجهمية .

وأما التفسير الثاني فهو إثبات المحبة، محبة العبد لربه على الحقيقة، ويرد على من يؤولها بالطاعة كما في كتابه "شرح عين العلم وزين الحلم" حيث يقول: (وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تتبع الحب وثمرته، فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب)^(٣).

ويقول أيضاً: (ثم اعلم أن المستحق للمحبة إنما هو الله وحده)^(٤).

فهل القاري مضطرب؟ أو أنه استقر على رأي من ذينك الرأيين؟

القاري استقر على إثبات محبة العبد لله ﷻ على الحقيقة .

ذلك لأن شرح عين العلم وزين الحلم الذي يقرر فيه إثبات محبة العبد لله ﷻ ألفه بعد التفسير، لأنه انتهى من هذا الكتاب في السنة التي توفي فيها،

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٢٠/٣) .

(٢) التحفة العراقية لابن تيمية (٤٢٥) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٥٤/٢) .

(٤) المصدر السابق (٣٦١/٢) .

هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن مسألة المحبة في آخر الكتاب وليست في أوله؛ لأنها لو كانت في أول الكتاب لكان لقائل أن يقول: لعله ابتداءً هذا الكتاب قبل تفسيره ثم توقف عن الكتابة فيه واشتغل بالتفسير، ثم بعد ذلك أكمل الكتاب. فتقريره لإثبات محبة العبد لربه قبل تفسيره، وهذا محتمل وإن كان بعيداً .

وهذا يرجح أن الرأي الذي استقر عليه القاري هو إثبات أن العباد يحبون الله محبة حقيقة كما نطقت بذلك النصوص .

وقد استدلل القاري على إثبات محبة العبد لربه بأدلة من الكتاب والسنة. وقد تقدم ذكر بعض الأدلة من القرآن الكريم، وأما من السنة فكثيرة منها :

١ - ما جاء في الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً :
« لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ... » (١).

٢ - وحديث « أحبوا الله لما يغذيكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي » (٢).

(١) سبق تخريجه (١٨٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٥/٦٢٢) رقم (٣٧٨٩). وقال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه) .

وأخرج أيضاً الحاكم في المستدرک (٣/١٥٠) وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) . وصححه الذهبي، وقال عبدالقادر الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول لابن الأثير (٩/١٥٤) : (في سنده عبدالله بن سليمان النوفلي وهو مجهول) .

ثم قال القاري بعد إيراد هذا الحديث: (فأشار إلى أن محبة الله أصالة، ومحبة ﷺ تبعية كما يقتضيه مقام الربوبية والعبودية)^(١).

وهذا الذي قرره القاري هو الذي قرره علماء أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين لربهم، ومحبة الرب لعباده المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ ﴾^(٣))^(٤).

وقال أيضاً: (والذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وأهل السنة والحديث، وجميع مشايخ الدين المتبعون، وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب بحسب ذاته محبة حقيقية)^(٥).

وقال أيضاً: (ولم يكن بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك - يعني في محبة العباد لإلههم - وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية)^(٦).

وبعد أن عرفنا رأي القاري في محبة العبد لربه، وأن الله يُحب حقيقة نورد كلام القاري في الطرق الموصلة إلى هذه المحبة تحت المسألة الثانية .

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٥٥) .

(٢) سورة البقرة، آية (١٦٥) .

(٣) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٤) التحفة العراقية (٤٠٥) .

(٥) المصدر السابق (٤٠٩) .

(٦) المصدر السابق (٤٣٠) .

المسألة الثانية : الطرق الموصلة إلى هذه المحبة .

قال القاري: (طريق تحصيل المحبة سير مسالك أهل الشريعة والطريقة والحقيقة من منازل السائرين، ومراحل الطائرين، وقد قيل: إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وفيه تنبيه نبيه على أن كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه إليه، وعن هذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١).

ثم أقرب الطرق إلى الله - تعالى - هو المحبة وهي حاصلة بمتابعة الكتاب والسنة، ومخالفة الهوى والبدعة، وتماه باجتناّب السيئات من المحرمات والمكروهات، واكتساب الطاعات من الفرائض والنوافل من السنن المؤكّدة والمستحبات^(٢).

المناقشة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أن الطرق المحصلة لمحبة العبد لربه كثيرة بعدد أنفاس الخلائق، وهي تنقسم إلى قسمين :

قسم منها هو أقرب الطرق إلى الله وهو محبة العبد لربه، وهذه تحصل بمتابعة الكتاب والسنة، ومخالفة الهوى والبدعة .

ومنها ما هو طريق أهل الحقيقة والطريقة من الصوفية، ولا مانع عند القاري من سلوك هذه الطريقة التي توصل العبد بزعمه إلى محبة الرب .

ولهذا لما نقل القاري عبارة من يقول: (إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس

(١) سورة الإسراء، آية (٤٤) .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٨/٢) .

الخلائق) استحسن هذا القول، وقال عقبه: (فيه تنبيه نبيه على أن كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه).

وخلاصة كلام القاري في هذه المسألة أجمله في أمرين :

الأمر الأول : يرى القاري أن أقرب الطرق إلى تحصيل محبة العبد لربه باتباع الكتاب والسنة .

الأمر الثاني : يرى القاري أن من سلك مسلك ما يسمى بأهل الحقيقة والطريقة في محبة العبد لربه فإن ذلك جائز ولا مانع من ذلك عنده .

وسيكون مناقشة القاري من خلال هذين الأمرين .

- **الأمر الأول :** أقرب الطرق إلى محبة العبد لربه هو اتباع الكتاب والسنة.

يرى القاري أن أقرب الطرق إلى محبة العبد لربه تحصل بمتابعة الكتاب والسنة، ومخالفة الهوى والبدعة، وتماه باجتناّب السيئات من المحرمات والمكروهات، واكتساب الطاعات من الفرائض والنوافل من السنن المؤكّدة والمستحبات^(١).

وهذا الذي ذكره القاري حق، ولكن ليس هو أقرب الطرق فقط بل إنه لا طريق للعباد لتحقيق هذه المحبة إلا باتباع الكتاب وصحيح السنة ومجانبة الهوى والبدعة. فعلامة المحبة الصادقة لله ﷻ هو اتباع ما جاء في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة .

١ - قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٧٨) :

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ^(١).

قال ابن قيم الجوزية: (وهي تسمى آية المحبة، قال أبو سليمان الداراني^(٢): لما ادعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وقال ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة، فليس محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية^(٣).

وقال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله، وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٤) (٥).

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال من

(١) سورة آل عمران، آية (٣١).

(٢) هو عبدالرحمن بن عطية، وقيل عبدالرحمن بن أحمد، أبو سليمان الداراني، الزاهد، من أهل داريا قرية من قرى دمشق، ولد في حدود الأربعين ومائة، مات سنة (٢٢٥هـ). انظر: طبقات الصوفية للسلمي (٧٥)، والجرح والتعديل (٢١٤/٥)، والسير (١٨٢/١٠-١٨٦).

(٣) مدارج السالكين (٢٢/٣).

(٤) سبق تخريجه (٢١٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٥٣٦/١).

عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه (١).

قال السفاريني تعليقاً على هذا الحديث :

(فدل هذا الحديث أنه لا طريق يوصل إلى التقرب إلى الله، وولايته، ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله ﷺ من أداء الفرائض، واجتناب المحارم والاهتمام بنوافل العبادات الموصلة لمحبة الله تعالى. فمن أحب الله سبحانه رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره) (٢).

- الأمر الثاني : رأي القاري فيمن سلك مسلك من يسمى بأهل الحقيقة والطريقة .

القاري يرى أن ثمة طرقاً يمكن للعبد أن يسلكها في طريق محبة العبد لربه، ولهذا قال في عبارة من يقول: (إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق): (فيه تنبيه نبيه على أن كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه) (٣).

وقال أيضاً في تعليقه على حديث ” من عادي لي ولياً، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع (٤/١٩٢/ رقم ٦٥٠٢) .

(٢) شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد (١٤١) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٧٨) .

عبدني يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » (١) :

(« بالنوافل » من الصلاة، والطواف، والذكر، والفكر، والثناء، والدعاء، وما استحسنته العلماء) (٢)، ويقصد بذلك علماء الصوفية الذين ابتدعوا طرقاً ما أنزل الله بها من سلطان، يزعمون أنها تقربهم إلى الله، وإن من سلكها فهو محب لله .

ولهذا قال القاري عند قول الماتن في "شرح عين العلم وزين الحلم" وهو يعدد طرق تحصيل المحبة (والخلوة: فهي تفرغ عن الشواغل، والأولى أن يكون في بيت مظلم، أو يلف رأسه ويغمض عينيه) (٣)، قال القاري: ("فهي" أي الخلوة: "تفرغ عن الشواغل" المانعة من تحصيل الفضائل ... ثم القوم مختلفون في طرق سلوكهم فمنهم من جعل مدار الخلوة على خلو القلب من غير ذكر الرب ومشاهدة الحق، ولو كان في مجمع الخلق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٤)، وهو طريق السادة النقشبندية (٥)، والقادة الشاذلية (٦)، ويقال في حقهم: إنهم غريبون قريون ...

(١) سبق تخرجه .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٨/٢) .

(٣) المصدر السابق (٣٨٢/٢) .

(٤) سورة النور، آية (٣٧) .

(٥) النقشبندية: هي طريقة من الطرق الصوفية الخرافية أسسها بهاء الدين محمد بن محمد الأويسى، وقد غلا أصحابه فيه إلى حد جعلوه إلهاً. انظر: موسوعة أهل السنة للدمشقية (١٢٦٣/٢)، والكشف عن حقيقة الصوفية (٣٦٠-٣٦١)، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (٧٥٣/٢) .

(٦) الشاذلية: طريقة صوفية خرافية قبورية أسسها أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي المغربي (ت ٦٥٦هـ). انظر: الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود عبدالرؤوف القاسم (٣٥٨-٣٥٩)، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية لشمس الأنفغانى (١٠٠٧/٢) .

ومنهم من اختار الخلوة المعتارفة^(١) بينهم قهويناً للمبتدئ، وتسهيلاً للمتتهي وكان المصنف منهم ولذا قال "والأولى أن يكون" السالك الذاكر "في بيت مظلم" ضيق ليس فيه متاع إلا ما لا بد منه "أو يلف رأسه" إذا كان في مسجد ونحوه "ويغمض عينيه" حال ذكره وفكره وإنما يختار البيت المظلم، ولف الرأس، وتغميض العين "لترك الحواس" أي لتسكن وتستقر، "والسكوت" أي: ويلزمه من غير ذكر ربه^(٢).

وهكذا يذهب القاري يشرح عبارات القوم دون نكير لهم، أو تعليق على ما قالوا، مما يدل على أنه من جملتهم فتصوفه ظاهر من عباراته، بل إن القاري ينقل عبارات أهل الوحدة والاتحاد.

قال القاري: (ثم اعلم أنه ليس في الوجود غيره سبحانه في عين أهل الشهود من ذاته وصفاته ومصنوعاته؛ ولذا ذكر عن الشيخ أبي سعيد الميهمي لما قرئ عليه قوله: ﴿تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ﴾^(٣) قال: بحق يحبهم فليس يحب إلا نفسه، على معنى أنه الكل، وأن ليس في الوجود غيره^(٤).

وقال أيضاً: (وقيل من ذاق حلاوة الوحدة استوحش من نفسه الوحدة، وكأنه يشير إلى قول من قال: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب^(٥).

فالقاري يرى أنه ليس في الوجود سوى الله - تعالى - وصفاته وأفعاله .

(١) هكذا في المطبوع، ولعل الصواب [المعارفة] .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٨٢/٢) .

(٣) سورة المائدة، آية (٥٤) .

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٧٦/٢) .

(٥) المصدر السابق (٣٦٨/٢) .

وقال أيضاً في موضع آخر عند قول الماتن في أفضل الذكر ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١) : (فالحي الأزلي الأبدي يشير إلى أن غيره لا يصلح للألوهية؛ لأنه إما لا حياة له، أو حياته حادثة. والقيوم هو الذي يقوم بذاته، ويقوم غيره بإظهار صفاته من قدرته، وإرادته، وحكمته في مصنوعاته، وفي هذا تلويح إلى بطلان ما يقوله الوجودية من المعية في المراتب الشهودية حيث قال ابن العربي^(٢) : " سبحان من أوجد الأشياء وهو عينها ". وقد وقع التناقض في عين كلامه المنافي لمرامه، فإنه سبحانه إذا أوجد الأشياء وأحدثها كيف يتصور أن يكون عينها، فما للتراب ورب الأرباب، فهو أبعد من قوله من قال بالاتحاد في مقام الإلحاد والله رؤوف بالعباد)^(٣).

فنجد القاري في هذا النص يرد على أهل الوحدة والاتحاد، بينما في النصين اللذين قبل هذا النص يوافق أهل الوحدة بل ذكر قول الميهني في قوله تعالى: ﴿تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ﴾^(٤) بحق يحبهم فليس يجب إلا نفسه دون نكير .
والذي يظهر أن القاري - رحمه الله - لا يحقق في عرضه للأقوال وليس همه إلا في شرح وتقرير ما يعرضه، وإن كان أحياناً قد يعقب لكنه هنا لم يظهر منه ما يخالف القوم .

(١) سورة آل عمران، آية (٢) .

(٢) هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، صاحب كتاب "فصوص الحكم" الذي قال عنه الذهبي: فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر. وقال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام عن ابن العربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدّم العالم، ولا يُحرّم فرجاً. انظر: السير (٢٣/٤٨-٤٩)، وميزان الاعتدال (٦٥٩/٣) .

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٨٥/٢) .

(٤) سورة المائدة، آية (٥٤) .

◀ المسألة الثالثة : رأي القاري فيمن يقول: "ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رجاء لجنتك بل حباً لك وشوقاً لرؤيتك".

قال القاري: (قال الثوري^(١) لرابعة^(٢): ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا رجاء لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، وقالت في معنى المحبة:

أحبك حين: حب الهوى	وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها، وبإنعامه عليها بالخطوطة العاجلة، وبجبه لما هو أهل له الحب لجلاله وجماله الذي انكشف لها، وهو أعلى الحين وأقواها .

وقد قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ قالت: الجار ثم الدار، فبينت أن ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة، وبذلك يشير قول آسية:

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبدالله الكوفي، الإمام الكبير، ولد سنة (٩٧هـ)، وهو ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة، قال الإمام أحمد: لم يتقدمه في قلبي أحد. وقال ابن المبارك: لا أعلم على وجه الأرض أعلم منه. توفي سنة (١٦١هـ).

انظر: غاية النهاية (٣٠٨/٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (١٩٣/١-١٩٦)، وتهذيب الكمال (١٥٤/١١-١٦٩) .

(٢) هي أم عمرو، رابعة بنت إسماعيل العدوية، مولاة آل عتيك، البصرية، لها أخبار في العبادة والنسك، توفيت سنة (١٨٠هـ).

انظر: السير (٢٤١/٨-٢٤٣)، والأعلام (١٠/٣) .

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾^(١).

هذا ومن عرف الله عرف اللذات المفرقة، والشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة، كما قال:

كانت بقلبي أهواء مفرقة
فاستجمعت مذ رأيتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم
شغلاً بذكرك يا ديني ودينائي

وقال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إثارة لذة القلب في معرفة الرب على لذة الأكل والشرب، والجماع، ونحوها، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله في مقام الإيناس^(٢).

المناقشة :-

يتبين لنا من كلام القاري السابق الذي علق فيه على قول من يقول:
"ما عبدتك خوفاً من نارك ولا رجاء لجنّتك " أنه موافق لأصحاب هذه المقولة .

(١) سورة التحريم، آية (١١) .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٣٦٦/٢) .

والغلط عند القاري ومن نقل عنهم ظنهم أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب، واللباس، والنكاح، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات؛ ولهذا نجد القاري يسوغ قول من قال تلك المقولة: "ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رجاء لجنّتك ولكن عبدتك شوقاً إلى لقائك" بقوله: (وما أرادوا بهذا إلا إثارة لذة القلب في معرفة الرب على لذة الأكل والشرب، والجماع، ونحوها، فإن الجنة تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله في مقام الإيناس)^(١).

فالقاري ظن أن الجنة لا يدخل فيها النظر إلى الله تعالى، وهذا غلط، والتحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى الله تعالى وهو من النعيم الذي يناله المؤمنون وهم في الجنة كما أخبر به النصوص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في معرض رده على قول من يقول: "ما عبدتك خوفاً من نارك، أو رجاء لجنّتك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك" : (وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما تستلزم المحبة وترجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما ييغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب .

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢/٣٦٦) .

(٢) سورة الإسراء، آية (٥٧) .

اللَّهُ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴿١﴾، ورحمته: اسم جامع لكل خير، وعذابه: اسم جامع لكل شر، ودار الرحمة الخاصة: هي الجنة، ودار العذاب الخالص: هي النار، وأما الدنيا فدار استدراج، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة، فالجنة: اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى الله ﷻ كما في صحيح مسلم عن ثابت ^(٢) عن عبدالرحمن بن أبي ليلى ^(٣) عن صهيب عن النبي ﷺ قال: ^(٤) «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» ^(٥) وهي الزيادة .

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: "ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك"، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشراب، واللباس،

(١) سورة البقرة، آية (٢١٨) .

(٢) هو أبو محمد ثابت بن أسلم البناني، مولاهم البصري، كان من أئمة العلم والعمل، صاحب أنس بن مالك ؓ أربعين سنة، وكان من أعبد أهل البصرة، مات سنة (١٢٧هـ) .

انظر: مشاهير علماء الأمصار (٨٩)، والسير (٢٢٠/٥-٢٢٥) .

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ، أبو عيسى، ويقال أبو محمد، عبدالرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، أدرك عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ . قتل سنة (٨٢هـ) .

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٠٣)، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٢٦٠/٦)، والسير (٢٦٢/٤-٢٦٧) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة بهم ﷻ

(١/١٦٣ رقم ١٨١) .

والنكاح، والسماع، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات (١).

وقال الألباني - رحمه الله تعالى - عن مقولة من يقول: "ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك": (فإنها فلسفة صوفية، اشتهرت بها رابعة العدوية، إن صح ذلك عنها، فقد ذكروا أنها كانت تقول في مناجاتها: "رب ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك"، وهذا الكلام لا يصدر إلا ممن لم يعرف الله - تبارك وتعالى - حق معرفته، ولا شعر بعظمته وجلاله، ولا بجموده وكرمه، وإلا لتعبده طمعاً فيما عنده من نعيم مقيم، ومن ذلك رؤيته - تبارك وتعالى - وخوفاً مما أعدّه للعصاة والكفار من الجحيم والعذاب الأليم، ومن ذلك حرمانهم النظر إليه كما قال: ﴿كَأَلَّا إِلَهُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ﴾ (٢)، ولذلك كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهم العارفون بالله حقاً - لا يناجونه بمثل هذه الكلمة الخيالية، بل يعبدونه طمعاً في جنته - وكيف لا؟ وفيها أعلى ما تسموا إليه النفس المؤمنة، وهو النظر إليه - سبحانه - ورهبةً من ناره، ولم لا؟ وذلك يستلزم حرمانهم من ذلك؛ ولهذا قال - تعالى - بعد أن ذكر نخبة من الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٣)، ولذلك كان نبينا محمد ﷺ أخشى الناس لله، كما ثبت في غير ما حديث صحيح عنه (٤).

* * * * *

(١) التحفة العراقية (٣٩٩-٤٠١) .

(٢) سورة المطففين، آية (١٥) .

(٣) سورة الأنبياء، آية (٩٠) .

(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٢٦-٤٢٧ / رقم ٩٩٨) .

الفصل الثالث

بعض صور الشرك ووسائله

وفي ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: التوسل .
- المبحث الثاني: التبرك .
- المبحث الثالث: شد الرحل إلى القبور والمشاهد .

* * * * *

المبحث الأول : التوسل.

وفيهِ ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول: رأي القاري في معنى الوسيلة .
- المطلب الثاني: التوسل المشروع .
- المطلب الثالث: رأي القاري في التوسل بذات النبي ﷺ .

* * * * *

المطلب الأول: رأي القاري في معنى الوسيلة .

قال القاري في تفسير قوله تعالى: ﴿يَنَاقِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١):

(﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي القربة بطاعته كذا فسرهم جميع من تكلم في التفسير من السلف، والمعنى اطلبوا ما تتوسلون به إلى ثوابه، وقرب جنابه من فعل الطاعات، وترك المعصية)^(٢).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾^(٣) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٣):

(﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي آلهة ﴿ مِّنْ دُونِهِ ﴾ من غيره كالملائكة والمسيح ونحوه، ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ لا يستطيعون، ﴿ كَشْفَ الضُّرِّ ﴾ كالمرض والقحط، والفقر، ﴿ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ لذلك منكم إلى غيركم بل كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لَأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا ﴾. ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ هؤلاء الآلهة التي يدعونهم، ويعبدونهم من كمال الغفلة هم بأنفسهم يطلبون إلى الله القربة بالطاعة والعبادة. ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ بدل من واو ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ فأني موصولة، أي: يتبغي الوسيلة من هو أقرب منهم إلى الرب، فكيف بغير الأقرب،

(١) سورة المائدة، آية (٣٥) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧٨/أ) .

(٣) سورة الإسراء، آية (٥٦-٥٧) .

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ عقوبته كآحاد الأمة وأفراد البرية، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذر كل أحد حتى الرسل والملائكة (١).

المناقشة :

يتبين لنا من كلام القاري السابق أن الوسيلة المذكورة في الآيات المراد بها: القربة إلى الله - تعالى - بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وذكر القاري أن هذا التفسير هو تفسير جميع من تكلم في معناها من السلف، وهذا الذي ذكره القاري هو الحق، وإليك البيان من كلام السلف .

أخرج الحاكم (٢) بسنده عن حذيفة رضي الله عنه (أنه سمع قارئاً يقرأ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٣) قال: القربة، ثم قال: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله وسيلة (٤).

وقال قتادة (٥) في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ : (أي: تقربوا

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٤٤٨/ب) .

(٢) هو الإمام الحافظ، الناقد العلامة، شيخ الحديثين، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد ابن حمدويه بن فضيم بن الحكم، صاحب التصانيف. ولد سنة (٣٢١هـ) بنيسابور. من تصانيفه: معرفة علوم الحديث، والمستدرك، تاريخ النيسابوريين. توفي الحاكم في صفر سنة (٤٠٥هـ).

انظر: السير (١٦٢/١٧٧)، وتذكرة الحفاظ (٣/١٠٣٩-١٠٤٧).

(٣) سورة المائدة، آية (٣٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة (٢/٣١٢) وصححه الذهبي.

(٥) هو قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، من صغار التابعين، كان إماماً عالماً ثقة

إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه (١).

وفسر الوسيلة بالقربة كذلك عطاء، ومجاهد، والحسن، وغيرهم (٢).

وقال ابن زيد (٣): ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المحبة، تحببوا إلى الله (٤).

يتبين لنا من خلال النقل عن هؤلاء الأعلام من سلف الأمة أن للسلف في معنى الوسيلة قولين (٥):

أحدهما : أنه القربة، وبهذا قال عطاء، ومجاهد، وقادة، والحسن، وغيرهم.

والثاني : المحبة، وهذا قول ابن زيد .

وهذا الخلاف في معنى الوسيلة بين السلف خلاف تنوع لا اختلاف

==

ثبتاً حافظاً، توفي سنة بضع عشر ومائة، أخرج له الجماعة .

انظر: الطبقات لابن سعد (٢٢٨/٩-٢٣٠)، والتاريخ الكبير (١٨٥/٧-١٨٧)، والجرح والتعديل للرازي (١٣٣/٧-١٣٥)، وحلية الأولياء (٣٣٣/٢)، وتهذيب الكمال (٤٩٨/٢٣-٥١٨)، والتقريب (٤٥٣) رقم (٥٥١٨) .

(١) جامع البيان للطبري (٢٢٦/٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٢٦/٤) .

(٣) هو: عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني، كان رجلاً صالحاً، لكنه ضعيف الحديث، له التفسير، والناسخ والمنسوخ، توفي سنة (١٨٢هـ) .

انظر: الطبقات لابن سعد (٥٩٢/٧)، والتاريخ الكبير (٢٨٤/٥)، والمجروحين لابن حبان (٥٧/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٠٩/٨)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٧١/١) رقم (٢٥٥)، وتهذيب الكمال (١١٤/١٧-١١٩)، والتقريب (٣٤٠)، رقم (٣٨٦٥) .

(٤) جامع البيان للطبري (٢٢٧/٤) .

(٥) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٣٤٧/٢-٣٤٨) .

تضاد؛ ولهذا قال القاري أن الوسيلة: هي القربة بفعل الطاعات، وترك المعصية بإجماع من تكلم في التفسير من السلف. فكأن القاري حينما قال ذلك لاحظ أن هذا الخلاف بين السلف في معنى الوسيلة خلاف تنوع لا اختلاف تضاد وهو كذلك^(١)؛ لأن جماع معنى الوسيلة هو التقرب إلى الله بأنواع القرب والطاعات، وأعلاها إخلاص الدين له، والتقرب إليه بمحبته ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة دينه وشرعه، ومحبة من شرع حبه ... إلخ .

وبهذا التفسير لمعنى الوسيلة الذي ذكره القاري، وعزاه إلى جميع من تكلم في معناها من السلف نعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه أنه تخبط في الجهل والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى؛ لأن اتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(٢)، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ هَتُوْا لَنَا شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ ۖ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٣).

فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريقة الموصولة إلى رضا الله، وجنته، ورحمته هي اتباع رسوله ﷺ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٨٣-٨٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٨٦).

(٢) سورة الزمر، آية (٣) .

(٣) سورة يونس، آية (١٨) .

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٢/٨٧)، وروح المعاني في تفسير

القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (٣/١٢٤-١٢٩) .

قال ابن جرير رحمه الله : (﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة: هي الفعلية من قول القائل: توسلت إلى فلان بكذا، بمعنى: تقربت إليه)^(١).

قال الشنقيطي رحمه الله :

(اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضا الله تعالى، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة)^(٢).

* * * * *

(١) جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢/٢٢٦) .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢/٨٦) . وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (٣/٢٩٤) .

المطلب الثاني : التوسل المشروع .

تطرق القاري في بعض كتبه إلى التوسل المشروع فذكر - رحمه الله -
التوسل بأسماء الله وصفاته، والتوسل بالعمل الصالح، والتوسل بدعاء الصالحين،
وهذه الأنواع الثلاثة هي أنواع التوسل المشروع التي وردت في الكتاب
وصحيح السنة.

❖ ا- التوسل بأسماء الله الحسنی وصفاته العلیا :

دليل مشروعية هذا النوع من التوسل قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾^(١).

قال القاري عند تفسيره لهذه الآية ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ : (هي
أحسن أسماء المباني لأنها دالة على معاني هي أحسن المعاني... ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾
بتلك الأسماء)^(٢).

وصفته أن يقول الداعي في دعائه: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف
عني، أو يقول: يا عليم علمني، يا رزاق ارزقني، ونحو ذلك .

فهذا هو التوسل بأسماء الله وصفاته .

وورد في السنة التوسل بأسماء الله وصفاته فمن ذلك حديث أنس بن
مالك رضي الله عنه «أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى^(١).

❖ ٢- التوسل إلى الله - تعالى - بحمل صالح قام به الداعي :

وصفته: كان يقول الداعي في دعائه: اللهم بإيماني بك، ومحبتي لرسولك اغفر لي، أو يقول: اللهم بيري بوالدي أن ترزقني ونحو ذلك .

وقد نبه القاري إلى هذا النوع عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: « بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، وإنه قد نأى بي الشجر^(٢) فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك،

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء (١٦٧/٢-١٦٨/١) رقم (١٤٩٥). والنسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٥٢/٣) رقم (١٣٠٠). والحاكم في المستدرک (٥٠٣/١-٥٠٤)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٢) أي: بعد بي طلب المرعى يوماً . مرقاة المفاتيح (٦٧١/٨) .

فافرّج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرّج عنهم» (١) الحديث.

قال القاري: (« فادعوا الله بها » أي: بتلك الأعمال الصالحة، وبجعلها شفيعاً ووسيلة إلى إجابة الدعوة) (٢).

فهؤلاء الثلاثة كما في هذا الحديث توسل كل واحد منهم بعمله الصالح، فتوسل أحدهم: ببره لوالديه، والآخر: بعفته عن الفاحشة، والثالث: بإحسانه إلى أجير كان عنده .

ومن هذا النوع أيضاً قول القاري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... ﴾ (٣):

(المعنى اطلبوا ما تتوسلون به إلى ثوابه، وقرب جنابه من فعل الطاعات، وترك المعصية) (٤).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥):

(« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » أي: اذكر حين كان يرفع أصول الأساس منه، وإسماعيل عطف عليه لأنه كان يناوله الحجارة)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترى أشياء لغيره بغير إذنه فرضي (١١٦-١١٧/٢ رقم ٢٢١٥). ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٢٠٩٩/٤-٢١٠٠).

(٢) مرقاة المفاتيح (٦٧١/٨).

(٣) سورة المائدة، آية (٣٥).

(٤) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٧٨/١).

(٥) سورة البقرة، آية (١٢٧).

﴿ رَبَّنَا ﴾ وقرئ يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ أي: تقربنا إليك بهذا البناء ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لدعواتنا وأقوالنا ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنياتنا وأحوالنا (١).

❖ ٣. التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين :

وصفته: أن يُطلب من الرجل الصالح الحي الذي تُرجى إجابة دعائه عند الله جل وعلا.

وقد أشار القاري إلى هذا النوع من التوسل فيما نقله عن النووي (٢) عند شرحه لحديث عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « إن رجلاً يأتيكم من اليمين يقال له: أويس، لا يدع باليمن غير أم له، قد كان به بياض، فدعا الله فأذهب به إلا موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم » (٣).

قال القاري: (« فمن لقيه منكم فليستغفر لكم » قال النووي: هذه منقبة ظاهرة لأويس القرني، وفيه طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح، وإن كان الطالب أفضل منهم؛ (٤) أ.هـ أقول: وفي رواية لمسلم عن عمر أنه قال لأويس القرني: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يأتي عليكم أويس بن عامر

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٣٤/أ). وانظر: (١٩٤/أ).

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي محي الدين أبو زكريا، كان إماماً بارعاً حافظاً متقناً، شديد الورع والزهد حريصاً على وقته، من مصنفاته: شرح مسلم، والمجموع شرح المذهب، وغيرهما. توفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٤٧٠-١٤٧٤)، وطبقات الشافعية للسبكي (٨/٣٦٥-٤٠٠)، وشذرات الذهب (٥/٣٥٤-٣٥٦)، والدارس في تاريخ المدارس للنعمي (١٩/١-٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس (٤/١٩٦٨/رقم ٢٥٤٢).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٦/٣٢٩).

مع أمداد من اليمن من مراد ثم من قرن، كان فيه برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة وهو لها بر، لو أقسم على الله لأبره، فلو استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لي فاستغفر له « (١) ... » (٢).

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

وقوله تعالى أيضاً حكاية عن أبناء يعقوب -عليهم السلام- لأبيهم :

﴿قَالُوا يَتَابَبَنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٤) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥).

ومن ذلك أيضاً حديث أنس رضي الله عنه في قصة ذلك الأعرابي رضي الله عنه الذي دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال: «... يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا » (٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أويس القرني (٤/١٩٦٩/ رقم ٢٥٤٢).

(٢) مرقاة المفاتيح (١٠/٦٣٣). وانظر: شرح الشفاء (١/٤٧٥).

(٣) سورة الحشر، آية (١٠).

(٤) سورة يوسف، آية (٩٧-٩٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الاستسقاء، باب انتقام الرب -جل وعز- من خلقه بالقحط إذا انتهكت محارم الله (١/٣١٩/ رقم ١٠١٣). ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢/٦١٢-٦١٤/ رقم ٨٩٧).

ومن ذلك أيضاً توسل الصحابي الجليل عكاشة بن محصن بالنبي ﷺ أن يدعو الله - جل وعلا - أن يجعله في زمرة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال النبي ﷺ: «... اللهم اجعله منهم» (١).

فالصحابه - رضوان الله عليهم - كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ في حياته، ثم بعد وفاته توسلوا بدعاء الأحياء، وعدلوا عن التوسل بدعاء النبي ﷺ لعلمهم أن ذلك لا يجوز، وأن التوسل بدعاء النبي ﷺ قد انقطع بموته، ولو كان التوسل بالرسول ﷺ جائزاً وسائغاً لما عدلوا عن النبي ﷺ إلى غيره.

فهذا عمر رضي الله عنه يتوسل بدعاء عم النبي ﷺ وهو العباس ابن عبدالمطلب رضي الله عنه كما جاء عند البخاري: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقيننا، وإننا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون» (٢).

وهذا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يتوسل بدعاء يزيد بن الأسود الجُرشي (٣)، فعن سليم بن عامر الخبائري (٤) رحمه الله، قال: «إن السماء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (١٩٩/٤ رقم ٦٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (٣١٨/١ رقم ١٠١٠).

(٣) هو يزيد بن الأسود الجُرشي، يكنى أبا الأسود. أسلم في حياة النبي ﷺ وذكر في الصحابة ولا يثبت، كان من سادة التابعين بالشام، يسكن بالغوطة بقرية زبدین.

انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤٧٦/٥)، والسير (١٣٦-١٣٧/٤).

(٤) سليم بن عامر الخبائري الحمصي أبو الكلاعي، من خيار أهل الشام، ولد في حياة النبي ﷺ وشهد فتح القادسية.

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١١٦)، والسير (١٨٥-١٨٦/٥).

قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان، وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر، قال: أين يزيد بن الأسود الجُرشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية، فصعد فقعد عند رجله، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد ابن الأسود الجُرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت ريح، فسقينا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم»^(١).

فهذه ثلاثة أنواع للتوسل المشروع، وما عداها من التوسلات التي أحدثها الخلوف لم يقم عليها دليل من الكتاب وصحيح السنة، بل قام الدليل على خلافها، وهذه الأنواع المحدثه منها ما يصل إلى حد البدعة، ومنها ما يصل إلى الشرك الأكبر المخرج من الملة^(٢)، والعياذ بالله .

* * * * *

(١) أخرجه يعقوب البسوي في المعرفة والتاريخ (٣٨٠/٢-٣٨١)، وأبو زرعة الدمشقي في تاريخه (٦٠٢/١٧٠٣)، وابن سعد في الطبقات (٤٤٤/٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١٢-١١١/٦٥) .

وصححه الحافظ ابن حجر كما في الإصابة (٣٥٨/٦)، والمحدث الألباني كما في التوسل أنواعه وأحكامه (٤٥-٤٤) .

(٢) انظر: قاعدة في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، والتوسل أنواعه وأحكامه للألباني.

المطلب الثالث : رأي القاري في التوسل بذات النبي ﷺ .

قال القاري: في معرض حديثه عن زيارة قبر النبي ﷺ (فإنه من شعائر الإسلام، بل هو من واجبات الأحكام^(١)، وقد تقدم في فضله بعض الكلام، وقد ورد عنه عليه السلام » إن الله وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته^(٢) « هذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف من فارق أهل ووطنه، وقطع

(١) زيارة قبر النبي ﷺ مشروعة لمن كان في نفس المدينة، أما إنشاء السفر لأجل الزيارة فليس مشروعاً فضلاً عن أن يكون من الواجبات .

(٢) ورد من حديث عمار بن ياسر وأبي بكر الصديق .

أما حديث عمار فلفظه: » إن الله ملكاً أعطاه أسماخ الخلائق، وهو قائم على قبري، إذا مت إلى يوم القيامة، فليس أحد من أمتي يصلي عليّ صلاة إلا سماه باسمه واسم أبيه قال: يا محمد صلّ عليك فلان بن فلان، كذا وكذا، فيصلّي الرب تعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرًا « لفظ الطبراني .

أخرجه البخاري في تاريخه الكبير (٤١٦/٦) معلقاً مختصراً، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٤٨/٣-٢٤٩)، والطبراني في معجمه الكبير (كما في جلاء الأفهام لابن القيم رقم ١١٨)، وابن أبي عاصم في الصلاة على النبي ﷺ رقم (٥١) وغيرهم من طريق نعيم بن ضمضم (وقيل جهضم) عن عمران الحميري عن عمار. قال الهيثمي في المجمع (١٦٢/١٠): (نعيم بن ضمضم ضعيف، وابن الحميري اسمه عمران قال البخاري لا يتابع على حديثه)، وقال البزار: (لا نعلمه يروى عن عمار إلا بهذا الإسناد)، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالضعف. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (٤٨٣/٢ / رقم ٢٣٦٥) .

وأما حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه فلفظه: » أكثرُوا الصلاة عليّ، فإن الله وكل بي ملكاً عند قبري، فإذا صلى عليّ رجلٌ من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد إن فلان بن فلان صلّى عليك الساعة «.

أخرجه الديلمي (٣١/١/١) كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٤/٤ / رقم ١٥٣٠) من طريق محمد بن عبد الله بن صالح المروزي ثنا بكر بن خدّاش عن فطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن أبي بكر مرفوعاً .

البوادي شوقاً إلى لقائه، واكتفى بمشاهدة مشاهدته الكريمة إذا فاتته مشاهدته طلعتة العظيمة، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ ^(١) (٢).

وقال أيضاً في شرح الشفاء بعد تضعيفه لحديث توسل آدم بالنبي ﷺ « اللهم بحق محمد اغفر لي » ^(٣) : (« وهذا » أي: قوله « اللهم بحق محمد ... » ، « عند قائله » أي: راويه وناقله تأويل قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ^(٤) أي: تلقاها من إلهامه وإعلامه، وإن كان المشهور عند الجمهور أن المراد بالكلمات هي قوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ... ﴾ ^(٥) الآية) ^(٦).

==

وفي سنده محمد بن عبدالله بن صالح المروزي قال الألباني: لم أعرفه . أهـ

والحديث حسنه الألباني. انظر: الصحيحة (٤٣/٤-٤٥).

(١) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٢) شرح عين العلم وزين الحلم (٢٠٧/١) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٢) من طريق أبي الحارث عبدالله بن مسلم القهري ثنا إسماعيل بن مسلمة أنبأ عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر رضي الله عنه قال: « قال رسول الله ﷺ لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي... » الحديث. قال الحاكم: (صحيح الإسناد ...) .

فتعقبه الذهبي بقوله: (قلت: بل موضوع، وعبدالرحمن واه، وعبدالله بن أسلم الفهرري لا أدري من ذا) .

انظر: الكلام على الحديث في كتاب التوسل للألباني رحمه الله (١٠٣-١١٥) .

(٤) سورة البقرة، آية (٣٧) .

(٥) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

(٦) شرح الشفاء (٣٧٥/١) .

وقال أيضاً في معرض شرحه لما يُروى عن الإمام مالك^(١) أن أبا جعفر^(٢) سأله أأستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال الإمام مالك: (وَلِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ﷺ إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ...﴾ (٣) الآية) (٤) :

(« بل استقبله واستشفع به » أي: اطلب شفاعته، وسل وسيلته في قضاء مراداتك وأداء حاجاتك « فيشفعك الله » بتشديد الفاء أي يقبل الله به شفاعتك لأمرك ولغيرك وفي نسخة "فيشفعه" أي: فيقبل شفاعته في حقك، ويعفو عن ذنبك بوسيلة نبيك، « قال الله تعالى » أي: مصداقاً لذلك فيما قرره مالك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالمعصية ﴿جَاءُوكَ﴾ أي: للمعذرة، والتوبة « الآية » يعني ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي بلسانهم وجناهم ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ الرَّسُولُ﴾) (٥) .

(١) هو إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، ولد سنة (٩٣هـ)، من سادات أتباع التابعين وجملة الفقهاء والصالحين، أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة وأعرض عمّن ليس بثقة في الحديث، ولم يكن يروي إلا ما صح ولا يحدث إلا عن ثقة. مات سنة (١٧٩هـ). انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٤٠)، والأنساب للسمعاني (١٢٠/١-١٢١)، والسير (٤٨/٨-١٣٥).

(٢) هو عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور، ولد في سنة (٩٥هـ) أو نحوها، وكان يلقب بأبي الدوانيق، توفي سنة (١٥٨هـ) ودفن بين الحجون وبئر ميمون.

انظر: السير (٨٣/٧-٨٩) .

(٣) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٤) الشفاء بحقوق المصطفى ﷺ (٣٣/٢) .

(٥) شرح الشفاء (٧١/٢) .

المناقشة : -

يتبين لنا من إيراد القاري لآية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ... ﴾^(١) في معرض الحديث عن زيارة قبر النبي ﷺ أنه يجوز للإنسان أن يقصد قبر النبي ﷺ ، ويسأله أن يستغفر له، وأن يتوسل به ولهذا يرى القاري صحة قياس وفاة النبي ﷺ على حال حياته .

وإليك نص عبارته في شرحه لكلام القاضي عياض - رحمه الله - كما في كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ حينما ذكر القاضي عياض أن الإمام مالك - رحمه الله - سئل عن ناس من أهل المدينة لا يقدمون من سفر، ولا يريدونه يقفون عند القبر فيسلمون، ويدعون ساعة، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو مرتين، فقال الإمام مالك رحمه الله: (لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكرهه إلا لمن جاء من سفر أو أراد)^(٢).

قال القاري: (" وتركه واسع " أي: جائز يعني ولو فعله فسائغ لأنه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: " ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسناً ")^(٣).

(١) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٢) الشفاء بحقوق المصطفى ﷺ (٧٢/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٤/٦ / رقم ٣٦٠٠)، والطبراني في الكبير (١١٨/٩ / رقم ٨٥٨٢)، والبخاري (٥١٢/٥ - ٥١٣ / رقم ١٨١٦)، والحاكم في المستدرک (٧٨/٣) وقال: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي .

وحسن إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٧/٢ / رقم ٥٣٣)، والأرنؤوط ورفقاؤه كما في المسند .

والقياس بوقت الوفاة على حال الحياة صحيح، ولا شك أن الصحابة كانوا يكثرون السلام عليه في حال حياته، ويتشرفون بتكرار ملاقاته، ويتبركون بأخذ الفيض من أنوار بركاته، فأبي مانع من التردد على بابهِ، والتوسل إلى جنبهِ ... فلا سبيل إلى المنع من تلك الحضرة ولو على سبيل المداومة^(١).

فمن خلال هذه النصوص التي نقلتها من كلام القاري يتبين لنا أنه يرى جواز التوسل بذات النبي ﷺ، بل وجواز الإتيان إلى القبر وطلب الاستغفار والتوبة من الرسول ﷺ، واستدل القاري على جواز ذلك بعدة أدلة.

الأول: آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٢).

الثاني: تأويل من قال من أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٣) أن الكلمات هي توسل آدم بالنبي ﷺ.

الثالث: قصة الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور.

الرابع: قياس الوفاة على حال الحياة.

فهذه هي إجمالاً للأدلة التي أوردها القاري ليبين بها جواز التوسل بذات النبي ﷺ، وهذا من القاري خلاف لما عليه أئمة أهل السنة، فأهل السنة والجماعة -اتباع السلف الصالح- يرون أن التوسل بذات النبي ﷺ من البدع التي أحدثها الخلف.

(١) شرح الشفاء (١٥٦/٢).

(٢) سورة النساء، آية (٦٤).

(٣) سورة البقرة، آية (٣٧).

الرد على أدلة القاري :

استدل القاري على جواز ما ذهب إليه بآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾^(١)، والجواب عن استدلاله بهذه الآية من وجوه :

الوجه الأول : يقال للقاري -ومن استدل بهذه الآية- إن هذه الآية ليس فيها دلالة على ما زعمتم، فهي لا تدل على المجيء إلى قبر النبي ﷺ وطلب الاستغفار والتوسل منه في مغفرة الذنوب بعد موته؛ لأن "إذ" ظرف لما مضى وليست ظرفاً للمستقبل، فلم يقل الله -جل وعلا- (ولو أنهم إذا ظلموا) بل قال (إذ ظلموا) فالآية تتحدث عن أمر وقع في حياة الرسول ﷺ .

واستغفار الرسول ﷺ بعد مماته أمر متعذر؛ لأنه إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، كما قال الرسول ﷺ : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"^(٢)، فلا يمكن لإنسان بعد موته أن يستغفر لأحد، بل ولا يستغفر لنفسه أيضاً لأن العمل انقطع^(٣).

الوجه الثاني : أن التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه أو منزلته، أو طلب الاستغفار منه من المحدثات التي أحدثها الخلف .

فإن الله -جل وعلا- لم يرشد العباد إلى هذا التوسل، ولا بلغه رسوله ﷺ أمته، ولو كان هذا الفعل مشروعاً لأرشد النبي ﷺ أمته إليه لأنه جاء في

(١) سورة النساء، آية (٦٤) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/١٢٥٥/ رقم ١٦٣١) .

(٣) انظر: مجموع فتاوى ورسائل شيخنا ابن عثيمين (٢/٣٤٥) .

الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم»^(١)، فلما لم يدهم على هذا الفعل وهو الإتيان إلى القبر وطلب الاستغفار منه علمنا أنه من المحدثات التي حذر منها النبي ﷺ بل هو من الشرك ووسائله، ولهذا نهى النبي ﷺ أمته عن أن يجعلوا قبره عيداً، فقال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»^(٢).

الوجه الثالث : أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يبتلون بأنواع البلاء بعد موته، فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ، فيقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم، أو ينصرهم، أو يغفر لهم، فدل ذلك على أن الذهاب إلى قبر النبي ﷺ والتوسل به، وطلب الشفاعة منه من البدع المحدثه، بل من الشرك والعياذ بالله^(٣).

الوجه الرابع : أن التوسل بذات النبي ﷺ أو طلب الاستغفار منه بعد موته يخالف ما عليه إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر المسلمين، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له، ولا سألته شيئاً،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٤٧٣/٣ / رقم ١٨٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٥٣٤/٢ / رقم ٢٠٤١). وأحمد في المسند (٣٦٧/٢)، وحسن إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٧٠/٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٢٢٦).

(٣) انظر: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، لابن تيمية (٢٧-٢٨).

ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء^(١)، وحكوا حكاية مكذوبة عن مالك رحمه الله كما يأتي الكلام عليها قريباً بمشيئة الله تعالى .

وأما استدلال القاري بتأويل قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾^(٢) بأن الكلمات هي توسل آدم وبهذا قال بعض أهل العلم.

القاري عندما أورد حديث توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وحكم عليه بالضعف قال بعد ذلك: (وهذا - أي الحديث - تأويل قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ أي: تلقاها من إلهامه وإعلامه، وإن كان المشهور عند الجمهور أن المراد بالكلمات هي قوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾^(٣) الآية) .

فقول القاري وإن كان المشهور عند الجمهور أن المراد بالكلمات ... هذا الكلام منه يوهم أن ثمة خلافاً في تأويل هذه الآية بين السلف وأن من تلك الأقوال قول من قال: الكلمات هي: توسل آدم عليه السلام بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس الأمر كذلك بل إنه لم يثبت عن السلف بإسناد صحيح أن هذه الآية تأويلها حديث توسل آدم عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وسلم.

فهذا إمام المفسرين ابن جرير - رحمه الله تعالى - لما ذكر اختلاف أهل التأويل في أعيان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه لم يذكر من تلك الأقوال أن ثمة قولاً لأهل العلم أن الكلمات هي: توسل آدم عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وسلم، فدل

(١) انظر: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، لابن تيمية (٢٧) .

(٢) سورة البقرة، آية (٣٧) .

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣) .

ذلك على أن هذا التفسير - وهو تأويل الكلمات بحديث توسل آدم ﷺ - لم يكن معروفاً عند السلف، لا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم بإحسان أنهم فسروا هذه الكلمات بتوسل آدم ^(١).

وكذلك الماوردي ^(٢) لما ذكر اختلاف أهل العلم في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه لم يذكر من تلك الأقوال قول من يقول بأن الكلمات هي توسل آدم ﷺ بالنبي ﷺ.

قال الماوردي : (واختلَفَ في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٣) وهذا قول الحسن وقتادة وابن زيد .

والثاني : قول آدم: « اللهم لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، رب إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك خير الغافرين » وهذا قول مجاهد .

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٤٢/١-٢٤٥)، وتفسير أبو المظفر السمعاني (١/)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١٩٠/١-١٩٢)، وتفسير البغوي (٦٥/١)، وابن كثير (١٢٣/١-١٢٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيء الكلبي (٤٥/١)، وأضواء البيان للشنقيطي (٦٣/١).

(٢) هو علي بن محمد حبيب الماوردي البصري الشافعي أبو الحسن، ولد سنة (٣٦٤هـ)، تفقه على الصميري وأبي حامد الإسفرائيني، ثم تصدر للتدريس بالبصرة وبغداد. وله مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وغيرها. توفي سنة (٤٥٠هـ).

انظر: معجم الأدباء (٥٢/١٥-٥٥)، وطبقات المفسرين للداوودي (٤٢٧/١-٤٢٩)، والسير (٦٤/١٨-٦٧).

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣).

والثالث : أن آدم قال لربه إذ عصاه: رب أرأيت إن تبت وأصلحت؟ فقال ربه: إني راجعك إلى الجنة، وكانت هي الكلمات التي تلقاها من ربه وهذا قول ابن عباس (١).

فتأويل آية ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ بالحديث المنكر الذي فيه توسل آدم ﷺ بالنبي محمد ﷺ لم يكن معروفاً عند السلف، وإنما أحدثه الخلف، فدل ذلك على أن قول القاري: (وإن كان المشهور عند الجمهور...) ليس بسديد، بل إن القرون المفضلة لم تكن تعرف هذا القول الشاذ إلا في هذه الرواية الضعيفة المنكرة.

فالثابت أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي ما قاله الله في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)، فهذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، لا كما يقوله أهل البدع أن الكلمات هي توسل آدم ﷺ بالنبي ﷺ.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : (والذي يدل عليه كتاب الله أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هن الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقليلها إلى ربه، معترفاً بذنبه وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣) (٤).

(١) النكت والعيون تفسير الماوردي (١/١٠٩). وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (١/٦٩-٧٠).

(٢) سورة الأعراف، آية (٢٣).

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣).

(٤) تفسير ابن جرير (١/٢٤٥).

وأما حكاية المنصور مع الإمام مالك - رحمه الله - وقول الإمام مالك له: (لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك) هذه الحكاية لا تثبت عن إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله تعالى، وقد أجاب عنها المحققين من أئمة أهل السنة بأجوبة^(١) أجملها فيما يلي : -

١ (هذه الحكاية منقطعة؛ ذلك لأن محمد بن حميد الرازي^(٢) راوي هذه القصة لم يدرك مالكا، لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة (١٥٨هـ) ثمان وخمسين ومائة، وتوفي الإمام مالك سنة (١٧٩هـ) تسع وسبعين ومائة، وتوفي محمد بن حميد الرازي راوي الحكاية سنة (٢٤٨هـ) ثمان وأربعين ومائتين، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه .

٢ (أن راوي هذه القصة وهو ابن حميد لم يذكره أحد في تلاميذ الإمام مالك. فهذا القاضي عياض - وهو راوي القصة بسنده - عندما قسم الرواة عن مالك إلى طبقتين كبرى وصغرى، وعلى حسب البلدان، لم يذكر ابن حميد فيهم فدل ذلك على أن ابن حميد لم يأخذ عن الإمام مالك أصلاً.

٣ (محمد بن حميد الرازي راوي هذه الحكاية عن الإمام مالك رحمه الله ضعيف عند أكثر أهل الحديث^(٣) .

(١) انظر: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية مع الحاشية النفيسة للمحقق (١٢١-١٢٧)، والصارم المنكي لابن عبد الهادي (٢٥٩-٢٦٤) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن حميد بن حيان، ولد في حدود (١٦٠هـ)، منكر الحديث صاحب عجائب. انظر: السير (١١/٥٠٣-٥٠٦) .

(٣) فهذا أبو زرعة وابن واره: يقولان للإمام أحمد: صح عندنا أنه يكذب .

(٤) محمد بن حميد ضعيف عند أئمة الجرح إذا أسند - كما بينته في الحاشية - فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟ فهذه الحكاية التي ذكرها ابن حميد لم ينقلها أحد من أصحاب الإمام مالك مع كثرتهم، وكثرة الأئمة الحفاظ فيهم، فلمّا لم ينقلها أحد منهم دل ذلك على أنها لا تثبت عن الإمام مالك.

(٥) اتفق أصحاب الإمام مالك على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن الإمام مالك قول في مسألة في الفقه، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه؟ ومع ذلك هو ضعيف في الحديث .

وبعد هذا البيان في حال محمد بن حميد الرازي يتبين لنا أن هذه القصة لا تثبت عن الإمام مالك رحمه الله تعالى .

وأما استدلال القاري بقياس الوفاة على حال الحياة فالجواب عنه من وجوه^(١) :

بحر

قال صالح بن الإمام أحمد : فرأيت أبي بعد ذلك إذا ذكر ابن حميد نفخ يده.

وقال صالح بن محمد الأسدي : ما رأيت أحداً أجرى على الله منه .

وقال النسائي : ليس بثقة .

وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات بالأشياء المقلوبات .

وقال يعقوب بن شيبه : كثير المناكير .

انظر: كلام هؤلاء الأئمة في كل من: تاريخ بغداد (٢/٢٦٠)، والمجروحين لابن حبان

(٣٠٣-٣٠٤)، والكاشف للذهبي (٣/٣٢) .

(١) انظر: اللعة في الأجوبة السبعة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢-٤٧)، والصارم المنكي في

الرد على السبكي (٧٦-٨٤) .

الوجه الأول: يقال للقاري إن هذا القياس من أفسد الأقيسة، لأنه من المعلوم أن من زار الحي حصل له بمشاهدته وسماع كلامه ومخاطبته وسؤاله وجوابه وغير ذلك ما لا يحصل لمن لم يشاهده ولم يسمع كلامه. وليس رؤية قبره أو رؤية ظاهر الجدار الذي بنى على بيته بمنزلة رؤيته ومشاهدته ومجالسته وسماع كلامه، ولو كان هذا مثل هذا لكان كل من زار قبره مثل واحد من أصحابه ومعلوم أن هذا من أبطل الباطل .

الوجه الثاني: زيارته في حياته مصلحة راجحة لا مفسدة فيها، والسفر إلى القبر بمجرد العكس مفسدة راجحة لا مصلحة فيها، بخلاف السفر إلى مسجده فإنه مصلحة راجحة. وهذا ما يتبين بالوجه الثالث .

الوجه الثالث: أن ثمة فرقاً بين إتيان النبي ﷺ في حياته، وبين إتيانه بعد موته، وذلك أنه في حياته لا يعبد أحد بحضوره، بل ينهى عن ذلك أشد النهي. ولذلك لما قال له ذلك الصحابي "ما شاء الله وشئت" قال: "أجعلني لله عدلاً، بل ما شاء الله وحده" ^(١). ولما قالت الجارية عنده: "وفينا نبي يعلم ما في غد" فقال: "دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين" ^(٢).

ومثل هذا كثير من نهي عن المنكر بحضرته، فكل من رآه في حياته لم يتمكن أن يفعل بحضرته منكراً يقر عليه، بخلاف إتيانه بعد موته، ولذا نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، فقال: "... ألا وإن من كان قبلكم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/١، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧). وصححه أحمد شاكر كما في تحقيقه للمسند (١٩٣/٤ رقم ٢٥٦١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ضرب السد في النكاح والوليمة (٣٧٤/ رقم ٥١٤٧) .

كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحينهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد،
فإني أنهاكم عن ذلك» ^(١)، بل إنه ﷺ لعن أهل الكتاب على فعلهم، فقال:
«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ^(٢).

الوجه الرابع: السفر إلى النبي ﷺ في حال حياته، إما أن يكون لما كانت
الهجرة إليه واجبة، كالسفر قبل الفتح، فيكون المسافر إليه مسافراً للمقام عنده
بالمدينة مهاجراً من المهاجرين إليه، وهذا السفر انقطع بفتح مكة، كما قال ﷺ:
«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» ^(٣). وإما أن يكون المسافر إليه وافداً
إليه ليسلم ويتعلم منه ما يبلغه قومه، كالوفود الذين كانوا يفدون عليه لا سيما
سنة تسع وعشر سنة الوفود، فهؤلاء وفدوا إلى النبي ﷺ لتعلم الإسلام والدين
ولمشاهدته، وسماع كلامه ثم تبليغه قومهم وهذا خير محض. وأما بعد موته
فليس الأمر كذلك، بل إن قصد القبر مما نهى عنه كما مر معنا.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد
على القبور (١/٣٧٧-٣٧٨/ رقم ٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي
الله عنهما (١/٤٢٧/ رقم ١٣٩٠). ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة،
باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٧/ رقم ٥٣١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد والسير (٢/٣٠٢/
رقم ٢٧٨٣). ومسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام
والجهاد والخير (٣/١٤٨٧/ رقم ١٣٥٣).

المبحث الثاني : التبرك .

وفيهِ مطلبان :

- المطلب الأول: رأي القاري في التبرك .
- المطلب الثاني: مناقشة القاري فيما ذهب إليه .

* * * * *

المطلب الأول: رأي القاري في التبرك^(١).

قال القاري عند شرحه لحديث أم قيس بنت محصن رضي الله عنها: «أهـا أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله»^(٢):

(وفي الحديث دليل على استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل والكمال للتبرك سواء كانوا في حال الولادة أو غيره)^(٣).

وقال أيضاً عند شرحه لحديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة يوم الحديبية - والحديبية بئر - فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ النبي ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا ثم صبَّه فيها، ثم قال: دعوها ساعة، فأرووا أنفسهم، وركابهم حتى ارتحلوا »^(٤):

(والعجب من الناس عموماً وخصوصاً أنهم ما ضبطوا هذه البئر^(٥) ولا

(١) التبرك: طلب البركة، والبركة - محركة - النماء والزيادة والسعادة. والتبرك بالشئ: طلب البركة بواسطته، يقال: تبركت به أي: تيمنت به، واليمن البركة.

انظر: القاموس المحيط (١٢٠٤)، ولسان العرب (٣٩٥-٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الوضوء، باب بول الصبيان (١/٩٢/ رقم ٢٢٣). ومسلم في صحيحه في كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله (١/٢٣٨/ رقم ٢٨٧).

(٣) مرقاة المفاتيح (٢/٢٠١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٢/٥٢٠/ رقم ٣٥٧١).

(٥) وهذا من رحمة الله - تعالى - بهذه الأمة لأنه لو فعل ذلك لكان ذلك وسيلة من وسائل

جعلوا عليه من البناء الكبير رجاء للخير الكثير، مع أنها قريبة من مكة على طريق حدة في طريق جدة (١).

وقال أيضاً في جمع الوسائل في شرح الشمائل عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: « اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ورق، فكان في يده ثم كان في يد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم كان في يد عثمان رضي الله عنه حتى وقع في بئر أريس (٢) نقشه محمد رسول الله » (٣) :

(والأظهر أنهم لبسوه أحياناً لأجل التبرك به) (٤).

ثم نقل عن النووي قوله: (في الحديث التبرك بآثار الصالحين ولبس ملابسهم والتمن بها) (٥).

وقال أيضاً في شرح عين العلم وزين الحلم: (ويتبرك بزيارة الأحياء من العلماء، والأولياء، والأموات من الأنبياء والأصفياء) (٦).

﴿=﴾

الشرك التي حذر منها النبي ﷺ ، وحذر منها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما يأتي بيانه - بمشيئة الله - في المسألة الثانية من مسائل التبرك .

- (١) مرقاة المفاتيح (٢٠٤/١٠) .
- (٢) بفتح الهمزة وتخفيف الراء بئر معروفة قريباً من مسجد قباء عند المدينة. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٣٩/١) .
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب نقش الخاتم (٤/٦٩/ رقم ٥٨٧٣)، ومسلم في صحيحه في كتاب اللباس والزينة، باب لبس النبي ﷺ خاتماً من ورق (٣/١٦٥٦/ رقم ٢٠٩١).
- (٤) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١٧٩/١) .
- (٥) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١٨٠/١)، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٣١٢/١٤).
- (٦) شرح عين العلم وزين الحلم (٢٠٠/١) .

نستخلص من كلام القاري السابق أنه تطرق إلى ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : التبرك بالنبي ﷺ ، وآثاره المنفصلة عنه كشعره، وعرقه ونحو ذلك.

المسألة الثانية : التبرك بآثار النبي ﷺ المكانية كمكان سار فيه، أو جلس حوله ونحو ذلك .

المسألة الثالثة : التبرك بالأولياء والصالحين .

وسيكون -بمشيئة الله تعالى- مناقشة القاري من خلال هذه المسائل وذلك في المطلب الثاني .

* * * * *

المطلب الثاني : مناقشة القاري فيما ذكره من المسائل

◀ المسألة الأولى :

التبرك بالنبي ﷺ وآثاره المنفصلة عنه كشعره، وعرقه ونحو ذلك .

القاري يرى جواز التبرك بالنبي ﷺ وآثاره المنفصلة عنه، وهذا حق قد دلت عليه النصوص الكثيرة، فالنبي ﷺ مبارك الذات، مبارك الصفات، مبارك الأفعال^(١).

وهذه البركة مما أكرمه الله ﷻ بها، وإليك بعض هذه الأدلة على جواز التبرك بالنبي ﷺ وآثاره المنفصلة عنه .

(١) جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها: « أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده رجاء بركتها »^(٢).

فهذا الحديث فيه دلالة على بركة أعضاء جسده ﷺ .

(٢) وجاء في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: « أن رسول الله ﷺ أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمئى ونحر، ثم قال للحلاق:

(١) انظر: هذه مفاهيمنا، للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ (٢٠٦) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات (٤/٤٢-٤٣/رقم ٥٧٣٥). ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٤/١٧٢٣/رقم ٢١٩٢).

خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس» (١).

قال النووي رحمه الله : (من فوائد الحديث التبرك بشعره ﷺ، وجواز اقتنائه للتبرك) (٢).

٣ (وجاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأتيت فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق، واستنقع (٣) عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدها (٤)، فجعلت تنشف ذلك العرق فتحصره في قواريرها، ففزع النبي ﷺ فقال: وما تضعين يا أم سليم؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: أصبت» (٥).

٤ (وجاء أيضاً في صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يخلق (١٣٠٥/٩٤٧/٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٥٤/٩).

(٣) أي: اجتمع عرقه ﷺ، قال ابن الأثير : (النقع: الماء الناقع وهو المجتمع). النهاية في غريب الحديث (١٠٨/٥).

وقال الجوهري في الصحاح (١٢٩٢/٣-١٢٩٤) : (النقع: محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه واستنقع الماء في الغدير: أي اجتمع وثبت).

(٤) هي الصندوق الصغير الذي تترك فيه المرأة ما يعز عليها من متاعها. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١٧٧/٣).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي ﷺ، والتبرك به (١٨١٥-١٨١٦/ رقم ٢٣٣١).

« جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة^(١)، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة، فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه! فأكسنيها، فقال: نعم. فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها، ثم سألتها إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلِّي أكفن فيها^(٢) .

فهذه الأحاديث التي سقتها فيها دلالة على جواز التبرك بالنبي ﷺ، وبآثاره المنفصلة عنه كشعره وعرقه ونحو ذلك .

فما ذهب إليه القاري من جواز التبرك بالنبي ﷺ، وبآثاره المنفصلة عنه حق قد دلت عليه النصوص الكثيرة .

◀ المسألة الثانية :

التبرك بآثار النبي ﷺ المكانية، كمكان سار فيه، أو جلس حوله، أو مكان نزل فيه ونحو ذلك .

سبق في المسألة الأولى أنه يجوز التبرك بآثار النبي ﷺ المنفصلة منه كشعره أو عرقه، أو ثيابه ونحو ذلك. ولكن هل هذه البركة التي أُعطيها النبي ﷺ

(١) البردة: الشملة المخططة، وقيل كساء أسود مُربَّع فيه صور تلبسه الأعراب، وجمعها بُردٌ. النهاية في غريب الحديث (١١٦/١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٩٧/٤ - ٩٨ / رقم ٦٠٤٦) .

تتعدى إلى آثاره المكانية كمكان سار فيه، أو بئر وقف عليه وشرب منه، أو بقعة صلى فيها ؟ .

فالقاري يرى جواز ذلك، ولهذا قال في شرح العلم وزين الحلم :
(ويتبرك بآبارها - أي المدينة - التي كان ﷺ يتوضأ ويغتسل ويشرب منها)^(١).

وقال أيضاً في تلك البئر التي جلس النبي ﷺ على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا : (والعجب من الناس عموماً وخصوصاً أنهم ما ضبطوا هذه البئر، ولا جعلوا عليه من البناء الكبير رجاء للخير الكثير)^(٢).

هذا الذي ذهب إليه القاري بجانب للصواب، وذلك من وجوه^(٣):

الوجه الأول : أنه لم يعرف دليل شرعي يوجب أو يشير إلى أن بركة بدن الرسول ﷺ قد تعدت إلى هذا المكان، فيكون مباركاً يشرع التبرك به .

الوجه الثاني : أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم ينقل عن أحد منهم أنه تبرك بشيء من المواضع التي جلس فيها رسول الله ﷺ، وتمسح بتلك الأماكن، لا في حياته ولا بعد مماته .

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (٢٠٨/١) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٢٠٤/١٠) .

(٣) انظر: هذه مفاهيمنا، للشيخ صالح آل الشيخ (٢٠٦-٢٠٨). والتبرك وأنواعه، للدكتور ناصر بن عبدالرحمن الجديع (٣٤١-٣٥٨). والتبرك المشروع والتبرك الممنوع، للدكتور علي بن نفيع العلياني (٦١) وما بعدها .

الوجه الثالث : أن سلف هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم من أئمة الهدى أنكروا هذا النوع من التبرك قولاً وفعلاً .

فعن المعرور بن سويد^(١) - رحمه الله - قال : (خرجنا مع عمر - ابن الخطاب - في حجة حجها فقرأ بنا في الفجر ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾^(٢) و ﴿ لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ﴾^(٣) ، فلما قضى حجه ورجع والناس يتدرون ، فقال : ما هذا؟ فقالوا : مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فقال : هكذا هلك أهل الكتاب اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً ، من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ، ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل)^(٤) .

وورد أيضاً « أن عمر بن الخطاب بلغه أن أناساً يأتون الشجرة التي ببيع تحتها النبي ﷺ فأمر بها فقطعت »^(٥) .

فهذا قول الخليفة الراشد الذي أمرنا النبي ﷺ بالاعتداء به ، قال رسول الله ﷺ : « إني لا أدري ما بقائي فيكم ، فافتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر

(١) هو الإمام المعمر أبو أمية الأسدي الكوفي المعرور بن سويد من أصحاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مات وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة ، وهو أسود الرأس واللحية .

انظر : مشاهير علماء الأمصار (١٠٩) ، والسير (١٧٤/٤) .

(٢) سورة الفيل ، آية (١) .

(٣) سورة قريش ، آية (١) .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥١/٢) رقم (٧٥٥٠) ، وابن وضاح القرطبي في كتابه البدع والنهي عنها (٤٢) ، وصححه ابن تيمية انظر : مجموع الفتاوى (٢٨١/١) .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥٠/٢) رقم (٧٥٤٥) ، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٤٢) .

وعمر»^(١). والذي قال عنه النبي ﷺ: «إن الله ﷻ جعل الحق على قلب
عمر ولسانه»^(٢).

وهذا الذي حذر منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من الحق الذي
جعله الله على لسانه .

قال ابن وضاح^(٣) رحمه الله :

(كان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك
المساجد، وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباءً وأحدًا .

قال ابن وضاح : وسمعتهم يذكرون أن سفيان الثوري دخل مسجد بيت
المقدس فصلى فيه، ولم يتبع تلك الآثار، ولا الصلاة فيها، وكذلك فعل غيره

(١) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما
كليهما (٥٦٩/٥ رقم ٣٦٦٢). وابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله
ﷺ (٣٧/١ رقم ٩٧). وأحمد في مسنده (٣٨٢/٥) .

والحديث حسنه الترمذي كما في جامعه، وصححه الحاكم كما في المستدرک (٧٥/٣)،
وجود إسناده العقيلي كما في الضعفاء (٩٥/٤)، وحسن إسناده الألباني كما في الصحيحة
(٢٣٥/٣ رقم ١٢٣٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٥٧٦/٥ -
٥٧٧/٥ رقم ٣٦٨٢)، وأحمد في مسنده (٥٣/٢، ٩٥) .

والحديث صححه ابن حبان كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣٠٨/١٥)
رقم ٦٨٩٥)، وحسنه الألباني كما في المشكاة (١٧٠٤/٣ رقم ٦٠٤٢) .

(٣) هو محمد بن وضاح بن بزيغ المرؤاني، مولى عبدالرحمن بن معاوية الداخل أبو عبدالله، الإمام
الحافظ محدث الأندلس، ولد سنة (١٩٩هـ)، توفي ابن وضاح في المحرم سنة (٢٨٧هـ).

انظر: السير (٤٤٥-٤٤٦) .

أيضاً ممن يقتدى به، وقدم وكيع^(١) أيضاً مسجد بيت المقدس فلم يعد فعل سفيان، -ثم قال ابن وضاح- فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين فقد قال بعض من مضى كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند من مضى ومتعجب إليه بما يبغضه عليه ومتقرب إليه بما يبعده منه، وكل بدعة عليها زينه وبهجه^(٢).

الوجه الرابع: أن هذا التبرك وسيلة إلى تعظيم البقاع التي لم يشرع لنا تعظيمها، وهي وسيلة من وسائل الشرك.

وبهذه الأوجه وغيرها مما لم أذكرها يتبين لنا أن التبرك بآثار الأنبياء -عليهم السلام- المكانية مما كان ينكره سلف الأمة، ولم يخالف في ذلك إلا ابن عمر رضي الله عنهما، فقد كان يتتبع الأماكن التي صلى فيها رسول الله ﷺ فيصلي حيث صلى ونحو ذلك، وابن عمر رضي الله عنهما ما كان يطلب بركة المكان، كما يظنه بعض المتأخرين، بل كان يطلب تمام الاقتداء بكل ما فعله رسول الله ﷺ في جميع أحواله، ومع ذلك فهذا الذي كان يفعله ابن عمر رضي الله عنهما لم يوافق الصحابة عليه، بل إن أباه -وهو الذي له سنة متبعة- نهى الناس عن تتبع الآثار المكانية، وقوله مقدم على رأي ابنه عند الخلاف باتفاق، فكيف وابن عمر رضي الله عنهما لم يوافق أحد من الصحابة ﷺ، فالحق

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، الكوفي، أحد الأعلام الحفاظ المتقنين، ممن رحل وكتب وجمع وصنف وحفظ وحديث وذاكر وبث. ولد سنة (١٢٩هـ). ومات بغيد في طريق مكة سنة (١٩٦هـ).

انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٧٣)، والعبير (٣٢٤/١).

(٢) البدع والنهي عنها لابن وضاح (٤٢-٤٣).

والصواب مع عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة رضي الله عنهم ^(١).

المسألة الثالثة :

رأي القاري في التبرك بالأولياء والصالحين، وآثارهم .

القاري يرى جواز التبرك بالأولياء والصالحين، وآثارهم؛ ولهذا نقل عن النووي: جواز التبرك بآثار الصالحين، ولبس ملابسهم، والتمن بها ^(٢).

وقال أيضاً في "جمع الوسائل في شرح الشمائل" عند شرحه لحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "دخلت مع رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد على ميمونة، فجاءتنا بإناء من لبن، فشرب رسول الله ﷺ وأنا على يمينه وخالد على شماله، فقال لي: الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالداً، فقلت: ما كنت لأؤثر على سؤرك أحداً ... " ^(٣) :

(من المعلوم أن خالداً ما كان يشرب سؤره كله مع إفادة أنه لو فرض فراغ اللبن بشرب خالد لكان الامتناع من الإيثار أولى للحرمان الكلي، لكن غفل ابن عباس عن أن سؤره ﷺ مع بقاء سور خالد أفضل فكان الإيثار

(١) انظر: هذه مفاهيمنا للشيخ صالح آل الشيخ (٢٠٧-٢٠٨) .

(٢) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/١٨٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية (١٧٠-١٧١/ رقم ٢٠٦). وفي جامعه في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أكل طعاماً (٥/٤٧٢-٤٧٣/ رقم ٣٤٥٥)، وقال: هذا حديث حسن. وأخرجه أحمد في المسند (١/٢٢٠، ٢٢٥، ٢٨٤) .

والحديث فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وعمر بن أبي حرملة مجهول لا يعرف. وحسن الحديث الأرناؤوط ورفقاؤه. انظر: تحقيق المسند (٣/٣٨٨/ رقم ١٩٠٤)، ورقم (١٩٧٨)، و(١٩٧٩) و(٢٥٦٩).

موجباً للأكمل فإن سؤر المؤمن شفاء) ^(١).

وقال أيضاً بعد ذكره لحديث: "سؤر المؤمن شفاء":

(فصحيح من جهة المعنى لرواية الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً "من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه" ^(٢) أي المؤمن) ^(٣).

وقال أيضاً في شرح عين العلم وزين الحلم (ويصافحهم - أي: الحجيج - متبركاً بأكفهم التي أصابت المنازل الشريفة والمحافل المنيفة) ^(٤).

فالقاري في هذا النص الذي بين أيدينا يعلل سبب التبرك بأيدي أولئك الحجيج هو أن أكفهم أصابت تلك الأماكن الشريفة، والمحافل المنيفة، فالتبرك بتلك الأماكن المشرفة من باب أولى عند القاري! وهذا أمر عجيب من القاري، بل والأعجب من ذلك أن القاري يرى جواز التبرك بالأموات؛ ولهذا قال في شرح عين العلم وزين الحلم:

(ويتبرك بزيارة الأحياء من العلماء والأولياء والأموات من الأنبياء والأصفياء) ^(٥).

وهذه دعوة إلى تعظيم القبور التي حذر الشارع من تعظيمها خوفاً

(١) جمع الوسائل في شرح الشمائل (٣٠٤/١ - ٣٠٥).

(٢) أطراف الغرائب والأفراد (٢٨٠/٣ - ٢٨١/٢) رقم (٢٦٥٩).

(٣) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١٢٩).

(٤) شرح عين العلم وزين الحلم (٢٠٧/١).

(٥) المصدر السابق (٢٠٠/١).

على هذه الأمة من الشرك، فقد جاء في الصحيحين من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله »^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع هي أوقعت كثيراً من الأمم، إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتمثيل القوم الصالحين، وبتماثيل يزعمون أنها طلاس للكواكب ونحو ذلك، فإن يشرك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته، أو صلاحه، أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله؛ ولهذا نجد أقواماً كثيرين يتضرعون عندها، ويخشون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تُشد إليها الرحال .

فهذه المفسدة -التي هي مفسدة الشرك، كبيرة وصغيرة- هي التي حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة، ونحو ذلك.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها؛ لأنها الأوقات التي يقصد المشركون بركة الصلاة للشمس فيها، فينهى المسلم عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (١/١٥٥/رقم ٤٢٧).

ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٥-٣٧٦/رقم ٥٢٨).

الصلاة حينئذٍ - وإن لم يقصد ذلك - سداً للذريعة .

فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء والصالحين متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداء دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ من الصلاة عند القبر - أي قبر كان - لا فضل فيها لذلك، ولا للصلاة في تلك البقعة مزية خير أصلاً، بل مزية شر (١).

فالتبرك بقبور الأنبياء والصالحين من أموات المسلمين هو عين المحادة لله ورسوله ﷺ - وقد سبق نقل كلام شيخ الإسلام في هذه المسألة - وهو أعظم من التبرك بذوات الصالحين. وعلى كل حال فما ذهب إليه القاري من جواز التبرك بذوات الصالحين وآثارهم بجانب للصواب، ولما عليه أئمة أهل السنة والجماعة.

وسبب الخطأ عند القاري وغيره في هذه المسألة - التبرك بذوات الصالحين وآثارهم - هو قياسهم على ما ورد في حق النبي ﷺ من تبرك الصحابة رضي الله عنهم وبآثاره ﷺ، وهذا القياس الذي ذهب إليه القاري وغيره ممن يجيزون التبرك بذوات الصالحين وآثارهم خطأ صريح لوجوه (٢):

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/١٩٢-١٩٣). وانظر: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن (١/٣٨٧-٣٨٨).

(٢) انظر: الاعتصام للشاطبي (٢/٨-١١)، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (١٨٦)، وتعليقات الشيخ عبدالعزيز بن باز على فتح الباري (١/٣٢٧-٥٢٢-٥٢٣) (٣/١١٥-١٢٤)، والتبرك أنواعه وأحكامه للجديع (٢٦١-٢٦٨).

- الوجه الأول : أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم عليهم السلام من الذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة؟ وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب^(١)، وعلي بن الحسين^(٢)، وأويس القرني^(٣)، والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم؟! فدل ذلك على أن التبرك مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثاني : عدم المقارنة فضلاً عن المساواة للنبي صلى الله عليه وسلم في الفضل والبركة.

الوجه الثالث : التبرك بالصالحين وآثارهم من وسائل الشرك، فيجب منعه سداً للذريعة، وحماية لجناب التوحيد. ولهذا لما كان القاري من القائلين بجواز التبرك بالصالحين وآثارهم أقر بعض صور الشرك دون نكير لها .

فقد ذكر في ترجمة الإمام البخاري أن أهل سمرقند استسقوا مراراً فلم

(١) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي، أبو محمد القرشي، كان مولده لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكان من سادات التابعين فقهاً وورعاً وعبادةً وفضلاً وزهداً وعلماً. مات سنة (٩٣هـ) .

انظر: مشاهير علماء الأمصار .

(٢) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن، من فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم وعباد المدينة، مات سنة (٩٢هـ) وله خمسون سنة.

انظر: مشاهير علماء الأمصار (٦٣).

(٣) هو سيد التابعين في زمانه، أبو عمر، أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني، القدوة الزاهد.

انظر: السير (١٩/٤-٣٣) .

يسقوا، فقال بعض الصالحين^(١) لقاضيتها: أرى أن تخرج بالناس إلى قبر البخاري، ونستسقي عنده فعسى الله أن يسقينا ففعل، وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى عليهم السماء بماء غزير أقام الناس من أجله نحو سبعة أيام لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر^(٢).

وقال أيضاً في ترجمة أبي أيوب الأنصاري -خالد بن زيد- رضي الله عنه: (وهو -أي قبره- معروف إلى اليوم مُعظَّم، يستشفعون به فيشفعون)^(٣).

فالتبرك بالصالحين وآثارهم من وسائل الشرك، فصور الشرك الموجود اليوم عند بعض المسلمين من أسبابها التبرك بالصالحين وآثارهم .

الوجه الرابع : عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، ومن شهد بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح، وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم .

الوجه الخامس : أنا لو ظننا صلاح شخص، فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره .

(١) هكذا وصفهم بالصلاح وفيه نظر، لأن الصلاح الحقيقي هو المبني على الكتاب والسنة عقيدة وعملًا.

(٢) مرقاة المفاتيح (٥٧/١) .

(٣) جمع الوسائل في شرح الشمائل (٢٨٦/١)، وشرح الشفاء (٦٠٤/١) .

وانظر: تعليق القاري على قصة ورقة بن نوفل حينما مر ببلال وهو يعذب فقال: (والله لئن قتلتموه لاتخذنه حنانا) أي لأجعلن قبره موضع حنان أي مظنة رحمة من الله، فأتمسح به متبركاً كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية، فيرجع ذلك عار عليكم. شرح الشفاء (٥٠/١).

الوجه السادس : أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم.

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله تعالى - عند شرحه لحديث « من تشبهه بقوم فهو منهم ... » ^(١) : (وكذلك التبرك بالآثار فإنما كان يفعله الصحابة مع النبي ﷺ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض، ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبي ﷺ مثل: التبرك بوضوئه، وفضلاته، وشعره، وشرب فضل شرابه وطعامه، وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظم وللمعظم لما يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة، وربما يترقى إلى نوع من الشرك، كل هذا إنما جاء من التشبه بأهل الكتاب والمشركين الذين نهيت عنه هذه الأمة .

وقد كان السلف الصالح ينهون عن تعظيمهم غاية النهي كالحسن، والثوري، وأحمد ... وجاء إليه - أي إلى الإمام أحمد - رجل فمسح يده على ثيابه ومسح بهما وجهه، فغضب الإمام، وأنكر ذلك أشد الإنكار، وقال: عمّن أخذتم هذا الأمر؟! ^(٢).

وبهذه الأوجه التي ذكرتها يتبين لنا أن قول القاري بجواز التبرك بالأولياء والصالحين وآثارهم مجانب للصواب، وليس عليه هدي سلف هذه الأمة .

وأما حديث « سؤر المؤمن شفاء » الذي زعم القاري أن معناه صحيح

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة (٤/٣١٤ / رقم ٤٠٣١)، وجود إسناده شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (٢٦٩). وانظر: مجموع الفتاوى (٣٣١/٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٦١٤٩).

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ بعثت بالسيف بين يدي الساعة (٤٦-٤٧).

وهو دليل على جواز التبرك بسؤر المؤمن، فهذا الحديث لا أصل له^(١)، بل إن القاري نفسه حكم عليه بالوضع، ولذا أورده في كتابه "الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة"^(٢).

وأما زعم القاري بأن معنى ذلك الحديث -سؤر المؤمن شفاء- صحيح، واستدل على ذلك برواية الدارقطني في "الأفراد" من حديث ابن عباس مرفوعاً: "من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه" أي المؤمن .
فالجواب عنه من جهتين :

الأولى : أن هذا الحديث موضوع لا يثبت عن النبي ﷺ^(٣).

الثانية : أن هذا الحديث لو فرض صحته لما كان شاهداً لذلك المعنى! كيف وليس فيه أن سؤر المؤمن شفاء لا تصريحاً ولا تلويحاً^(٤).

* * * * *

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/١٠٥/ رقم ٧٨) .

(٢) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١٢٩) .

(٣) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/١٠٦/ رقم ٧٩) .

(٤) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/١٠٥) .

المبحث الثالث : شد الرحل إلى القبور والمشاهد .

❦ وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: رأي القاري في شد الرحل إلى القبور .
- المطلب الثاني: مناقشة القاري فيما ذهب إليه .

* * * * *

المطلب الأول : رأي القاري في شد الرحل إلى القبور .

قال القاري عند شرحه لحديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا " (١) :

(" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " قيل: نفى معناه فهي أي: لا تشدوا إلى غيرها لأن ما سوى الثلاثة متساوٍ في الرتبة غير متفاوت في الفضيلة، وكان الترحل إليه ضائعاً وعبثاً، وفي شرح مسلم للنووي قال أبو محمد (٢): يحرم شد الرحل إلى غير الثلاثة وهو غلط (٣). وفي الاحياء (٤): ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال به على المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصالحين، وما تبين لي أن الأمر كذلك، بل الزيارة مأمور بها لخبر: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها " (٥)، والحديث إنما ورد نهياً عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتمثيلها، بل لا بلد إلا وفيها مسجد، فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر، وأما المشاهد فلا تساوي بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله،

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (٣٦٧/١ / رقم ١١٨٩). ومسلم في كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد (١٠١٤-١٠١٥ / رقم ١٣٩٧).

(٢) هو عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف، أبو محمد الجويني، إمام الشافعية والد إمام الحرمين أبي المعالي، كان إماماً في الفقه والأصول والأدب والعربية، توفي سنة (٤٣٨هـ). انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٧٣/٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٥٩/١٢).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٧٧/٩-١٧٨).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣٣٦/٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه (٦٧٢/٢ / رقم ٩٧٧) بلفظ " نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها " .

ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحل لقبور الأنبياء كإبراهيم وموسى ويحيى؟! ^(١)، والمنع من ذلك في غاية الإحالة، وإذا جَوَّز ذلك لقبور الأنبياء والأولياء في معناتهم، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة، كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد ^(٢).

وقال أيضاً: (" لا تشد الرحال " أي: لا تطلب بركة البقاع بالسفر إليها، " إلا إلى مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى "، ولا يمنع هذا زيارة قبور الأنبياء والأولياء؛ لأن الحصر في حق المساجد دون سائر المشاهد ^(٣).

وقال أيضاً بعدما ذكر جملة من الأحاديث التي فيها الحث على زيارة قبر النبي ﷺ كحديث " من زار قبري كنت له شفيعاً أو شهيداً " ^(٤)، ومنها حديث علي مرفوعاً " من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزِر قبري فقد جفاني " ثم قال بعد ذلك: (وما وقع للشعبي والنخعي وغيرهما مما يقتضي كراهة زيارة القبور شاذ لا يعول عليه لمخالفته الإجماع!!! وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي ﷺ!) ^(٥).

* * * * *

(١) الجواب: نعم، يمنع لأن الحديث عام، وليس من هدي السلف أنهم كانوا يشدون الرحل للقبور كما يأتي بيانه - بمشيئة الله - قريباً.

(٢) مرقاة المفاتيح (٣٩٧/٢).

(٣) شرح عين العلم وزين الحلم (١٨٩/١).

(٤) يأتي الكلام على هذه الأحاديث قريباً - بمشيئة الله تعالى - (٣٠٧-٣١١) من هذه الرسالة.

(٥) شرح الشفاء (١٥٠/٢-١٥١).

المطلب الثاني : مناقشة القاري فيما ذهب إليه .

يتبين لنا من كلام القاري السابق وما نقله عن بعض أهل العلم، أنه يرى أن حديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " ^(١) خاص في حق المساجد دون المشاهد من قبور الأنبياء والأولياء .

فالقاري يرى جواز شد الرحل إلى قبور الأنبياء والأولياء، وأن حديث " لا تشد الرحال " خاص بالمساجد، وما عدا المساجد من المشاهد، والقبور فلا يدخل في عموم الحديث؛ ولهذا نقل عن الغزالي قوله -مرتضياً له- (والحديث إنما ورد نهيًا عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتمثيلها، بل لا بلد إلا وفيها مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر، وأما المشاهد فلا تساوي بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله) ^(٢).

وكلام القاري السابق يمكن إجماله في مسألتين، وسيكون مناقشة القاري من خلالهما :

المسألة الأولى : رأي القاري في الحصر الوارد في حديث " لا تشد الرحال ... " .

المسألة الثانية : رأي القاري فيمن قال بتحريم شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ .

* * * * *

(١) سبق تخريجه (٣٠١) .

(٢) مرقاة المفاتيح (٣٩٧/٢) .

المسألة الأولى :

رأى القاري في الحصر الوارد في حديث " لا تشد الرحال ... " .

القاري يرى أن الحصر في حديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " خاص بالمساجد دون سائر المشاهد؛ ولهذا قال عقيب حديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " : (ولا يمنع هذا زيارة قبور الأنبياء، والأولياء؛ لأن الحصر في حق المساجد دون سائر المشاهد)^(١).

فهذا هو رأي القاري في شد الرحل إلى قبور الأنبياء والأولياء، وأما زيارة قبر نبينا محمد ﷺ فإنه يرى استحباب ذلك؛ ولهذا أورد جملة من الأحاديث التي تحت على زيارة قبر النبي ﷺ ، ثم قال عقيب ذلك : (والأحاديث في هذا الباب كثيرة، والروايات فيها شهيرة منها ما رواه علي مرفوعاً " من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزر قبري فقد جفاني " وقد استدل به على وجوب الزيارة بعد الاستطاعة)^(٢).

وخلاصة القول في رأي القاري أنه يرى جواز شد الرحل إلى القبور والمشاهد، وأما حديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " فهو محمول عنده على نفي الفضيلة والاستحباب، ولهذا قال عند شرحه لحديث " لا تشد الرحال ... " : (" لا تشد الرحال " جمع رحل، وهو كور البعير، والمراد نفي فضيلة شدها وربطها)^(٣).

(١) شرح عين العلم وزين الحلم (١/١٨٩) .

(٢) شرح الشفاء (٢/١٤٩) .

(٣) مرقاة المفاتيح (٢/٣٩٧) .

هذا الذي ذهب إليه القاري مخالف لما ذهب إليه السلف ومن سار على نهجهم، والجواب عما ذهب إليه القاري من وجوه^(١):

الوجه الأول: قول القاري بأن المراد بالنفي في حديث "لا تشد الرحال ..."^(٢) نفي الفضيلة، وأن شد الرحل إلى القبور والمشاهد جائز، قول مردود وقد أجاب عنه أهل العلم بجوابين:

أحدهما: أن هذا تسليم منه أن هذا السفر ليس بعمل صالح، ولا قرينة، ولا طاعة.

ومن اعتقد أن السفر لزيارة القبور قرينة وطاعة فقد خالف الإجماع، وإذا سافر لاعتقاده بأنه طاعة فإن ذلك محرم بإجماع المسلمين، فصار التحريم من جهة اتخاذه قرينة، ومعلوم أن أحداً لا يسافر إليها إلا لذلك.

وأما إذا قصد بشد الرحل غرضاً من الأغراض المباحة كالتجارة مثلاً فهذا جائز.

الثاني: أن النفي في الحديث يقتضي النهي، والنهي يقتضي التحريم.

الوجه الثاني: أنه لم يرد عن النبي ﷺ لا من قوله ولا من فعله، ولا من قول أصحابه، ولا من فعلهم بأنه يجوز شد الرحل إلى القبور والمشاهد بل ورد عنهم ﷺ النهي عن ذلك، فدل ذلك على أن صدر هذه الأمة لا يرى جواز السفر إلى القبور والمشاهد، وأن ذلك من وسائل الشرك^(٣).

(١) انظر: الرد على الاخواني، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤٤-١٤٥)، وجلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لنعمان خير الدين الألوسي (٥٨٨-٥٨٩)، وغاية الأمان في الرد على النبهاني لأبي المعالي محمود شكري الألوسي (٢٤٨/٢-٢٤٩)، والنبد الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين، للشيخ حمد بن ناصر آل معمر (١٦٩-١٧٠).

(٢) انظر: الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي تكملة الصارم المنكي، للشيخ محمد بن

الوجه الثالث : أن سلف هذه الأمة هم المرجع لفهم النصوص الشرعية، وحديث « لا تشد الرحال » فهمه السلف بأنه عام في جميع البقاع التي يقصد بها التقرب إلى الله، وإليك النقل من كلامهم :

(أ) عن أبي بصرة رضي الله عنه أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور صليت فيه، قال: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى » ^(١).

(ب) وعن قزعة ^(٢) قال: « سألت ابن عمر: آتي الطور؟ فقال: دع الطور ولا تأتھا. وقال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ^(٣).

فهذا الصحابي الجليل بصرة بن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه يرى حمل حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » على عمومته، وينهى عن شد الرحل إلى الطور الذي كلم الله موسى عليه، وهذا الصحابي الآخر أبو هريرة رضي الله عنه يوافق بصرة على هذا الفهم لهذا الحديث، ولا يُنكر عليه فهمه، مع أن بصرة

= حم

حسين الفقيه (٢٠٠) .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٧/٦) والسياق له، والطيالسي (١٣٤٨) . وصححه الألباني، انظر: أحكام الجنائز وبدعها (٢٢٦)، والإرواء (١٤٢/٤) .

(٢) قزعة بن يحيى، ويقال: ابن الأسود، أبو الفادية البصري، روى عن: ابن عمر، وابن عمرو ابن العاص، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجماعة .

انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٧٧/٨) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥٠/٢) رقم (٧٥٣٩)، والأزرقي في أخبار مكة (٣٠٤)، وصحح إسناده الألباني، انظر: أحكام الجنائز (٢٢٦)، وتحذير المساجد من اتخاذ القبور مساجد (١٢٧) .

ﷺ ينكر عليه ذهابه إلى الطور .

وهذا ابن عمر ﷺ ينهى عن شد الرحل إلى الطور، ويستدل على ذلك بحديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " فدل ذلك على أن السلف الصالح من الصحابة ومن سار على نهجهم يفهمون أن هذا الحديث " لا تشد الرحال ... " ليس خاصاً بالمساجد كما زعمه القاري وغيره، بل هو عام في كل مكان يقصد السفر إلى عينه للتقرب ^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكره لحديث بصرة بن أبي بصرة الغفاري في إنكاره على أبي هريرة ﷺ في ذهابه إلى الطور، قال: (فقد فهم الصحابي الذي روى الحديث أن الطور وأمثاله من مقامات الأنبياء، مندرج في العموم ^(٢)، وأنه لا يجوز السفر إليها، كما لا يجوز السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة) ^(٣).

الوجه الرابع : وأما ما استدل به القاري من الأحاديث على استحباب شد الرحال إلى قبر نبينا محمد ﷺ فالجواب عنه من جهتين :

أحدهما : من حيث الإجمال، وهو أن جميع الأحاديث التي تُروى في زيارة قبر النبي ﷺ كلها ضعيفة بل موضوعة، هذا جواب من حيث الإجمال .

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٨٢/٢) .

(٢) يقصد عموم حديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... " .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١٨٣/٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (أحاديث زيارة قبره ﷺ كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين؛ ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها، وإنما يروونها من يروى الضعاف كالدارقطني والبخاري وغيرهما) (١).

وقال أيضاً في موضع آخر: (كلها أحاديث ضعيفة، بل موضوعة، ليس في شيء من دواوين الإسلام التي يعتمد عليها، ولا نقلها إمام من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة، ولا غيرهم، ولكن روى بعضها البخاري، والدارقطني، ونحوهما بأسانيد ضعيفة، ولأن من عادة الدارقطني وأمثاله. يذكرون هذا في السنن ليعرف، وهو وغيره يبينون ضعف الضعيف من ذلك) (٢).

الثاني : من حيث التفصيل، وهو الرد على الأحاديث التي ذكرها القاري وزعم أنها تدل على استحباب زيارة قبر النبي ﷺ، كحديث " من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي "، وحديث " من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني "، وزعم القاري أن هذا الحديث الأخير رواه ابن عدي بسند يحتج به، ولهذا قال: (وعن ابن عدي بسند يحتج به " من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني ") (٣).

الجواب عن هذه الأحاديث :

١ (حديث " من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي "،

الجواب عن هذا الحديث من جهتين :

(١) الفتاوى (٢٣٤/١) .

(٢) المصدر السابق (١٤٩/٢٦) .

(٣) شرح الشفاء (١٤٩/٢) .

أ - من جهة الإسناد: فهذا الحديث رواه الدارقطني في سننه^(١) عن هارون أبي قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: "من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ...".

هذا الحديث ذكر أهل العلم أن فيه علتين:

الأولى: الرجل الذي لم يسم فهو مجهول.

الثانية: ضعف هارون أبي قزعة فقد تكلم فيه^(٢).

ب - من جهة المتن: فإن هذا المتن كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث "من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي"^(٣): (فإن هذا كذب ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من

(١) (٢/٢٧٨/رقم ٢).

(٢) قال البخاري: لا يتابع عليه، وضعفه يعقوب بن شيبه، وذكره العقيلي، والساجي، وابن الجارود في الضعفاء. انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٤/٢٨٥)، ولسان الميزان لابن حجر (٦/١٨٠-١٨١)، والضعفاء للعقيلي (٤/٣٦١).

وانظر أيضاً كلام الحافظ ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (١١١) فقد استفاض في الكلام على هذا الحديث وبين ضعفه، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رحمه الله (٣/٨٩-٩١/رقم ١٠٢١).

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢/٢٧٨/رقم ١٩٢)، والبيهقي في الكبرى، في كتاب الحج، باب زيارة قبر النبي ﷺ (٥/٢٤٦)، وابن عدي في الكامل (٢/٧٩٠)، والطبراني في الكبير (١٢/٤٠٦/رقم ١٣٤٩٧)، كلهم من طريق أبي الربيع الزهراني عن حفص بن أبي داود عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً.

وهذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ لأن في سنده حفص بن أبي داود وليث بن أبي سليم وهما ضعيفان عند أهل الحديث. انظر: الرد على الاخواني لابن تيمية (٥٠-٥١)، وقاعدة جلية في التوسل والوسيلة مع كلام المحقق عليها (١٣٤-١٣٥)، والصارم المنكي

زاره في حياته، وكان مؤمناً به، كان من أصحابه، لا سيما إن كان من المهاجرين إليه، المجاهدين معه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال " لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " (١) أخرجاه في الصحيحين، والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة، كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين، بل ولا يشرع السفر إليه، بل هو منهي عنه، وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه، والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب، فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته، فكيف بالسفر المنهي عنه؟ (٢).

(٢) وأما حديث " من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني " .

هذا الحديث حكم عليه الحافظ الذهبي بالوضع كما في الميزان (٣).

قال الألباني رحمه الله: (ومما يدل على وضعه أن جفاء النبي ﷺ من

= حـ

لابن عبدالمهادي (٦٢-٧٥)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رحمه الله (١/٦٢-٦٤/ رقم ٤٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ " لو كنت متخذاً خليلاً ... " (٣/١٢/ رقم ٣٦٧٣).

ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (٤/١٩٦٧/ رقم ٢٥٤٠).

(٢) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة (١٣٤-١٣٥) .

(٣) ميزان الاعتدال (٤/٢٦٥). وانظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية، للشوكاني

(١١٦)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني (١/٦١/ رقم ٤٥) .

الذنوب الكبائر إن لم يكن كفراً، وعليه فمن ترك زيارته ﷺ مرتكباً لذنوب كبير وذلك يستلزم أن الزيارة واجبة كالحج وهذا مما لا يقوله مسلم؛ ذلك لأن زيارته ﷺ وإن كانت من القربات فإنها لا تتجاوز عند العلماء حدود المستحبات، فكيف يكون تاركها مجافياً للنبي ﷺ، ومعرضاً عنه؟! (١).

(٣) وأما حديث «من زار قبري كنت له شفيعاً أو شهيداً» (٢).

هذا الحديث رواه أبو داود في مسنده وفيه آفتان: الأولى: شيخ المصنف سوار بن ميمون، والثانية: الراوي عن عمر، وكلاهما مجهول.

(٤) وأما حديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور.....» (٣)، الذي استدل به الغزالي على استحباب زيارة القبور، وشد الرحال إليها، وأقره القاري على ذلك، فالجواب عنه من وجوه (٤):

أ - يقال للقاري وغيره ممن استدل بهذا الحديث: ليس في هذا الحديث ما يدل على استحباب شد الرحل إلى زيارة قبر نبينا محمد ﷺ، ولا غيره من قبور المسلمين؛ ذلك لأن الأمر بمطلق الزيارة، أو استحبابها، أو إباحتها لا يستلزم السفر إلى ذلك، ولا استحبابه، ولا إباحته كما أن ذلك لا يتناول زيارتها لمن ينوح عندها، ولا زيارتها لمن يشرك عندها، ويدعوها ويفعل عندها من البدع ما نهى عنه كما أن قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ (٥) لا يتناول

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦١/١).

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٦٦/١ رقم ٦٥). انظر: الإرواء (٣٣٣/٤ رقم ١١٢٧).

(٣) سبق تخريجه (٣٠١).

(٤) انظر: الرد على الاخواني (٢٣٥-٢٤٣).

(٥) سورة البقرة، آية (١٩٦).

أيام الحيض، ولا يومي العيدين. وكما أن قوله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »^(١)، وقوله « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها »^(٢)، لا يقتضي أنها تسافر مع غير زوج ولا ذي محرم، ولا على أن على زوجها أن يأذن لها إذا أرادت السفر إلى أحد المساجد، فلا يقال: إن هذه الأحاديث عامة في السفر وغيره.

فإن قيل: هذه المواضع قد عرف أنه أراد الإتيان إلى المسجد من البيت لم يرد السفر لأن هذا هو المعروف بينهم، قيل: وكذلك زيارة القبور لم يكونوا يعرفونها إلا من المدينة إلى مقابرها، ولم يُعرف قط أن أحداً من الصحابة والتابعين، وتابعيهم سافروا لزيارة قبر .

ب - أن النبي ﷺ خاطبهم بما كانوا يعرفونه من الزيارة، وهم لم يكونوا يعرفون زيارة القبور إلا كما يعرفون اتباع الجنائز: يتبعون الجنازة من البيت إلى المقبرة، وكذلك يخرج أحدهم لزيارة القبور من البيت إلى المقبرة، أو يمر بالقبر مروراً. فهذا الذي كانوا يعرفونه، ويفهمونه من قوله، فلم يكن أحد على عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ولا عهد الصحابة، والتابعين، وتابعيهم يسافر لزيارة قبر، لا قبر نبي، ولا صالح، ولا غيرهما، لا قبر نبينا محمد ﷺ، ولا إبراهيم، ولا غيره، بل هذا إنما حدث بعد ذلك .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنه وأنها لا تخرج مطيبة (١/٣٢٦-٣٢٧/رقم ٤٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد (١/٢٧٨/رقم ٨٧٣) . ومسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنه وأنها لا تخرج مطيبة (١/٣٢٦-٣٢٧/رقم ٤٤٢) .

ج - أن الزيارة التي أذن فيها الرسول ﷺ أو ندب إليها، أو فعلها، مقصودها نفع الميت والإحسان إليه بالدعاء له، والاستغفار، ومقصودها تذكّر الموت، ولم يكن مقصودها أن تعود بركة الميت المزور على الحي الزائر، ولا أن يدعوه ويسأله، ويستشفع به، فهذا هو هدي النبي ﷺ في الزيارة .

د - ويقال أيضاً لمن يستدل بهذا الحديث على جواز شد الرحل إلى القبور. هب أن لفظ الحديث عام، فإن أحاديث النهي عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة تخص هذا كما تخص إتيان المساجد، ومعلوم أن إتيان المساجد أفضل من إتيان المقابر ونحوها، والسفر إليها أفضل - لا كما زعم القاري^(١) - فإذا كان النبي ﷺ نهي عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة فالنهي عما يكون إتيانه والسفر إليه دون إتيان المساجد أولى بالنهي .

هـ - وكذلك يقال للقاري، وكل من استدل بحديث " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها " ليس في هذا الحديث دليل على استحباب السفر إليها بل ولا زيارتها، ذلك لأنه جاء في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن الانتباز إلا في سقاء فاشربوا في الأوعية كلها ولا تشربوا مسكراً " ^(٢)، وقد اتفق المسلمون على أن الانتباز في الأوعية، والادخار أراد به إباحة ذلك بعد حظره، لم يرد به الندب

(١) فقد زعم القاري أن الرحلة إلى غير المساجد الثلاثة لا معنى لها؛ لأنه ما من بلد إلا وفيه مسجد، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله؟!

انظر: مرقاة المفاتيح (٣٩٧/٢) .

(٢) سبق تخريجه (٣٠١) .

إلى ذلك، فكذلك قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» قد يقال: أراد به الإباحة بعد الحظر لم يرد الندب، ولا يلزم من إباحتها ولا من الندب إليها إباحة السفر كإتيان المساجد .

وبهذه الأوجه يتبين لنا أن حديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور...» ليس فيه دلالة على استحباب شد الرحل إلى القبور، والمشاهد خلافاً لما ذهب إليه القاري ومن قبله الغزالي .

المسألة الثانية :

رأي القاري فيمن قال بتحريم شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ .

قال القاري بعدما ذكر جملة من الأحاديث^(١) التي فيها الحث على زيارة قبر النبي ﷺ : (هذا وما وقع للشعبي، والنخعي، وغيرهما مما يقتضي كراهة زيارة القبور شاذ لا يعول عليه لمخالفته الإجماع، وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم^(٢)، كما أفرط غيره حيث قال كون الزيارة قرينة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثاني أقرب إلى الصواب؛ لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً؛ لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب، نعم يمكن حمل كلام من حرم أو كره على صورة خاصة من الزيارة من الاجتماع في وقت خاص على هيئة منكرة، أو صفة مكروهة من اجتماع الرجال والنساء في وقت واحد لما فيه من اتخاذ قبره عيداً الموجب لما أورد

(١) كل الأحاديث التي في زيارة قبر النبي ﷺ إما ضعيفة، أو موضوعة. انظر: (٣٠٧-٣١١) من الرسالة.

(٢) لم يفرط هذا الإمام وإنما دار حيث دار الدليل، والحق ما ذهب إليه ابن تيمية كما سبق بيانه في مسألة شد الرحل إلى القبور .

فيه وعيداً^(١).

المنافشة : -

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه قسم الناس تجاه مسألة: شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ إلى قسمين :

أ (منهم من فرط فيها وحرّم شد الرحل إلى زيارة قبر النبي ﷺ كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أو كرهه كالشعبي والنخعي .

ب (ومنهم من أفرط من حيث حكم على جاحد الزيارة بالكفر؛ لأن شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ من القرب المعلومّة من الدين بالضرورة عند هؤلاء. ثم رجح القاري القول الثاني، وزعم أنه أقرب إلى الصواب!!! معللاً بأنّ تحريم ما أجمع العلماء عليه بالاستحباب يكون كفراً؛ لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب .

فالقاري من خلال ذكره لهذه المسألة نراه يرى استحباب شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ -وقد مضى مناقشة القاري في هذه المسألة مما أغنى عن إعادتها هنا- ولكن يمكن أن نناقش القاري هنا في قضيتين :

الأولى : زعم القاري بأن مسألة شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ مجمع على استحبابها .

الثاني : زعم القاري بأن قول من قال إن جاحد شد الرحل إلى زيارة قبر النبي ﷺ كافر أقرب إلى الصواب .

* * * * *

(١) شرح الشفاء (٢/١٥١) .

القضية الأولى :

زعمُ القاري بأن مسألة شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ مجمع على استحبابها. هذه دعوى باطلة عارية عن الدليل، بل إن الدليل على خلاف ذلك . والجواب عن هذه الدعوى من وجوه ^(١):

(١) يقال للقاري -وكل من ادعى الإجماع في هذه المسألة- أن تعريف الإجماع عند أهله هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة على حكم شرعي لا يعلم لهم مخالف في هذا الحكم ^(٢).

ومن المعلوم أن مسألة شد الرحل لمجرد الزيارة ليس لها نصيب من هذا التعريف، وذلك يتبين بالوجه الثاني .

(٢) من خلال التعريف المتقدم للإجماع نعلم أنه لو خالف واحد من العلماء المجتهدين في مسألة "ما" لم ينعقد الإجماع على الصحيح، كيف ومسألة شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة لم تكن معروفة عند السلف، بل ورد عنهم النهي عن ذلك كما مر معنا في قصة بصرة الغفاري مع أبي هريرة ؓ، وإنكار ابن عمر ؓ على من أراد أن يذهب إلى الطور، فكيف يُدعى بعد ذلك أن المسألة مجمع عليها، فلو عكست القضية لكان هو الصواب بأن

(١) انظر: الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي، للشيخ محمد بن حسين الفقيه (١٥٨) وما بعدها.

(٢) انظر: تقريب الوصول إلى علم الأصول، لابن جزى الغرناطي (٣٢٧)، ونيل السؤل على مُرتقى الوصول، للعلامة محمد يحيى الولاقي (١٦٣).

الإجماع منعقد على تحريم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ومن ذلك قبر النبي ﷺ .

(٣) أن القاري نقض هذه الدعوى التي ادعاها، حيث ذكر أن الشعبي، والنخعي وغيرهما كانوا يكرهون زيارة القبور، فأين الإجماع مع وجود هذا الخلاف ؟.

* * * * *

◀ **القضية الثانية :** زعمُ القاري بأن قول من قال إن جاحد شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ محكوم عليه بالكفر أقرب إلى الصواب زعمٌ باطل.

وقد علل القاري كونه أقرب إلى الصواب بقوله: (لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً؛ لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب) (١).

نلاحظ هنا في تعليل القاري أنه بنى رأيه هذا على مقدمة وهي كون شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ من المسائل المجمع على استحبابها بين العلماء فهذا هو الأساس الذي أقام عليه القاري دعواه تلك، وقد هدمنا هذا الأساس -في المسألة الأولى- وبيننا أنه ليس ثمة إجماع في المسألة. وإذا بطل الأساس بطلت النتيجة التي توصل إليها القاري وزعم أنها أقرب إلى الصواب .

وأما حمل القاري كلام من قال بالتحريم، أو الكراهة على صورة خاصة من الزيارة كالاجتماع في وقت خاص على هيئة منكرة، أو صفة مكروهة من اجتماع الرجال والنساء في وقت واحد إلخ .

(١) شرح الشفاء (١٥١/٢) .

فهذا حمل بعيد عن الصواب بل مراد من حرم أو كره - شد الرحل إلى زيارة القبور - مراده شد الرحل من حيث هو، فلا يجوز إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، أو المسجد النبوي، أو المسجد الأقصى، وما عداها فلا يجوز شد الرحل إليه .

* * * * *

الباب الرابع

عقيدة القاري في الأسماء والصفات

وفيه فصلان :-

❖ الفصل الأول : الأسماء .

❖ الفصل الثاني : الصفات .

* * * * *

تمهيد :

أهمية معرفة توحيد الأسماء والصفات وبيان طريقة السلف في إثباته

(إن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(١)، فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن، ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(٢)، فالعلم بوحديته تعالى، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له .

فهنا أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها (٣).

فالعلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم، وأشرفها، وأعظمها، لأن شرف العلم بشرف المعلوم (ومما لا شك فيه أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل

(١) سورة الطلاق، آية (١٢) .

(٢) سورة محمد، آية (١٩) .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/٥٣٥)، وانظر أيضاً (١/٢٢٧) .

تمثيل وتشبيه في كماله (١).

ولما كان الإيمان بأسماء الله وصفاته بهذه المثابة نجزم قطعاً بأن باب النجاة فيه إنما يكون بمتابعة الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، لأن الله ﷻ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٢)، فمن الدين الكلام في أسماء الله وصفاته، بل هو أعظم أبواب الدين، لأن به معرفة الله ﷻ فالله ﷻ لم تره العيون في هذه الدنيا، وما آمن به من آمن به برؤيته، ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان، وهذا الإيمان أعظمه العلم بالله وبأسمائه ونعوت جلاله وصفات كماله وجماله .

وإذا كان الأمر كذلك، فإن ذكره على وجه الكمال في الكتاب والسنة لا بد منه؛ لأن الله أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وهذا الكمال يقتضي أن طريقة الصدر الأول طريقة محكمة، فما فهموه من الكتاب والسنة في هذا الباب هو العلم والحكمة .

فطريق النجاة في هذا الباب وغيره أن يُسلك فيها طريقة سلف هذه الأمة، لأن النبي ﷺ وصف السلف بأنهم خير القرون (٣)، وكونهم خير القرون، يدل على أنهم جمعوا من العلم أسلمه وأعلمه وأحكمه، وجمعوا من العمل ما كان على صواب وظهر فيه إخلاصهم ومتابعتهم لنبيهم ﷺ، فطريقة السلف الصالح

(١) مفتاح دار السعادة (٣١١/١) .

(٢) سورة المائدة، آية (٣) .

(٣) كما جاء في حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...» أخرجه البخاري في الشهادات رقم (٢٦٥٢).

في أسماء الله وصفاته: أنهم يثبتون الأسماء الحسنى والصفات العليا لله ﷻ إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

وقد بين الإمام إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني^(٢) اعتقاد أئمة الهدى من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم في هذا الباب فقال :

(إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة، حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم يشهدون لله تعالى بالوحدانية وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم ﷻ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله أو شهد له بها رسوله ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه، ويثبتون له ﷻ، منها ما أثبت لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون إنه خلق آدم بيده، كما نص سبحانه عليه في قوله عز من قائل ﴿قَالَ يَتَائِلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾^(٣). ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة والجهمية أهلكتهم الله ولا يُكيفون بكيف، أو يشبهون بأيدي المخلوقين تشبيه المشبهة خذلهم الله، وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) هو أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد بن إسماعيل الصابوني، الإمام العلامة، المفسر، المحدث، المذكر، شيخ الإسلام، ولد سنة (٣٧٣هـ)، روى ابن عساكر عن إمام الحرمين أنه قال: كنت أتردد وأنا بمكة في المذاهب فرأيت النبي ﷺ وهو يقول: عليك باعتقاد أبي عثمان الصابوني. أهد. توفي الصابوني سنة (٤٤٩هـ).

انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٦٩/١٢)، والسير (٤٠/١٨-٤٤) .

(٣) سورة ص، آية (٧٥) .

التحريف^(١) والتكليف^(٢) والتشبيه^(٣) ومنّ عليهم بالتعريف والتفهم حتى
 سلكوا سُبُل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعليل والتشبيه، وابتغوا قول
 الله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٤) (...)^(٥).

* * * * *

(١) التحريف لغة: التغيير وإمالة الشيء عن وجهه، يقال: انحرف عن كذا أي: مال وعُدل.
 واصطلاحاً: هو التغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو معانيها، كقول الجهمية في قوله تعالى:
 ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: استولى، وقوله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره.
 التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية لابن رشيد (٢٢)، وانظر: شرح الواسطية للسهراس
 (٢١).

(٢) المراد به السؤال عن حقيقة الشيء وكنهه .
 انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٦٤/١)، وشرح العقيدة الواسطية لشيخنا ابن عثيمين
 (٩٧/١).

(٣) المراد بالتشبيه: تشبيه الخالق بالمخلوق كقول المشبهة لله يد كأيدينا وسمع كأسماعنا، ونحو
 ذلك. انظر: التنبيهات السنية (٢٥)، والتنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة
 الواسطية لابن سعدي (١٦-١٨) .

(٤) سورة الشورى، آية (١١) .

(٥) عقيدة أصحاب الحديث (٢٦-٢٧) .

الفصل الأول

الأسماء

وفيهِ خمسة مباحث :

- المبحث الأول: الاسم والمسمى .
- المبحث الثاني: هل أسماء الله توقيفية أم اجتهادية .
- المبحث الثالث: أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .
- المبحث الرابع: حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .
- المبحث الخامس: معنى الإحصاء الوارد في الحديث .

* * * * *

توطئة :

تناول القاري - رحمه الله - عدة مسائل تتعلق بأسماء الله ﷻ فقد تحدث عن اشتقاق الاسم وعلاقته بالمسمى، وهل أسماء الله ﷻ توقيفية أم اجتهادية، كما تعرض إلى مسألة عدد أسماء الله ﷻ وهل هي محصورة في عدد معين أم لا، كما تحدث عن معنى الإحصاء الوارد في الحديث، وكذلك عن معنى الإلحاد الذي ذمه الله ﷻ.

وفيما يلي سأورد هذه المسائل في خمسة مباحث :

المبحث الأول : الاسم والمسمى وفيه ثلاث مطالب :

المبحث الثاني : هل أسماء الله ﷻ توقيفية أم اجتهادية ؟.

المبحث الثالث : أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .

المبحث الرابع : حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

المبحث الخامس : معنى الإحصاء الواردة في الحديث .

* * * * *

المبحث الأول : الاسم والمسمى

قال القاري رحمه الله عن الاسم (... الأصح أنه من الأسماء المحذوفة العجز كيد، ودم، بدليل تصاريفه من سميت ونحوه، واشتقاقه من السمو وهو العلو لأن التسمية تنويه بالمسمى ورفع لقدره، وعند الكوفية، أصله وسم وهو العلامة لأنه علامة دالة على المسمى فحذف حرف العلة تخفيفاً ثم أدخلت عليه همزة الوصل ...)^(١).

وقال أيضاً : (الاسم هو اللفظ الدال على المعنى بالوضع لغة، والمسمى هو المعنى الموضوع له الاسم والتسمية، وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى، أو إطلاقه عليه وقد يطلق الاسم ويراد به المعنى فالمراد بالاسم هو المسمى على التقدير الثاني وغير المسمى على التقدير الأول، وقال مشايخنا التسمية هو اللفظ الدال على المسمى، والاسم هو المعنى المسمى به)^(٢).

يتبين لنا من خلال النصين السابقين أن القاري تطرق إلى ثلاث مسائل:

- المسألة الأولى : تعريف الاسم .
- المسألة الثانية : اشتقاق الاسم عند أهل اللغة .
- المسألة الثالثة : هل الاسم هو المسمى؟ أو غيره؟ ...

وفيما يلي سأورد هذه المسائل في ثلاثة مطالب في المبحث الثاني، وسيكون مناقشة القاري من خلال هذه المطالب .

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/١) .

(٢) المصدر السابق (٧٢/٥) .

المطلب الأول : تعريف الاسم .

القاري عرف الاسم بأنه اللفظ الدال على المعنى بالوضع لغة ^(١).

هذا التعريف الذي ذكره القاري لا يخرج عما قاله أهل اللغة .

قال أبو بكر بن السراج ^(٢) المتوفى سنة (٣١٦هـ) :

الاسم : (ما دل على معنى ^(٣) مفرد ^(٤)) .

وقال السهيلي ^(٥) : الاسم (اللفظ الذي وضع دلالة على المعنى) ^(٦).

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٧٢/٥) .

(٢) هو محمد بن السري بن سهل أبو بكر، إمام النحو، أبو بكر السراج، صاحب المبرد، انتهى

إليه علم اللسان، كان يلثغ بالراء فيجعلها عيناً، كان مكباً على الغناء واللذة، وله أخبار
سامحه الله، من مصنفاته: "شرح كتاب سيبويه"، و"الشعر والشعراء". مات سنة (٣١٦هـ).

انظر: السير (٤٨٣/٤-٤٨٤)، والأعلام (١٣٦/٦) .

(٣) ذلك المعنى يكون شخصاً وغير شخص، فالشخص نحو: رجل، وفرس، وحجر، وبلد،

وعمر، وبكر. وأما ما كان غير شخص فنحو: الضرب، والأكل، والظن، والعلم، واليوم،

ونحو ذلك. انظر: الأصول في النحو لأبي بكر السراج (٣٦/١) .

(٤) المصدر السابق (٣٦/١) .

(٥) هو الحافظ العلامة البارع، أبو القاسم وأبو زيد عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد من أصبغ بن

حسين بن سعدون، ويكنى أيضاً أبا الحسين، ولد سنة بضع وخمسمائة، كان السهيلي

واسع المعرفة غزير العلم عالماً بالنحو واللغة. من مصنفاته: "الروض الأنف"، و"كتاب

الفرائض". مات سنة (٥٨١هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (١٣٤٨/٤-١٣٤٩) .

(٦) نتائج الفكر في النحو للسهيلي (٣٩) .

وقد بين السهيلي المراد بالمعنى فقال: (والمعنى هو الشيء الموجود في العيان - إن كان من

المحسوسات - كزيد وعمرو - وفي الأذهان إن كان من المعقولات - كالعلم والإرادة ...) .

وقال الزمخشري: (الاسم: ما دل على معنى في نفسه دلالة مجردة عن الاقتران)^(١).

ومن خلال هذه التعريفات يتبين لنا أن القاري لم يخرج في تعريفه عما قاله علماء اللغة، فالاسم هو اللفظ الدال على معنى .

* * * * *

المطلب الثاني : اشتقاق الاسم عند أهل اللغة .

تطرق القاري إلى اشتقاق الاسم عند أهل اللغة، وذكر الخلاف بين مدرستي أهل البصرة، وأهل الكوفة في اشتقاق الاسم، ورجح رحمه الله أن الاسم من الأسماء المحذوفة العجز خلافاً لما عليه أهل الكوفة بأن المحذوف فاء الكلمة، فالقاري يرى ما يراه أهل البصرة بأن الاسم مشتق من السمو وهو العلو.

وهذا هو الراجح وذلك للأسباب التالية : -

الأول : الاستقراء لكلام العرب، فإنه لا يوجد في كلام العرب كلمة سقطت منها فاء الفعل فألحقت بها همزة الوصل في أولها، نحو قولك "عِدْه" و"زِنْه" وأصله "وَعِدْه" و"وَزِنْه" فهنا سقطت فاء الكلمة من "زنه" و"عده"، ولم تلحق بها همزة الوصل، فالعرب لا تعرف شيئاً دخلته ألف الوصل وحذفت فاءه، وإنما تُلحق العرب ألف الوصل في أول الكلمة إذا سقطت لامها لأنه يسكن أولها فتحْتَاج إلى الوصل مثل: ابن، واست، واسم، ونحو ذلك.

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٢٢/١) .

وهذا يبين لنا أن أصل اسم ليس من وسم وإنما هو من سمو^(١).

الثاني : أن تصغير "اسم" بالاتفاق هو "سُمِّي" ^(٢)، فلو كان أصل الكلمة "وسم" لقليل في تصغيرها "وسيم".

الثالث : أن جمع "اسم" بالاتفاق على "أسماء" مثل: "قنو - أقناء" و"حنو - أحناء" ^(٣)، فلو كان أصل "اسم" وسم لقليل في جمعها أوسام.

فالجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها فلا يقال: وسيم ولا أوسام.

وبهذا يتبين أن الاسم مشتق من السمو كما ذهب إليه أهل البصرة ورجحه القاري رحمه الله.

* * * * *

المطلب الثالث : هل الاسم هو المسمى ؟ أو غيره ؟

تعرض القاري إلى مسألة الاسم والمسمى هل هو هو؟ أو غيره؟ ، وذكر أقوال أهل العلم في هذه المسألة، ولكنه لم يستوف هذه الأقوال، لأن ثمة أقوالاً أخرى لم يوردها أهمها "أن الاسم للمسمى" وهو ما عليه أكثر أهل

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٠-٤١)، ولسان العرب لابن منظور (١٤/٤٠١).

(٢) انظر: كتاب العين للفراهيدي (٧/٣١٨)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٠-٤١)، وتفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/٣٢)، وتفسير البغوي (١/٣٨)، وشرح السنة للبغوي (٥/٣٠)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٧١)، ولسان العرب (١٤/٤٠١)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦/٤٠٨).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٠)، ولسان العرب لابن منظور (١٤/٤٠١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٧١)، وفتاوى شيخ الإسلام (٦/٢٠٨).

السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره - كما يأتي بيانه بمشيئة الله - وقبل الدخول في تلك الأقوال التي ذكرها القاري يحسن بي إعطاء بعض التصورات اللغوية عن الاسم، والمسمى، والتسمية، لأن معرفة هذه الأمور الثلاثة والفرق بينها، سوف يكون فيها تصور للمسألة، ومن ثم يكون الحكم عليها، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وقد سبق لنا الكلام على معنى الاسم في اللغة بأنه اللفظ الدال على المسمى .

وأما المسمى: فهو الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان ^(١).

وأما التسمية: فهي عبارة عن فعل المُسمَّى ووضع الاسم للمُسمَّى، كما أن التحلية عبارة عن فعل المُحلى ووضع الحلية للتحلية ^(٢).

فالتسمية: مصدر سَمَّى "يُسمى" "تسمية"، فالتسمية نطق بالاسم وتكلم به، وليست هي الاسم نفسه، وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها وليست هي أعيان الأشياء ^(٣).

فهنا ثلاث حقائق: اسم ومسمى وتسمية، كحلية ومحلى وتحلية، وعلامة ومعلم وتعليم . ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها وإذا جعلت الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد ^(٤).

(١) انظر: نتائج الفكر للسهيلي (٣٩)، وبدائع الفوائد (١٦/١) .

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (١٧/١) .

(٣) فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية (١٩٥/٦) .

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم (١٧/١) .

إذن فالاسم في أصل الوضع ليس هو المسمى وما قال نحويّ قط ولا عربيّ إن الاسم هو المسمى. فالعرب يقولون مسمى هذا الاسم كذا ولا يقول أحد اسم هذا الاسم كذا، ويقولون: هذا الرجل مسمى بزيد، ولا يقولون: هذا الرجل اسمُ زيدٍ، ويقولون باسم الله، ولا يقولون: بمسمى الله^(١).

ولكن هاهنا تنبيه نبه عليه فارس المعقول والمنقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو: (أن الاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب، وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى، فإنه من الكلام، و"الكلام" اسم للفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما)^(٢).

فعلى هذا فالاسم تارة يراد به المسمى، وتارة يراد به اللفظ الدال عليه، وهذا ما أوضحه شمس الدين ابن قيم الجوزية .

حيث قال: (... الاسم يُراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى.

فإذا قلت: قال الله كذا، واستوى الله على عرشه، وسمع الله، ورأى وخلق، فهذا المراد به المسمى نفسه .

وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله، والرحمن وزنه فعلان، والرحمن مشتق من الرحمة ونحو ذلك، فالاسم هنا للمسمى ...)^(٣).

(١) المصدر السابق (١٦/١-١٧) .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (٢٠٩/٦-٢١٠) .

(٣) شفاء العليل (٢٧٧/٢) . وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (١٠٢/١) .

وبعد بيان هذه الحقائق الثلاثة: الاسم، والمسمى، والتسمية.. أقول:
 إن مسألة "الاسم والمسمى" هل هو هو؟ أو غيره؟، أو لا يقال: هو هو، ولا
 يقال: هو غيره... ونحو ذلك من المسائل المحدثه التي أحدثها علماء الكلام، ولم
 تكن معروفة في عهد السلف الأوائل^(١)، بل إن النزاع فيها اشتهر بعد
 الأئمة بعد أحمد وغيره^(٢)، ولهذا يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى:
 (حدث في دهرنا هذا حماقات خاض فيها أهل الجهل والغباء، ونوكي^(٣) الأمة
 والرعا^(٤)، يتعب إحصاؤها، يمل تعدادها فيها القول في اسم الشيء أهو
 هو؟ أم غيره؟)^(٥).

وقال في موضع آخر: (وأما القول في الاسم أهو المسمى أم غير
 المسمى؟، فإنه من حماقات الحادثة، التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام
 فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرء من العلم به
 والقول فيه أن ينتهي إلى قول الصادق عليه السلام: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ^ط

(١) ولهذا يقول شيخ الإسلام إبراهيم الحري لما سئل عن الاسم والمسمى قال: (لي مذ أجالس
 أهل العلم سبعون سنة، ما سمعت أحداً منهم يتكلم في الاسم والمسمى).

انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٥٩/١٣) .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨٥/٦) .

(٣) نوكي : قال الجوهرى: النوك بالضم: الحمق. قال قيس بن الخطيم: وداء النوك ليس له دواء،
 والنواكة: الحماقة، ورجل أنوك ومستنوك أي أحمق .

الصحاح (١٦١٢/٤)، وانظر: لسان العرب لابن منظور (٥٠١/١٠) .

(٤) الرعا: الأحداث الطغام . انظر: الصحاح (١٢٢٠/٣)، وقال ابن منظور: الرعا:
 الأحداث، رعا الناس: سقّطهم وسفلتهم. لسان العرب (١٢٨/٨).

(٥) صريح السنة (١٧-١٨) .

أَيَّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿١﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ﴿٢﴾ ... (٣).

ولكن البحث في هذه المسألة لم يتوقف، بل كثرت أقوال الناس فيها وهذا مما اضطر علماء أهل السنة للخوض في هذه المسألة، وبيان الحق فيها والرد على الأقوال المخالفة لهذا الحق .

وسبب حدوث هذه المسألة (أن الجهمية قالوا: إن الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول، لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء) (٤).

والقاري تكلم على مسألة "الاسم والمسمى"، وذكر أقوال أهل العلم في هذه المسألة، ولكنه لم يستوف هذه الأقوال، كما سبق التنبيه على ذلك؛ لأن ثمة أقوالاً أخرى لم يوردها أهمها "أن الاسم للمسمى" وهو ما عليه أكثر أهل السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره (٥)، وهو الذي دلت عليه النصوص كما سيأتي - بمشيئة الله - .

(١) سورة الإسراء، آية (١١٠) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٣) صريح السنة (٢٦-٢٧) .

وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/١٨٥-١٨٦).

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٦)، وانظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/٢٢٤) .

(٥) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٧) .

وهذه الأقوال التي ذكرها القاري هي :

القول الأول : (أن الاسم عين المسمى والتسمية) ^(١) .

وقد استبعد القاري هذا القول فقال عنه (وهو بعيد جداً) .
وهو كما قال لأن ثمة فرقاً بين الاسم والمسمى والتسمية كما مر معنا ^(٢) .

القول الثاني : (أنه غيرهما وهو المنقول عن الجهمية ^(٣) والكرامية ^(٤) والمعتزلة، وقال ابن جماعة وهو الحق ولعله نظر إلى ظهور الفرق في الاستعمالات اللغوية ...) ^(٥) .

فالقاري هنا يظهر من كلامه الذي وجه به قول ابن جماعة، أنه لم يرتضي قول الجهمية والكرامية والمعتزلة، ولهذا قال عن قول ابن جماعة (وهو الحق) (لعله نظر إلى ظهور الفرق في الاستعمالات اللغوية) .

(١) انظر: شرح ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي (٤٧)، ومروقة المفاتيح (٤/١) .

(٢) انظر: (٣٣٠) .

(٣) هم أتباع جهم بن صفوان القائل بالخير، وبأن الجنة والنار تبيدان وتفتيان، وإن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل به فقط، قتل بمرو، قتله "سلم بن أحوز المازني" في آخر ملك بني أمية. انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري (٢٧٩-٢٨٠)، والفرق بين الفرق (١٩٩-٢٠٠) .

(٤) هم أتباع محمد بن كرام، والكرامية إحدى فرق المرجئة، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأن المنافقين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ مؤمنين على الحقيقة. انظر: مقالات الإسلاميين (١٤١)، الفرق بين الفرق (٢٠٢) وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني (١٢٤/١) وما بعدها .

(٥) شرح ضوء المعالي على منظومه بدء الأمالي (٤٧)، ومروقة المفاتيح (٤/١) .

وهذا التوجيه من القاري وجيه، لأن ثمة فرقاً بين الاسم والمسمى في لغة العرب كما مر معنا .

ولكن كان على القاري أن يرد هذا القول كما هو شأن سلفنا الصالح تجاه هذا القول، ولهذا يروى عن الشافعي^(١) والأصمعي^(٢) وغيرهما أنه قال: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى فأشهد عليه بالزندقة^(٣)، أو يستفصل عن قولهم (الاسم غير المسمى) لأن كلمة (غير) كلمة حق يُراد بها باطل، فهؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن سار على شاكلتهم استغلوا الفرق بين الاسم والمسمى في لغة العرب، فعبروا بلفظ (غير) فقالوا: (الاسم غير المسمى) وهذا الكلام منهم يرمون به إلى شيء وهو أن أسماء الله ﷻ مخلوقة، ولهذا منع أهل السنة والجماعة القول بأن (الاسم غير المسمى) لما في لفظ (الغير) من الإجمال فهو يحتمل وجهين :

أحدهما: حق، والآخر: باطل .

(١) هو الإمام عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبدالله محمد بن إدريس ابن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، المطلي، المكي، الفزّي. ولد بغرة عام (١٥٠هـ)، ومات سنة (٢٠٤هـ).

انظر: البداية والنهاية (١٠/٢١٠-٢١٣)، والسير (١٠/٥-٩٩) .

(٢) هو الإمام الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن علي ابن أصمع الباهلي، من أهل البصرة، ولد سنة بضع وعشرين ومائة، ومات سنة (٢١٥هـ)، كان الإمام أحمد بن حنبل يثني على الأصمعي في السنة .

انظر: الأنساب للسمعاني (١/١٢٣)، والسير (١٠/١٧٥-١٨١) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/١٨٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/٢١١-٢١٢) .

أما الوجه الحق: فهو متعلق بالجانب اللغوي الذي يفرق بين الاسم والمسمى، فإن كان مرادهم بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فهذا حق؛ لأن الأسماء التي هي الأقوال ليست نفسها هي المسميات وهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء^(١).

وأما الوجه الباطل: وهو غاية قول -الجهمية- أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، وهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى، ولذلك قالوا:

الاسم غير المسمى فأسماء الله غيره وما كان غيره فهو مخلوق^(٢).

وهذا من أبطل الباطل، ومن أجل هذا المقصد الفاسد عند هؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن سار على شاكلتهم منع أهل السنة القول بأن الاسم غير المسمى دفعاً للباطل الذي أراده هؤلاء .

القول الثالث : (أنه عين المسمى وغير التسمية)

وهذا القول هو الذي يذهب إليه القاري، ولهذا يقول في شرحه على منظومة بدء الأمالي :

(وليس الاسم غير المسمى لد أهل البصيرة خير آل

قال: "البصيرة" نور في القلب يدرك به الأشياء، والمراد بأهلها أهل السنة والمعنى ليس الاسم غير المسمى عند أهل السنة بل هو عينه كما

(١) فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية (٢٠٣/٦) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١٠٢/١) .

قال شارحوه، فلو قال - يقصد الناظم - إن الاسم عين للمسمى لكان أظهر وأسمى، ثم ذكر الخلاف في المسألة، وذكر قول من يقول إن الاسم عين للمسمى، ثم قال: (ودليله قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ^(١)...) ^(٢).

فاستدل القاري بهذه الآية على أن الاسم عين للمسمى مما يؤيد ما ذكرنا عنه من أنه يرى أن الاسم عين للمسمى، ولهذا لما ذكر هذا القول قال: ودليله ولم يقل واستدلوا بكذا... وفرق بين العبارتين .

فالقاري يرى أن الاسم عين للمسمى، وهذا الذي ذهب إليه القاري هو قول للأشاعرة والماتريدية، وهذا القول مما أنكره جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم ^(٣). حتى بعض كبار الأشاعرة كالغزالي والرازي .

فالغزالي يقول: (والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى، وأن هذه الثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة) ^(٤).

وقال الرازي: (والمشهور من قول أصحابنا رحمهم الله تعالى أن الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة إنه غير التسمية وغير المسمى، واختيار الشيخ الغزالي أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متباينة، وهو الحق عندي) ^(٥).

(١) سورة الأعلى، آية (١) .

(٢) شرح ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي (٤٧) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/١٩١) .

(٤) المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنی (٢٨) .

(٥) لوازم البينات (٢١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رده على من يقول الاسم عين المسمى ... قال: (... لو اقتصروا على أن أسماء الشيء إذا ذكرت في الكلام فالمراد بها المسميات - كما ذكروه في قوله تعالى: ﴿يَبْحَثُ﴾^(١) ونحو ذلك - لكان ذلك معنى واضحاً لا ينازعه فيه من فهمه، لكن لم يقتصروا على ذلك، ولهذا أنكر قولهم جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم، لما في قولهم من الأمور الباطلة مثل دعواهم أن لفظ اسم الذي هو (أ - س - م) معناه ذات الشيء ونفسه، وأن الأسماء - التي هي الأسماء - مثل زيد وعمر، هي التسميات ليست هي أسماء المسميات وكلاهما باطل مخالف لما يعلمه جميع الناس من جميع الأمم ولما يقولونه .

فإنهم يقولون : إن زيدا وعمراً ونحو ذلك هي أسماء الناس، والتسمية جعل الشيء اسماً لغيره هي مصدر سمّيته إذا جعلت له اسماً .

و(الاسم) هو القول الدال على المسمى، ليس الاسم الذي هو لفظ اسم هو المسمى، بل قد يراد به المسمى، لأنه حكم عليه ودليل عليه .

وأيضاً : فهم تكلفوا هذا التكليف، ليقولوا إن اسم الله غير مخلوق ومرادهم أن الله غير مخلوق، وهذا مما لا تنازع فيه الجهمية والمعتزلة، فإن أولئك ما قالوا الأسماء مخلوقة إلا لما قال هؤلاء هي التسميات فوافقوا الجهمية والمعتزلة في المعنى، ووافقوا أهل السنة في اللفظ .

ولكن أرادوا به ما لم يسبقهم أحد إلى القول به من أن لفظ اسم وهو (ألف سين ميم) معناه إذا أطلق هو الذات المسماة، بل معنى هذا اللفظ هي

(١) سورة مريم، آية (١٢) .

الأقوال التي هي أسماء الأشياء، مثل: زيد، وعمرو، وعالم، وجاهل، فلفظ الاسم لا يدل على أن هذه الأسماء هي مسماه (١).

فالقول بأن الاسم عين المسماة غلط، لأن العرب تفرق بين الاسم والمسمى وهؤلاء يقولون باتحاد الاسم والمسمى (٢).

وأما استدلاله بقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٣)، فهذا في الحقيقة حجة عليه لا له، لأن النبي ﷺ امتثل هذا الأمر وقال: «سبحان ربي الأعلى»، ولو كان الاسم عين المسمى كما زعموا لقال: (سبحان اسم ربي الأعلى)، ثم إن الأمة كلهم لا يجوز أحد منهم أن يقول عبادت اسم ربي، ولا سجدت لاسم ربي، ولا ركعت لاسم ربي، ولا باسم ربي ارحمني، وهذا يدل على أن الأشياء متعلقة بالمسمى لا باسم (٤).

وللناس في (الاسم) المذكور في هذه الآية وما شابهها قولان معروفان وكلاهما حجة على من قال بأن الاسم عين المسمى (٥).

القول الأول :

من قال إن "الاسم" هنا صلة والمراد سبِّح ربك، وإذا قيل صلة فهو زائد لا معنى له، فيبطل قولهم أن مدلول لفظ اسم (ألف سين ميم) هو

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٦/١٩١-١٩٢).

(٢) انظر: (٣٣٠).

(٣) سورة الأعلى، آية (١).

(٤) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١/١٨).

(٥) فتاوى شيخ الإسلام (٦/١٩٨).

المسمى، فإنه لو كان له مدلول مراد لم يكن صلة. ومن قال إنه هو المسمى وأنه صلة، فقد تناقض فإن الذي يقول هو صلة لا يجعل له معنى، كما يقوله من يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تجئ للتوكيد كقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ﴾^(١)، وقوله ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَدِيمِينَ﴾^(٢)، ونحو ذلك.

والقول الثاني :

إنه ليس بصلة، بل المراد تسبيح الاسم نفسه، فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة.

والتحقيق: أنه ليس بصلة، بل أمر الله بتسبيح اسمه، كما أمر بذكر اسمه، والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره فإن المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: سبحان ربي الأعلى، فهو نطق بلفظ (ربي الأعلى)، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى. فمن يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا. إنما نطق بالاسم الذي هو الله، والاسم الذي هو ربنا، فتسبيحه إنما وقع على الاسم، لكن مراده هو المسمى، فهذا يبين أنه ينطق باسم المسمى، والمراد المسمى، لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذي هو (ألف سين ميم) المراد به المسمى^(٣).

وبهذا الإيضاح يبطل استدلال القاري على أن الاسم عين المسمى.

وثمة أدلة أخرى استدلل بها من يقول بأن الاسم عين المسمى، ضربت

(١) سورة آل عمران، آية (١٥٩) .

(٢) سورة المؤمنون، آية (٤٠) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٦/١٩٨-٢٠١) .

صفحاً عن ذكرها مخافة الإطالة، ولأن القاري لم يذكرها، ومن أراد الاطلاع على هذه الأدلة والرد عليها فعليه بقاعدة في الاسم والمسمى لشيخ الإسلام ابن تيمية^(١)، وبدائع الفوائد لتلميذه ابن قيم الجوزية^(٢).

والقول الحق في هذه المسألة :

أن الاسم للمسمى وهو دليل وعلم عليه .

وهذا القول هو قول أكثر أهل السنة وفي مقدمتهم الإمام المجلد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وتبعه على ذلك ابن جرير الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا القول موافق للكتاب العزيز والسنة الصحيحة:

قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٣).

وقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٤).

وقال تعالى ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٥).

وقال النبي ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً »^(٦).

وقال ﷺ : « لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي

(١) انظر: الفتاوى (٦/١٩٠-٢٠١) .

(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/١٨-٢٢) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٤) سورة الإسراء، آية (١١٠) .

(٥) سورة الحشر، آية (٢٤) .

(٦) يأتي تخريجه بمشيئة الله قريباً. انظر: (٣٤٥).

يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» (١).

فهذه النصوص تدل على أن الاسم للمسمى ودليل عليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأما الذين يقولون "الاسم للمسمى" كما يقوله أكثر أهل السنة فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول) (٢).
وأصحاب هذا القول إذا قيل لهم: هل الاسم هو المسمى أو غيره؟.

أجابوا بجوابين :

الأول : أن هذه المسألة حادثة لم ترد في الكتاب والسنة، ولم ترد عن السلف الصالح، ولهذا كان يشق على الإمام أحمد الكلام في الاسم والمسمى، ويقول: هذا كلام محدث، ولا يقول إن الاسم غير المسمى ولا هو هو ولكن يقول: إن الاسم للمسمى (٣).

والثاني : أن هذا السؤال فيه إجمال، ولا بد من الاستفصال، فيقال:

(الاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه .

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٢/٥١٢-٥١٣/رقم ٣٥٣٢).

ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٤/١٨٢٨/رقم ٢٣٥٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٢٠٦-٢٠٧) .

(٣) انظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٢/٢٧٠) .

وإذا قلت: الله: اسم عربي، والرحمن: اسم عربي، والرحمن من أسماء الله تعالى، ونحو ذلك. فالاسم هنا للمسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال، فإذا أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق .

وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى (١).

* * * * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١٠٢/٢). وانظر أيضاً: شفاء العليل لابن قيم الجوزية (٢٧٧/٢) .

المبحث الثاني : هل أسماء الله ﷻ توقيفية أم اجتهادية ؟ .

❦ وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: رأي القاري في أسماء الله ﷻ
هل هي توقيفية أم لا ؟ .
- المطلب الثاني: عرض رأي القاري على منهج السلف .

* * * * *

المطلب الأول : رأي القاري في أسماء الله ﷻ هل هي توقيفية أم لا ؟

قال القاري رحمه الله عند شرحه لحديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) ^(١).

قوله "مائة إلا واحداً" قال: (فائدته -أي فائدة مجيء هذه الكلمة- التأكيد والمبالغة في المنع عن الزيادة والنقصان، لأن أسماء الله توقيفية ...) ^(٢).

وقال أيضاً: (قال في المعالم ^(٣) عند قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ ^(٤): الإلحاد في أسمائه تعالى تسميته بما لم ينطق به كتاب ولا سنة) ^(٥).

وقال أيضاً ناقلاً عن القشيري ^(٦): (قال أبو القاسم القشيري رحمه الله أسماء الله توجد توقيفاً ويراعى فيها الكتاب والسنة، والإجماع، فكل اسم ورد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدة (٤/٣٨٢/ رقم ٧٣٩٢). ومسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٤/٢٠٦٢/ رقم ٢٦٧٧).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/٧٢-٧٣). وانظر: (٣/١٤٠).

(٣) انظر: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل (٢/٢١٨).

(٤) سورة الأعراف، آية (١٨٠).

(٥) مرقاة المفاتيح (٥/٧٣).

(٦) هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالمملك بن طلحة القشيري الخرساني، أبو القاسم، ولد سنة (٣٧٦هـ)، من مصنفاته: "الرسالة"، و"التفسير الكبير". توفي سنة (٤٦٥هـ).

انظر: تاريخ بغداد (١١/٨٣)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (١٦/١٤٨-١٤٩)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (١٩٨-٢٠٠).

في هذه الأصول وجب إطلاقه في وصفه تعالى، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه في وصفه تعالى وإن صح معناه (١).

وقال أيضاً عند شرحه لحديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك ...» (٢) الحديث .

(قوله « وتبارك اسمك » أي: تكاثر خيره فضلاً عن مسماه، أو تعاضم اسمك عن أن يلحد فيه، أو يخترع لك من غير توقيف منك إذ لا يعلم اللائق بك من الأسماء إلا أنت) (٣).

* * * * *

المطلب الثاني : عرض رأي القاري على منهج السلف .

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق كما في المطلب الأول، وما نقله عن أهل العلم أنه يرى أن أسماء الله ﷻ توقيفية لا مجال للعقل فيها، وأن من سَمَّى الله ﷻ بما لم يسم به نفسه فقد لحد في أسماء الله ﷻ وهذا الذي قرره

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧٣/٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه في أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٩/٢ - ١٠/١ رقم ٢٤٢). والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة (١٣٢/٢ رقم ٨٩٩). وأبو داود في سننه كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك "اللهم وبحمدك" (٤٩٠/ رقم ٧٧٠). وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة (٢٦٤/١ رقم ٨٠٧).

والحديث صححه أحمد شاكر كما في تحقيقه لسنن الترمذي (١١/٢)، والألباني كما في الإرواء (٥١/٢) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٤٠/٣) .

القاري وما نقله عن أهل العلم في حق أسماء الله ﷻ هو الحق الذي عليه علماء أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يثبتون من أسماء الله ما أثبتته الله لنفسه في كتابه أو أثبتته له رسوله ﷺ ، لا يتجاوزون الكتاب والسنة، فلا مجال للعقل في أسماء الله ﷻ؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه ﷻ من الأسماء الحسنى، فوجب الوقوف في ذلك على الكتاب والسنة .

وقد دل كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ وكلام أئمة السنة على أن أسماء الله توقيفية :

الأول : الأدلة من كتاب الله ﷻ على أن أسماء الله توقيفية .

١ - قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا ﴾ ^(١) ، وتسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه قفراً على الله بلا علم .

٢ - وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) ، فتسمية الله ﷻ بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمي به نفسه تقول على الله بما لا علم للمرء به . فوجب على المرء المسلم أن يسلك الأدب في أسماء الله ﷻ وصفاته وأن يقتصر على ما جاء به النص .

قال ابن سعدي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : (في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه، فكل هذه قد

(١) سورة الإسراء، آية (٣٦) .

(٢) سورة الأعراف، آية (٣٣) .

حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه (١).

الثاني : الأدلة من السنة على أن أسماء الله ﷻ توقيفية .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: " اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك " (٢).

قال شيخنا ابن عثيمين (٣) في قوله " لا أحصي ثناءً عليك .. " :

(إن التسمية بالأسماء من الثناء، فلا يمكن أن ندرك ما يستحقه الله ﷻ من الأسماء، فوجب علينا أن نتوقف فيما لم يرد به النص) أهـ .

٢ - وحديث " ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٢/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/٣٥٢/ رقم ٤٨٦).

(٣) هو شيخنا أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهي التيمي، العلامة، المفسر، الفقيه، الأصولي، النحوي، الفرضي، مفتي الأنام، كان آية في العلم ونشره وبذله بين الناس بعامة وطلاب العلم بخاصة. ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (١٣٤٧هـ) في مدينة عنيزة، وتوفي في مساء يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام (١٤٢١هـ). من مصنفاته: "شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية"، و"القواعد المثلى في صفات الله وأسماء الحسنى"، و"الأصول من علم الأصول" .

بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» (١).

فهذا الحديث فيه دلالة صريحة على أن أسماء الله ﷻ ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم (٢). وإذا كان الأمر كذلك، فإن أسماء الله ﷻ توقيفية. قوله: «أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك».

هذا ليس قسماً لما سمي به نفسه، بل هو تقسيم وتفصيل لما سمي به نفسه، فـ(أو) في قوله «أو علمته أحداً من خلقك» حرف عطف، والمعطوف بها - في هذا السياق - أخص مما قبله، فيكون هذا من باب عطف الخاص على العام، لأن ما سمي الله به نفسه يتناول جميع الأنواع المذكورة، فوجه الكلام أن يقال: (سميت به نفسك فأعلمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) (٣).

الثالث : أقوال أئمة السنة في ذلك .

١ - قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله :

(اعلم أن أسماء الله تعالى التوقيف (٤)، فإنه يُسمى جواداً ولا يسمى سخياً وإن كان في معنى الجود، ويُسمى رحيماً ولا يُسمى رقيقاً، ويسمى عالماً ولا يُسمى عاقلاً، وعلى هذا لا يقال: يا خادع، يا مكار. وإن ورد في

(١) يأتي تخريجه قريباً إن شاء الله (٣٥٣) .

(٢) شفاء العليل لابن قيم الجوزية (٢/٢٧٦) .

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٢٧٦) بتصرف .

(٤) هكذا في المطبوع، ولعلها "توقيفية" .

القرآن ﴿تُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾^(١)، ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾^(٢)، لكن لما لم يرد الشرع بتسميته به لم يجوز ذلك له^(٣).

٢ - وقال قوام السنة الأصبهاني^(٤) رحمه الله :

(... فلا يسمى -أي الله جل وعلا- إلا بما سمي به نفسه في كتابه، أو سماه به رسوله ﷺ وأجمعت عليه الأمة أو أجمعت الأمة على تسميته به، ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ أو أجمع عليه المسلمون، فمن وصفه بغير ذلك فهو ضال)^(٥).

٣ - قال الإمام ابن أبي زمنين^(٦) في كتابه "أصول السنة" : (باب في الإيمان بصفات الله وأسمائه) : (قال محمد : واعلم أن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياءه ورسله يرون الجهل بما لم يُخبر به تبارك وتعالى عن نفسه علماً،

(١) سورة النساء، آية (١٤٢) .

(٢) سورة الأنفال، آية (٣٠) .

(٣) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٢/٢٣٥) .

(٤) هو الحافظ الكبير شيخ الإسلام، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي التيمي الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، ولد سنة (٤٥٧هـ)، قال عنه يحيى بن منده: كان حسن الاعتقاد جميل الطريقة قليل الكلام ليس في وقته مثله. أهد. مات يوم الأضحى سنة (٥٣٥هـ). من مصنفاته: "الترغيب والترهيب"، و"الحجة في بيان المحجة" .

انظر: تذكرة الحفاظ (٤/١٢٧٧-١٢٨٢) .

(٥) الحجة في بيان المحجة (٢/٣٨٣) .

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى بن محمد المُرِّي الأندلسي الألبيري شيخ قرطبة، ولد سنة (٣٢٤هـ)، وتوفي في ربيع الآخر سنة (٣٩٩هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٧/١٨٨-١٨٩)، وتذكرة الحفاظ (٣/١٠٢٩) .

والعجز عما لم يدع إيماناً وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه، وعلى لسان نبيه ... (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (ثم القول الشامل في جميع هذا الباب - يعني باب الأسماء والصفات - أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث، قال الإمام أحمد رحمه الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث) (٢).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

(... ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع) (٣).

* * * * *

(١) أصول السنة لابن أبي زمنين (٦٠) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٦/٥) .

(٣) بدائع الفوائد (١٦٢/١) .

المبحث الثالث : أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين .

المطلب الأول : رأي القاري في : هل أسماء الله ﷻ محصورة في عدد معين أم لا ؟

قال القاري عند شرحه لحديث: « إن لله تسعة وتسعين اسماً ... »^(١):

(قوله « تسعة وتسعين » لا يدل على الحصر إذ ثبت في الكتاب:
الرب، المولى، النصير ...)^(٢).

وقال أيضاً في قوله ﷻ « من أحصاها » : (قيل من أحصاها صفة لها
فلا يدل على الحصر، مثل لفلان ألف شاة أعدها للضياف، فلا يدل على
أنه لا يملك غيرها)^(٣).

* * * * *

المطلب الثاني : عرض رأي القاري على منهج السلف .

يتبين لنا من خلال هذين النصين اللذين نقلتهما من كلام القاري أنه
يرى أن أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين، وهذا هو الحق الذي
يجب اعتقاده خلافاً لما قرره أبو محمد بن حزم^(٤) حيث زعم أنها تسعة

(١) سبق تخريجه .

(٢) مرقاة المفاتيح (٧٣/٥) .

(٣) المصدر السابق (٧٣/٥) .

(٤) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أبو محمد الأندلسي، القرطبي اليزيدي الفقيه الحافظ،

المتكلم، الأديب، صاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، ومات سنة (٤٥٠هـ).

تتبعه =

وتسعون اسماً فقط، ونفى أن يكون ثمة اسم زائد على التسعة والتسعين، وهذا الكلام الذي زعمه ابن حزم خلاف الحق الذي يجب اعتقاده^(١).

فأسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين، وهذا ما عليه جمهور العلماء^(٢) وهو الذي يرجحه القاري كما مر معنا، ومما يدل عليه رجحان هذا القول: قوله ﷺ « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً... »^(٣).

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحداً حصره ولا الإحاطة به^(٤).

==

من مصنفاته: "المحلى"، و"الفصل في الملل والأهواء والنحل".

انظر: السير (١٨٤/١٨-٢١٢).

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٨٢/٢٢-٨٤٦)، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني (٢٢٤/١١).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٣٢/٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٣٩١/١، ٤٥٢)، والحاكم في المستدرک في کتاب الدعاء (٥٠٩/١)، وصححه ابن حبان كما في موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان (٥٨٩) رقم (٢٣٧٢)، وصححه الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٣٦/١-٣٤١/رقم ١٩٩).

(٤) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لشيخنا ابن عثيمين (١٤).

فدل هذا الحديث على أن لله أسماء لا يعلمها أحد من خلقه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهم .

ولذا يقول الخطابي رحمه الله : (فهذا يدل على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجبها عن خلقه ولم يظهرها لهم)^(١).

ومما يدل على أن أسماء الله ﷻ ليست محصورة في عدد معين حديث الشفاعة وفيه " ... فأتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ﷻ ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه عليّ أحد قبلي ... " ^(٢) الحديث.

فقوله " ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه ... " هذا لا يكون إلا بما له ﷻ من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي بها يمدح كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ^(٣)، وقوله ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ ^(٤) أي: الوصف الأكمل الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه .

فقوله " لم يفتح عليّ أحد من قبلي " هذا مما يدل على أن أسمائه ﷻ ليست محصورة بعدد معين .

قال الإمام النووي رحمه الله : (واتفق العلماء على أن هذا الحديث -يعني حديث أبي هريرة رضي الله عنه- "إن لله تسعة وتسعين اسماً..." - ليس فيه حصر

(١) شأن الدعاء (٢٤-٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٣/٢٥٠-٢٥١/ رقم ٤٧١٢). ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/١٨٤-١٨٦/ رقم ١٩٤).

(٣) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٤) سورة النحل، آية (٦٠) .

لأسمائه ﷺ ، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ... (١).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : (إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل ...) (٢).

وما قرره ابن قيم الجوزية هنا من أن أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد هو ما قرره شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية (٣) رحمه الله.

* * * * *

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (٨/١٧) .

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم (١/١٦٦) . وانظر: شفاء العليل (٢/٢٧٨) .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/٤٨٢-٤٨٦) .

المبحث الرابع : حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

له وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: رأي القاري في حقيقة الإلحاد في
أسماء الله ﷻ .

- المطلب الثاني: عرض رأي القاري على منهج السلف .

* * * * *

المطلب الأول: رأي القاري في حقيقة الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

قال القاري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١) :

(﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ هي أحسن أسماء المباني لأنها دالة على معاني هي أحسن المعاني)^(٢).

وقال أيضاً في قوله تعالى ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ ... ﴾ :
(أي: اتركوا الذين يزيغون، ويميلون عن الحق إلى الباطل في أسمائهم، أي: من جهة مبانيها وطريقة معانيها، ومن جعلتها اشتقاق أسماء الآلهة منها كاللات والعزى ومناة ونحوها .

وقيل: الإلحاد فيها تسميته بما لم يرد في الكتاب والسنة إطلاقها،
كيا سخي، ويا مكار، ويا عقل)^(٣).

* * * * *

المطلب الثاني : عرض رأي القاري على منهج السلف .

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق الذي نقلته عنه أنه تضمن
ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : في معنى الإلحاد .

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٢) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

(٣) المصدر السابق رقم اللوح (٢٧٣/ب، ٢٧٤/أ) .

المسألة الثانية : أن أسماء الله ﷻ لها معانٍ وليست أعلاماً محضة .

المسألة الثالثة : أن الإلحاد في أسماء الله أنواع .

وسيكون مناقشة القاري من خلال هذه المسائل .

* * * * *

✽ المسألة الأولى : معنى الإلحاد .

الإلحاد لغة: الميل، ومنه اللحد في القبر، وهو الشق في جانب القبر^(١) .

والإلحاد في لغة العرب له عدة معانٍ، فمن معاني "ألحد" مال، وعدل، ومارى، وجادل، وفي الحرم: ترك القصد فيما أمر به، وأشرك به، أو ظلم، أو احتكر الطعام^(٢) .

قال ابن فارس رحمه الله تعالى :

(لحد : اللام والحاء والdal أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل إذا مال عن طريقة الحق والإيمان، وسمي اللحد لأنه مائل في أحد جانبي الحدث)^(٣) .

إذاً نخلص من كلام أئمة اللغة أن من معاني الإلحاد هو الميل عن الحق،

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤٠٤)، وتاج العروس للزبيدي (٢٣٦/٥-٢٣٧)، والمصباح المنير للفيومي (٢١٠)، والمفردات للراغب الأصفهاني (٤٥١-٤٥٢) .

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤٠٤)، وانظر: لسان العرب لابن منظور (٣٨٨/٣-٣٩٠)، والصحاح للجوهري (٥٣٤/٢) .

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢٣٦/٥) . وانظر: الصحاح للجوهري (٥٣٤/٢)، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي (٢٤٧) .

وهذا ما قرره القاري في معنى الإلحاد .

أما تعريف الإلحاد في أسماء الله فهو: الميل والعدول بأسماء الله وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت فيها ^(١)، فمن سمي الله ﷻ بما لم يسم به نفسه فقد ألحد في أسماء الله، لأن الواجب الاقتصار على ما ورد به النص، لأن أسماء الله توقيفية كما مر معنا، ومن أثبت الأسماء دون ما تضمنته من الصفات فقد ألحد في أسماء الله ﷻ، لأن الواجب إثبات الأسماء مع ما تضمنته من الصفات - كما سيأتي بمشيئة الله في المسألة الثانية - .

* * * * *

المسألة الثانية : أسماء الله ﷻ دالة على معانيها .

القاري رحمه الله يرى أن أسماء الله ﷻ دالة على معانيها هي أحسن المعاني خلافاً لما عليه أهل التعطيل ^(٢) الذين سلبوا الأسماء معانيها وحقائقها بلا برهان ولا حجة إلا أهواء، وآراء فاسدة، لا تسمن ولا تغني من جوع، فأهل التعطيل لا يثبتون لله إلا أسماء مجردة عن المعاني، فيقولون: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، ونحو ذلك. وإن أثبتوا لها معنى أولوها بالمعاني المجازية التي يعلم بالضرورة أن الله ورسوله ﷺ لم يريداهما، بل أرادا غيرها. ويدخل في هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية في الصفات الفعلية الخبرية، فإن مسلكهم فيها

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١/١٦٩)، ومدارج السالكين (١/٣٩) .

وانظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية لابن سعدي (١٧٢) .

(٢) التعطيل لغة: الإخلاء، يقال: جيد عطل، أي خال من الزينة، وأما معناه في هذا الباب: فهو جحد الصفات وإنكار قيامها بذاته ﷻ ونفي ما دلت عليه من صفات الكمال .

انظر: التنبيهات السنية لابن رشيد (٢٣) .

كمسلك الجهمية في الصفات الذاتية^(١).

فالقاري يثبت للأسماء معان هي أحسن المعاني، ولهذا قال في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٢): (﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تأنيث الأحسن، وفضل أسمائه تعالى على سائر الأسماء في الحسن لصياغتها على مبانٍ هي ألطف المباني، ولدالاتها على معانٍ هي أشرف المعاني)^(٣).

وبهذا خالف أهل التعطيل، وإن كان قد وقع منه بعض التعطيل كما في صفة العلو ونحوها، كما سيأتي - بمشيئة الله ﷻ^(٤) - ، فمن نفى معاني أسماء الله الحسنى أو بعضها فقد وقع في الإلحاد كما قال تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥).

فالحق أن أسماء الله ﷻ مشتملة على معانٍ وصفات تليق بجلاله وعظمته والأدلة الدالة على ذلك هي :

الأول : قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فالله ﷻ في هذه الآية وصف أسمائه بأنها حسنى، وحسنى على وزن "فُعَلَى" تأنيث "أفْعَل" وهو الأحسن، (فأسماء الله تعالى كلها حسنى، أي: بالغة في الحسن كماله، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالاً ولا

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافعية لابن سعدي (١٧٥-١٧٦).

(٢) سورة طه، آية (٨) .

(٣) أنوار القرآن وأسرار الفرقان خ ق (٨٣٨) .

(٤) في فصل الصفات .

(٥) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

تقديرًا^(١).

فلو كانت أسماء الله ﷻ أعلاماً محضة لم يكن فرق بين الرحمن، والجبّار، كيف وقد قال ﷺ في الحديث المعروف في السنن: يقول الله "أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته" ^(٢)، فإذا كانت الرحم مشتقة من اسم الرحمن امتنع أن يكون لا معنى فيه ^(٣)، فأسماء الله ﷻ ليست أعلام محضة، لأنها لو كانت كذلك لم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبمت بين، فإن من جعل معنى اسم "القدير" هو معنى اسم "السميع، البصير" ومعنى اسم "التواب" هو معنى اسم "المنتقم" ومعنى اسم "المعطي" هو معنى اسم "المانع" فقد كابر العقل واللغة والفطرة ^(٤).

الثاني : قال تعالى ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٥)، وقال ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ^(٦)، فالآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة.

قال ابن القيم رحمه الله: (لو لم تدل أسماء الله ﷻ على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لشيخنا ابن عثيمين (٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٩٨ / رقم ١٦٥٩)، والحاكم في المستدرک (٤/١٥٧)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥/٥٢-٥٣) .

(٤) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/٣٨) .

(٥) سورة يونس، آية (١٠٧) .

(٦) سورة الكهف، آية (٥٨) .

الْمَتِينُ ﴿^(١)﴾، فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ﴿^(٢)﴾، فالعزیز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة لله لم يسم قويا ولا عزيزاً، وكذلك قوله ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ ﴿^(٣)﴾، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ﴿^(٤)﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ ﴿^(٥)﴾، وفي الصحيح عن النبي ﷺ «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه نور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» ﴿^(٦)﴾، فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسم "البصير" ﴿^(٧)﴾.

الثالث : الله ﷻ أخبر عن نفسه بأفعال هذه الأسماء، فمن أسمائه السميع، كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿^(٨)﴾، وأخبر عن نفسه بأنه يسمع كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ ﴿^(٩)﴾، وكذلك من أسمائه

(١) سورة الذاريات، آية (٥٨) .

(٢) سورة فاطر، آية (١٠) .

(٣) سورة النساء، آية (١٦٦) .

(٤) سورة هود، آية (١٤) .

(٥) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله ﷻ «إن الله لا ينام» (١/١٦١-١٦٢/رقم ١٧٩) .

(٧) مدارج السالكين لابن القيم (١/٣٧) .

(٨) سورة الشورى، آية (١١) .

(٩) سورة المجادلة، آية (١) .

العالم كما قال تعالى ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾^(١)، وأخبر عن نفسه بأنه يعلم كما قال تعالى ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾^(٢)، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً .

فلو لم تكن أسماؤه مشتملة على معانٍ وصفاتٍ لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع، يعلم، يقدر، ونحو ذلك، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها^(٣).

* * * * *

❦ المسألة الثالثة : الإلحاد في أسماء الله أنواع .

لقد ذكر القاري رحمه الله ثلاثة أنواع من أنواع الإلحاد في أسماء الله وهي:

- ١ - تسميته ﷻ بما لم يسم به نفسه .
 - ٢ - اشتقاق أسماء الآلهة منها كالكالات من الإله والعزى من العزيز ونحو ذلك .
 - ٣ - أن يسم الله ﷻ بما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم، وأبيض الوجه .
- والقاري - رحمه الله - في ذكره لهذه الأنواع لا يريد الحصر، يدلنا على

(١) سورة الأنبياء، آية (٨١) .

(٢) سورة الأعلى، آية (٧) .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣٨/١) .

ذلك قوله (فمن جملتها ...)^(١)، ثم ذكر هذه الأنواع الثلاثة. و"من" في قوله (فمن جملتها ...) تبعية، أي: بعض أنواع الإلحاد هي ... إلخ وهذه الأنواع التي ذكرها القاري رحمه الله حق، وجماع أنواع الإلحاد التي ذكرها أهل العلم من أهل التحقيق أربعة وهي :

١ - أن يسمى الله ﷻ بما لم يسم به نفسه^(٢).

فمن سَمَى الله ﷻ بما لم يسم به نفسه فقد أَلْحَدَ في أسماء الله ﷻ لأن أسماء الله ﷻ توقيفية - كما مر معنا^(٣) - .

ولذا يقول الإمام البغوي^(٤) رحمه الله تعالى : (قال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تسميته بما لم يتسم به ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ)^(٥) أهـ .

(١) أنوار القرآن وأسرار الفرقان رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

(٢) انظر بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٩/١)، وتيسير العزيز الحميد لشيخ سليمان (٦٤٥-٦٤٦)، والقواعد المثلى لشيخنا ابن عثيمين (١٧)، وتفسير القرآن العزيز لأبي المظفر السمعاني (٢٣٥/٢)، وتفسير البغوي (٢١٨/٢)، وزاد المسير لابن الجوزي (٢٩٣/٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٨/٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣٥١/٢)، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤٢٧/٤)، وفتح القدير للشوكاني (٢٦٨/٢).

(٣) انظر: (٣٤٦، ٣٥١) .

(٤) هو الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، أبو محمد الإمام العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام محي السنة الشافعي المفسر، كان زاهداً، ورعاً، عالماً بالتفسير، والفقه. من مصنفاته: "معالم التنزيل"، و"شرح السنة". توفي سنة (٥١٦هـ). انظر: السير (٤٣٩/١٩-٤٤٢)، وشذرات الذهب (٤٨/٤-٤٩)، وطبقات المفسرين للداودي (١٦١/١-١٦٢).

(٥) معالم التنزيل للبغوي (٢١٨/٢)، وانظر: أنوار القرآن وأسرار الفرقان للقاري رقم اللوح (٢٧٣/ب) .

ومثال هذا النوع لتسمية الفلاسفة له بأنه العلة الفاعلة، وتسميته
النصاري له بـ "الأب" ونحو ذلك .

٢ - اشتقاق أسماء الأوثان والأصنام من أسماء الله الحسنى^(١).

ذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢)، وقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٣)، فكما
اختص بالعبادة وبالألوهية فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على
الوجه الذي يختص بالله ﷻ ميل بها عما يجب فيها^(٤).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إلحاد الملحدين أن دعوا اللات
من أسماء الله»^(٥).

وقال مجاهد: (اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله)^(٦).

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبري (١٣٣/٩)، وتفسير القرآن لأبي
المظفر السمعاني (٢٣٦/٢)، وتفسير البغوي (٢١٨/٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي
(٢٠٨/٧)، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤٢٧/٤)، والنكت والعيون
للماوردي (٢٨٢/٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢٦٨/٢)، وتفسير ابن سعدي (١٢٢/٣)،
وتفسير المراغي (١١٩/٩)، وأضواء البيان للشنقيطي (٣٠٣/٢)، ومدارج السالكين
(٣٧/١)، وبدائع الفوائد لابن القيم (١٦٩/١-١٧٠)، وتيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان
بن عبد الله (٦٤٥)، والقواعد المثلى لشيخنا ابن عثيمين (١٧).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٣) سورة طه، آية (٨) .

(٤) انظر: القواعد المثلى لشيخنا ابن عثيمين (١٧) .

(٥) أخرجه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٣/٩) .

(٦) أخرجه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣٣/٩) .

٣ - إنكار شيء من الأسماء الحسنى، أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام^(١). كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم. وإنما كان ذلك إلحاداً لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها^(٢).

فمن عطل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم أنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع، والبصير، والحي، والرحيم، ونحو ذلك، ويقولون: لا حياة له ولا سمع له، ولا بصر له. فهذا القول من أعظم الإلحاد في أسماء الله الحسنى عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة.

وهذا النوع يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لألهتهم - كما مر معنا في النوع الثاني - وهؤلاء المعطلة سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه، ثم هؤلاء الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي، والمتوسط، والمنكوب، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في صفات الله فليستقل أو ليستكثر^(٣).

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة للموصللي (٣٤٢)، وبدائع الفوائد (١٦٩/١-١٧٠)، ومدارج السالكين (٣٩/١)، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٦٤٦)، والقواعد المثلى (١٦). وانظر أيضاً: تفسير ابن سعدي (١٨٠/٢-١٨١)، والتوضيح المبين لابن سعدي (١٧٥-١٧٦).

(٢) القواعد المثلى (١٦).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (١٦٩/١-١٧٠).

٤ - تشبيه ما تضمنته أسماء الله الحسنى من الصفات بصفات خلقه^(١).
كما فعل أهل التشبيه الذين شبهوا ما تضمنته أسماء الله الحسنى من الصفات بصفات خلقه .

وهذا الفعل منهم ميل بها إلى الباطل، ولأن النصوص لا يمكن أن تدل عليه، بل هي دالة على بطلانه كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢)، فمن شبه ما تضمنته أسماء الله الحسنى من الصفات بصفات خلقه فقد وقع في الشرك، وهذا من أنواع الإلحاد في أسماء الله، ولذا فسر بعض الأئمة الإلحاد بالشرك .

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾: (يشركون)^(٣) وقال عطاء:
(الإلحاد: المضاهاة)^(٤).

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله ووجدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله ﷺ وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يحددوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى بل أثبتوا له الأسماء والصفات،

(١) ينظر: بدائع الفوائد (١/١٧٠)، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين لابن سعدي (١٧٣)، وتفسير ابن سعدي (٣/١٢٠-١٢٢)، والقواعد المثلى (١٧)، وتيسير العزيز الحميد (٦٤٦-٦٤٧).

(٢) سورة الشورى، آية (١١) .

(٣) جامع البيان للطبري (٩/١٣٤) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٦١٦) .

ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم برياً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً، وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء^(١).

* * * * *

(١) بدائع الفوائد (١/١٧٠) .

المبحث الخامس : معنى الإحصاء الوارد في الحديث .

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول: قول القاري في معنى الإحصاء .
- المطلب الثاني: عرض كلام القاري ومناقشته فيها .

* *

* *

* *

المطلب الأول: قول القاري في معنى الإحصاء .

قال القاري عند شرحه لحديث « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة »^(١).

(قوله « من أحصاها » أي: من آمن بها، أو عدها وقرأها كلمة كلمة على طريق الترتيل تبركاً وإخلاصاً، أو حفظ مبانيها وعلم معانيها وتخلق بما فيها)^(٢).

وقال أيضاً : (« من أحصاها » أي: حفظها كما فسر به الأكثرون، ويؤيده الرواية الصحيحة « من حفظها دخل الجنة »^(٣) ذكره النووي^(٤).

ونقل القاري عن الطيبي أنه قال في معنى الإحصاء (أي حفظها كما ورد في بعض الروايات الصحيحة^(٥)، فإن الحفظ يحصل بالإحصاء وتكرار مجموعها، فالإحصاء كناية عن الحفظ، أو ضبطها حصراً وتعداداً وعلماً وإيماناً، أو إطاعتها بالقيام بما هو حقها والعمل بمقتضاها، وذلك بأن يعتبر معانيها فيطالب نفسه بما تتضمنه من صفات الربوبية وأحكام العبودية، فيتخلق بها. قال ابن الملك مثل أن يعلم أنه سميع بصير فكف لسانه وسمعه

(١) سبق تخريجه (٣٤٥) .

(٢) مرقة المفاتيح (٧٢/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٠٦٣/٤ / رقم ٢٦٧٧) .

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨/١٧) .

(٥) انظر: صحيح مسلم رقم الحديث (٢٦٧٧) .

عما لا يجوز وكذا في باقي الأسماء) ^(١) أهـ .

* * * * *

المطلب الثاني : عرض كلام القاري ومناقشته فيها .

يتبين لنا من خلال كلام القاري السابق أنه نقل خلاف ^(٢) أهل العلم في المراد بالإحصاء الوارد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون ترجيح لأحد تلك الأقوال، وإن كان قد يقال بأن القاري يرجح أن المراد بالإحصاء "الحفظ"؛ لأنه نقل كلام النووي وكلام الطيبي، بأن المراد بالإحصاء "الحفظ"، وذكر استدلالهم بالرواية الصحيحة "من حفظها" بدل "أحصاها" ولم يعقب على هذا الاستدلال، بخلاف الأقوال الأخرى التي ذكرها فإنه سردها دون استدلال لها، وتفسير "الإحصاء" بالحفظ ليس هو معنى الإحصاء، بل هو معنى بعض الإحصاء، ولهذا نظر الحافظ ابن حجر على تفسير من فسر الإحصاء: بالحفظ، فقال: (في هذا نظر؛ لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ "حفظها" تعيين السرد عن ظهر قلب، بل يحتمل الحفظ المعنوي) ^(٣).

إذن الحفظ يحتمل الحفظ الحسي الذي هو السرد عن ظهر قلب،

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧٣/٥-٧٤) .

(٢) انظر: الخلاف في هذه المسألة: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (٢٢-٢٤)، وشأن الدعاء للخطابي (٢٦-٣٠)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٧/٧)، وبدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١٦٤/١)، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني (٢٢٨/١١-٢٣٠)، ومعارج القبول للحكيمي (١٢٥/١) .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢٢٩/١١) .

والحفظ المعنوي الذي هو فهم معانيها والعمل بما فيها، وهذا حق وهو بعض معنى الإحصاء وجماع القول في معنى الإحصاء هو ما ذكره القاري عن بعض أهل العلم وهو قول من قال المراد بالإحصاء هو (حفظ مبانيها، وعلم معانيها، وتخلق بما فيها). فهذه الثلاثة المذكورة هي مراتب الإحصاء، إلا أن من قال بهذا التفسير للإحصاء لو استبدل كلمة "وتخلق بما فيها" بكلمة "ودعّاه بها" لكان أولى لأن الله ﷻ يقول ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ ^(١). ولأن هذه العبارة "وتخلق بما فيها" ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة ^(٢).

إذن الإحصاء الوارد في الحديث شامل لثلاث مراتب كما قاله العلامة ابن القيم :

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعدّها .

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها .

المرتبة الثالثة: دعّاه بها كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ ^(٣)، وهو مرتبتان: أحدهما: دعاء ثناء وعبادة .

والثانية: دعاء طلب ومسئلة .

فلا يثنى على الله ﷻ إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسئل إلا بها، فلا يقال يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني،

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٦٤) .

(٣) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

بل يستل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، فمثلاً إذا كان السائل يطلب المغفرة فإنه يتوسل باسم الغفور، فيقول: يا غفور اغفر لي، وليس من المناسب أن يقول: يا شديد العقاب اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: يا شديد أجري من عقابك، هذا هو المناسب، وقس على ذلك جميع الأسماء الحسنى^(١).
وبالله التوفيق.

* * * * *

(١) ينظر بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٦٤)، والمجموع الثمين لشيخنا ابن عثيمين (٢/٦٩).

الفصل الثاني

الصفات

له وفيه مباحث :

- المبحث الأول: مذاهب الناس في صفات الله ﷻ كما ذكرها القاري .
- المبحث الثاني: مجمل كلام القاري في نصوص الصفات .
- المبحث الثالث: تقسيم الصفات عند القاري .
- المبحث الرابع: أقوال القاري المفصلة لبعض نصوص الصفات.

* * * * *

المبحث الأول :

مذاهب الناس في صفات الله سبحانه وتعالى كما ذكرها القاري

لقد أشار القاري إلى اختلاف الناس في صفات الله تعالى فقال: (وأما ما ورد من الآيات المتشابهة والأحاديث المشكلات حيث جاء فيهما ذكر الوجه واليد والعين والقدم وأمثالها من الصفات ففيه ثلاث مذاهب بعد الإجماع على التنزيه من التشبيه :

أحدها : تفويض علمها إلى عالمها وعليه جمهور السلف وكثير من الخلف ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۚ ﴾^(١).

وثانيها : تأويلها وإليه مال أكثر الخلف وبعض السلف .

وثالثها : أن لا تأويل ولا توقف بل المذكورات كلها صفات زائدة على الذات لا يعلم معناها من جميع الجهات وهو مختار إمامنا الأعظم وأحمد بن حنبل وأتباعه كابن تيمية وهو قول ابن خزيمة وغيرهم من أكابر الأمة من المحدثين ...)^(٢).

نلاحظ في كلام القاري السابق أنه ذكر أقوال الناس في الصفات دون تعليق عليها أو ترجيح بينها وإن كان قد يقال إنه يذهب إلى القول الأول لأنه استدل لمذهبهم بالقرآن وقال إنه يؤيده، ولكن على كل حال فكلام

(١) سورة آل عمران، آية (٧) .

(٢) الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٠٤) .

القاري السابق تضمن ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : قول القاري بأن مذهب جمهور السلف التفويض .

المسألة الثانية : زعم القاري أن بعض السلف مال إلى تأويل آيات وأحاديث الصفات .

المسألة الثالثة : بيان الحق من هذه الأقوال التي ذكرها القاري .

وسأورد -بمشيئة الله تعالى- هذه المسائل في ثلاث مطالب، وسيكون مناقشة القاري من خلالها .

* * * * *

المطلب الأول : قول القاري إن مذهب جمهور السلف التفويض :

زعم القاري أن مذهب جمهور السلف التفويض الكامل لنصوص الصفات معنى وكيفية، وهذا الزعم الذي نسبته القاري لمذهب السلف ذكره في أكثر من كتاب من كتبه، فمن ذلك ما ذكره في ضوء المعالي .

قال القاري: (ومذهب الخلف جواز تأويل الاستواء بالاستيلاء، ومختار السلف: عدم التأويل، بل اعتقاد التنزيل مع وصف التنزيه له سبحانه عما يوجب التشبيه، وتفويض الأمر إلى الله وعلمه في المراد به، كما قال الإمام مالك: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب)^(١) واختاره إمامنا الأعظم ...)^(٢) .

(١) يأتي تخريجه قريباً بمشيئة الله تعالى (٣٧٨) .

(٢) ضوء المعالي (٥٤)، وانظر: شرح الشرائع (١/٢٦٤-٢٦٥) .

وقال أيضاً: (فالتفويض إلى الله والاعتقاد بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده من كمال العبودية في العبد ولذا اختاره السلف)^(١).

نلاحظ هنا أن القاري استدل -على أن مذهب السلف التفويض الكامل معنى وكيفية- بقول الإمام مالك وآية سورة آل عمران، واعتبر مذهب التفويض الذي نسبه إلى السلف منقبة من مناقب السلف تدل على ورعهم وإعراضهم عن المراء في الدين ولذا قال القاري: (فالتفويض إلى الله والاعتقاد بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده من كمال العبودية في العبد ولذا اختاره السلف، والتعرض إلى تفسير المتشابهات وتأويلها كما اختاره الخلف غير جازمين بأنه مراده سبحانه عبادة في العبد، إلا أن العبودية أقوى من العبادة، لأن العبودية هي الرضا بما يفعل الرب، والعبادة هي: فعل ما يرضى به الرب^(٢)، والرضا فوق العمل ...)^(٣).

❖ مناقشة القاري في دعواه تلك :-

وهذا القول الذي نسبه القاري إلى جمهور السلف، فيه تجهيل للسلف بمعاني نصوص الصفات، وهذا بلا شك قول باطل، لأن التفويض في باب صفات الله تعالى عند السلف المراد به هو تفويض الكيفية فقط دون المعنى.

فالسلف الصالح كانوا يعرفون معاني نصوص الصفات، ويفوضون علم

(١) ضوء المعالي (٥٥)، وانظر: شرح الشمائل (٢٥/٢) .

(٢) فالعبودية والعبادة ألفاظ متداخلة والزعم بأن بعضها أقوى من بعض لا يسلم .

(٣) ضوء المعالي (٥٥) .

كيفيتها إلى الله تعالى، فالكيف هو المجهول عند السلف لا المعنى، وهذا ما يدل عليه كلام الإمام مالك إمام دار الهجرة، وكلام شيخه ربيعة (الاستواء معلوم، والكيف مجهول)^(١) لا كما زعمه القاري .

فالإمام مالك وشيخه ربيعة رحمهما الله بيّنا في هذا النص المنقول عنهما أمرين:

أحدهما : أن الاستواء معلوم -أي معلوم المعنى- .

والثاني : أن الكيف مجهول -أي مجهول الحقيقة- وهذا هو حقيقة مذهب السلف الصالح فإنهم يؤمنون بصفات الله الواردة في الكتاب وصحيح السنة، ويفهمون ما دلت عليه من المعاني اللاتقة بالله تعالى، وأما الكيفية فيفوضون علمها إلى الله ﷻ .

فهذان الإمامان نفيا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه^(٢) .

قال ابن العربي^(٣) : (ومذهب مالك رحمه الله: أن كل حديث

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٣٩٨/رقم ٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/١٥٠-١٥١)، وفي الاعتقاد (١١٩)، والذهبي في العلو (٢/٩٥٢/رقم ٣٤٤) وصحح إسناده .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٣٠٩-٣١٠) .

(٣) هو العلامة الحافظ القاضي أبو بكر، محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ثمان وستين وأربع مائة، وتوفي بفاس سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة.

انظر: السير (٢٠/١٩٧-٢٠٤)، والعبير (٤/١٢٥) .

منها معلوم المعنى، ولذلك قال للذي سأله: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب موافق لقول الباقيين: أمروها كما جاءت بلا كيف، فإنما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصفة.

ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه - على ما يليق بالله - لما قالوا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ولما قالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف، فإن الاستواء حينئذٍ لا يكون معلوماً بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم.

وأيضاً: فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم من اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات .

وأيضاً: فإن من ينفي الصفات الخيرية - أو الصفات مطلقاً - لا يحتاج إلى أن يقول بلا كيف فمن قال: إن الله ليس على العرش لا يحتاج أن يقول بلا كيف فلو كان من مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا بلا كيف.

وأيضاً: فقولهم: أمروها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معانٍ، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال: أمروا ألفاظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو أمروا ألفاظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة، وحينئذٍ فلا تكون

(١) عارضة الأحوذى (١٦٦/٣) .

قد أمرت كما جاءت ولا يقال حينئذٍ بلا كيف، إذ نفي الكيفية عما ليس بثابت لغو من القول (١).

فالسلف الصالح مبرؤون من التفويض الكلي الذي يزعمه القاري، بل إنهم يفهمون نصوص الصفات ويثبتون معانيها ولا أدل على ذلك من النصوص التي تعرض لها السلف بالتفسير، فتفسير السلف لهذه النصوص فرع معرفتهم لمعانيها، لأن تفسير الشيء فرع العلم به. وإليك بعض تفاسير السلف لهذه النصوص.

✽ بعض تفاسير السلف لنصوص الصفات .

فمن تلك النصوص التي تعرض لها السلف بالتفسير لفظ استوى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (٢).

قال مجاهد في تفسير ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش (٣).

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ظهر على العرش وعلا عليه (٤).

ومن تلك النصوص أيضاً صفة النزول :

(١) الحموية (٧٩-٨٠)، وانظر: الحموية ضمن مجموع الفتاوى (٤١/٥-٤٢)، ودرء

تعارض العقل والنقل (٢٠١/١-٢٠٥).

(٢) سورة الأعراف، آية (٥٤).

(٣) يأتي تخريجه في مبحث الاستواء (٥٥٤).

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيد (٢٧٣/١).

روى عبدالعزيز بن المغيرة عن حماد بن سلمة: أنه حدثهم بحديث نزول الرب ﷻ فقال: من رأيتموه ينكر هذا، فاتهموه^(١).

وقال والد أبي حفص بن شاهين: (حضرت أبا جعفر، فسئل عن حديث النزول، فقال: النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)^(٢).

ومن تلك النصوص أيضاً صفة العلو :

قال علي بن الحسن بن شقيق: (سألت عبد الله بن المبارك: كيف ينبغي أن نعرف ربنا ﷻ ؟ قال: على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض)^(٣).

فابن المبارك رحمه الله لم يفوض صفة علو الله ﷻ على عرشه وفوقيته على خلقه، بل أثبت المعنى .

وأصرح من ذلك ما قاله أبو حنيفة رحمه الله لما سأل أبو مطيع البلخي عن قول من يقول: لا أعرف الله أفي السماء أم في الأرض؟ فقال: قد كفر، لأن الله تعالى يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٣)، وعرشه فوق سبع سموات. قلت: فإن قال: إنه على العرش ولكن لا أدري أين العرش؟ في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر. لأنه أنكر كونه في السماء فمن أنكر

(١) العلو للذهبي (٢/٩٦٤/رقم ٣٥٠)، وسير أعلام النبلاء (٧/٤٥١)، وانظر: مختصر العلو (١٤٤/رقم ١٣٩).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٥٤٧) .

(٣) يأتي تخرجه قريباً في مبحث العلو .

أنه في السماء فقد كفر، لأن الله تعالى في أعلى عليين وهو يُدعى من أعلى لا من أسفل^(١).

ومع هذا النص الواضح من الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى نرى القاري ينفي صفة العلو ويتأول كلام هذا الإمام على غير وجهه - كما سيأتي بمشيئة الله في مبحث العلو - بل ويزعم أن مذهب السلف التفويض، وهذا أمر غريب من القاري - عفا الله عنه - فالإمام أبو حنيفة في هذا النص يثبت صفة العلو لله ﷻ ويثبت استواء الرب على العرش كما جاءت بذلك النصوص، بل إنه يكفر من يقول: لا أدري أين العرش مع اعتقاده أن الله على العرش. فأين هذا القول من مذهب أهل التفويض الذي نسبته القاري للسلف ﷺ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فإن معرفة مراد الرسول ﷺ ومراد الصحابة ﷺ هو أصل العلم، وينبوع الهدى .

وإلا فكثير ممن يذكر مذهب السلف ويحكيه لا يكون له خبرة بشيء من هذا الباب، كما يظنون أن مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها، أنه لا يفهم أحد معانيها، لا الرسول ﷺ ولا غيره

فيجعلون مضمون مذهب السلف أن الرسول ﷺ بلغ قرآنًا لا يفهم معناه، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها وأن جبريل عليه السلام كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك، وهذا ضلال عظيم وهو أحد أنواع الضلال في كلام الله والرسول ﷺ ...)^(٢).

(١) انظر: تميم المقاصد الملحق بشرح الفقه الأكبر (١٩٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٤١٣/٥ - ٤١٤) .

وقال شمس الدين ابن قيم الجوزية :

(والصنف الثالث : أصحاب التجهيل : الذين قالوا : نصوص الصفات ألفاظ لا نعقل معانيها ، ولا ندري ما أراد الله ورسوله منا ، ولكن نقرأها ألفاظاً لا معاني لها ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله ، وهي عندنا بمنزلة ﴿ كَهَيْعَصَ ﴾^(١) ، ﴿ حَمَّ ﴾^(٢) عَسَقَ ﴿ ٢ ﴾^(٢))

وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف ، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات ولا يفهمون معنى قوله ﴿ لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾^(٤) ، وقوله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾^(٥) ، وأمثال ذلك من نصوص الصفات .

وبنوا هذا المذهب على أصليين :

أحدهما : أن هذه النصوص من المتشابه .

والثاني : أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله ، فتج من هذين الأصليين استجhal السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأنهم يقرأون : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، وقوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٦) ، ويروون " ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء

(١) سورة مريم ، آية (١) .

(٢) سورة الشورى ، آية (١ ، ٢) .

(٣) سورة ص ، آية (٧٥) .

(٤) سورة الزمر ، آية (٦٧) .

(٥) سورة طه ، آية (٥) .

(٦) سورة المائدة ، آية (٦٤) .

الدنيا»^(١)، ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أريد به، ولازم قولهم: أن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه .

ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجرى على ظواهرها وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يشبتون لها تأويلاً، ويقولون: تجرى على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا؟! وهؤلاء غلطوا في التشابه وفي جعل هذه النصوص من التشابه وفي كون التشابه لا يعلم معناه إلا الله، فأخطأوا في المقدمات الثلاث واضطربهم إلى هذا: التخلص من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين، وسدوا على نفوسهم الباب، وقالوا: لا نرضى بالخطأ، ولا وصول لنا إلى الصواب فهؤلاء تركوا التدبر المأمور به والتذكر والعقل لمعاني النصوص الذي هو أساس الإيمان وعمود اليقين وأعرضوا عنه بقلوبهم وتعبدوا بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها والتفكر فيها^(٢).

ومما سبق يتبين أن السلف الصالح كانوا يفهمون معاني نصوص الصفات لا كما زعمه القاري بأنهم كانوا مفوضة .

وأما الآية التي استدل بها القاري، وزعم أنها تؤيد هذا المذهب الذي عزاه للسلف، فالجواب عنها :

أن هذه الآية ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ

(١) يأتي تحريجه في مبحث النزول .

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٤٢٢-٤٢٤)، وانظر: بدائع الفوائد (٢/٥-٢) .

ءَامَنَّا بِهِ... ﴿^(١)﴾ فيها قراءتان منقولتان عن السلف ولكل قراءة توجيه^(٢) :

الأولى : الوقف على لفظ الجلالة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ على معنى أن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله.

الثانية : الوقف على قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على معنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله.

وهذا الاختلاف في الوقف مرده إلى الخلاف في معنى التأويل المقصود في الآية، وهذا يستدعي منا بيان المراد بالتأويل في عرف السلف .

لفظ التأويل في عرف السلف له معنيان ^(٣) :

الأول : الحقيقة التي يؤول إليها الكلام .

وهذا الكلام قد يكون خبراً وقد يكون إنشاءً .

فتأويل الخبر وقوع المخبر به، وتأويل الإنشاء فعله إن كان أمراً، وتركه إن كان نهيًا .

مثاله في الخبر قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ^(٤)، فقوله ﴿هَلْ

(١) سورة آل عمران، آية (٧) .

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٨٢/٣-١٨٤)، وتفسير ابن كثير (١/٥٢٠-٥٢١)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (١/٢٥٤) .

(٣) انظر: تقريب التدمرية لشيخنا ابن عثيمين رحمه الله (٨٤) وما بعدها، والتدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٢) .

(٤) سورة الأعراف (٥٣) .

يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يعني ما تقول إليه الحقيقة وهو وقوع ما أخبروا به، يوم يأتي ذلك المخبر به، يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق.

ومثاله في الإنشاء (الطلب) قول عائشة -رضي الله عنها- : « كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن »^(١)، أي يمثل ما أمره الله به في قوله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾^(٢).

وتقول مثلاً فلان لا يتعامل بالربا يتأول قوله تعالى: ﴿ وَأَحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ ﴾^(٣)، والتأويل بهذا المعنى مجهول حتى يقع فيدرك واقعاً .

والثاني : بمعنى التفسير . وهذا هو الغالب على اصطلاحات مفسري القرآن كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير: (واختلف علماء التأويل).

ومنه أيضاً قول النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »^(٤).

فالتأويل بهذا المعنى معلوم لأهل العلم، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: « أنا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/٣٥٠/رقم ٤٨٤).

(٢) سورة النصر، آية (١-٣) .

(٣) سورة البقرة، آية (٢٧٥) .

(٤) أخرجه البخاري، في الاعتصام بالسنة، باب قول النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم (٤/٣٦٦/رقم ٧٣١١) .

ومسلم في الزكاة باب النهي عن المسألة (٢/٧١٩/رقم ١٠٣٧) .

من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله ^(١) أي تفسيره .

وعلى هذا فلا منافاة بين من وقف على لفظ الجلالة "الله" وبين من وقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ عند التحقيق لأن كلا القولين حق باعتبار ^(٢)، فمن رأى الوقف على لفظ الجلالة "الله" فمراده بالتأويل المعنى الأول، وهي الحقيقة التي يؤول إليها، فحقائق الأمور وكنهاها لا يعلمها إلا الله ﷻ، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جملة مستأنفة مبتدأ و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ خبره .

ومن رأى الوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فمراده بالتأويل المعنى الثاني، وهو أن الراسخين في العلم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه . وعلى هذا فيكون قوله ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم وهذا فيه مدح للراسخين في العلم .

وبعد هذا البيان يتضح لنا أن ما ادعاه القاري من نسبة التفويض لمذهب السلف لا يصح عنهم رحمهم الله تعالى .

* * * * *

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨٣/٣) .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥/٣٧)، والتدمرية (٨٩) وما بعدها، وتفسير ابن كثير (١/٥٢٠-٥٢١)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (١/٢٥٣-٢٥٥)، وتفسير ابن سعد (١/٣٥٧-٣٥٨) .

المطلب الثاني : زعم القاري أن بعض السلف مال إلى تأويل آيات وأحاديث الصفات .

القاري تارة ينسب التأويل لآيات وأحاديث الصفات للسلف كما نص على ذلك في رده على القائلين بوحدة الوجود^(١)، وتارة ينسبه للخلف دون السلف كما نص على ذلك في ضوء المعالي^(٢). فهل القاري متناقض في كلامه حينما ينسب هذا التأويل تارة للسلف وتارة ينفيه عنهم؟ أم أن له مقصد ومغزى يرمى إليه؟!

الجواب: إن للقاري مقصد يريد أن يقرره، وهو أن التأويل عنده تأويلان، تأويل إجمالي وهذا هو الذي ينسبه إلى السلف، وتأويل تفصيلي وهذا الذي ينسبه إلى الخلف .

فالقاري حينما ينسب التأويل لبعض السلف مراده التأويل الإجمالي -الذي هو في الحقيقة مذهب أهل التفويض- فالسلف عند القاري مفوضة لأنهم لا يقولون بظواهر نصوص الصفات على زعمه. فظاهر النصوص عندهم غير مراد - كما زعمه القاري- وكذلك الخلف ظاهر النصوص عندهم غير مراد. فاتفق كل من السلف والخلف على التأويل حيث يرى كل من السلف والخلف أن ظواهر نصوص الصفات غير مراد، إلا أن السلف كان تأويلهم إجمالياً والخلف كان تأويلهم تفصيلياً .

فالقاري حينما ينسب التأويل لبعض السلف مراده التأويل الإجمالي -الذي هو مذهب أهل التفويض- وهذا التفريق بين التأويل الإجمالي والتأويل

(١) انظر: الرد على القائلين بوحدة الوجود (١٠٤) .

(٢) انظر: ضوء المعالي (٥٤) .

التفصيلي ذكره القاري في كتابه جمع الوسائل في شرح الشمائل حيث قال: (وفيها - أي آيات وأحاديث الصفات - المذهبان المشهوران، أن التأويل إجمالاً وهو تنزيه الله تعالى عن ظواهرها وتفويض التفصيل إليه ﷺ ، وهو مذهب أكثر السلف، والتأويل تفصيلاً وهو مختار أكثر الخلق، وفي الحقيقة لا خلاف بين الفريقين فإنهم اتفقوا على التأويل، وإنما اختار السلف عدم التفصيل لأنهم لم يضطروا إليه لقلة أهل البدع والأهواء في زمانهم، وآثر الخلف التفصيل لكثرة أولئك في زمانهم وعدم إقناعهم بالتنزيه المجرد ولذا زل في هذا المقام قدم جماعة من الحنابلة^(١) وغيرهم نسأل الله العافية)^(٢).

وهذا التفريق من القاري بين التأويل التفصيلي والتأويل الإجمالي المنسوب إلى السلف يؤكد ما ذكره العلامة المقبلي بأن مذهب أهل التفويض المنسوب إلى السلف هو في الحقيقة مذهب أهل التأويل .

قال العلامة المقبلي: (المذهب الثالث: من يقول ليس المراد هو ظاهر العبارة بحسب ما يفهم من اللغة لكننا جهلنا المعنى المراد، فتمسك عن الفحص عنه كما أمسك السلف .

وهذا المذهب في الحقيقة هو الأول - أي مذهب أهل التأويل - وإن كان أسلم من الذي قبله باعتبار أنه سهل، فهو ليس بمذهب ثالث، لأن صاحبه إنما سكت عن التعيين، وقد حكم بالتأويل في الجملة فهو متأول لا مسلم)^(٣).

(١) لم تزل قدمهم رحمهم الله بل إنهم ثبتوا على قانون السلف في هذا الباب وهو إجراء الصفات على ظواهرها من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

(٢) شرح الشمائل (١/٢٦٤-٢٦٥)، وانظر: المرقاة (١/٢٨٠) (٣/٢٩٩) .

(٣) الأرواح النواضح ذيل العلم الشامخ (٣٩٥) .

إذن فنسبة التأويل الإجمالي للسلف هو كنسبة التفويض للسلف وكلاهما خطأ وقد سبق بيان بطلانه في المسألة الأولى مما أغنى عن إعادته .

* * * * *

المطلب الثالث : بيان الحق من هذه الأقوال التي ذكرها القاري .

الحق هو المذهب الثالث : بأن لا تؤول هذه الصفات عن معانيها اللائقة بالله ﷻ ولا تفوض، بل إن الله ﷻ متصف بجميع الصفات الثابتة في الكتاب وصحيح السنة على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^١ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

فإن الله ﷻ متصف بالسمع والبصر والقدرة والإرادة والعلو والاستواء على العرش والنزول في ثلث الليل الآخر، ومتصف باليد، والساق والأصابع ... إلخ.

فهذه الصفات يجب إثباتها لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته من غير صرف لها عن ظاهرها، وكذلك يجب إثبات ما تدل عليه من المعاني اللائقة بالله ﷻ خلافاً لما عليه المفوضة .

قال ابن خزيمة^(٢) - رحمه الله تعالى - : (فنحن وجميع علمائنا من أهل

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمى النيسابوري الشافعي، إمام الأئمة الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، ولد سنة (٢٢٣هـ). قال عنه الدارقطني: كان ابن خزيمة إماماً ثباتاً، معدوم النظر. مات سنة (٣١١هـ).

انظر: السير (٣٦٥-٣٨٢) .

الحجاز و قهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبتته لنفسه نقر بذلك بألسنتنا ونصدق ذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين عز ربنا عن أن يُشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالته المعطلين وعز أن يكون عدماً كما قال المبطلون، لأن ما لا صفه له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله على لسان نبيه ﷺ (...) (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في باب الأسماء والصفات :

(الأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصف به رسله نفيًا وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبتته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع ما أثبتته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته فإن الله ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ۚ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣).

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/٢٦-٢٧) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٣) سورة فصلت، آية (٤٠) .

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(١)، ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل^(٢).

وهذا الذي نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ومن قبله أئمة الهدى هو الحق الذي يجب اعتقاده في باب الأسماء والصفات، وهو إثبات ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل.

(أما الزائغون عن هذا الحق الذي يجب اعتقاده في باب الأسماء والصفات فهم على قسمين: ممثلة ومعطلة، وكل منهم غلا في جانب وقصّر في جانب.

فالممثلة غلوا في جانب الإثبات وقصروا في جانب النفي، والمعطلة غلوا في جانب النفي، وقصروا في جانب الإثبات، فخرج كل منهم عن الاعتدال في الجانبين، فالممثلة أثبتوا لله الصفات على وجه تماثل صفات المخلوقين. (وتصور هذا القول يكفي في رده وبطلانه)

أما المعطلة فهم الذين أنكروا ما سمي الله تعالى ووصف به نفسه إنكاراً كلياً أو جزئياً وحرفوا من أجل ذلك نصوص الكتاب والسنة فهم محرفون للنصوص معطلون للصفات وقد انقسم هؤلاء إلى أربع طوائف^(٣):

(١) سورة الشورى، آية (١١).

(٢) تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع (٦-٨) تحقيق السعوي.

(٣) انظر في بيان أقوال هذه الطوائف والرد عليهم : كتاب التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الطائفة الأولى: الأشاعرة ومن ضاهاهم من الماتريدية وغيرهم .

الطائفة الثانية: المعتزلة ومن تبعهم من أهل الكلام وغيرهم .

الطائفة الثالثة: غلاة الجهمية والقرامطة والباطنية ومن تبعهم .

الطائفة الرابعة: غلاة الغلاة من الفلاسفة والجهمية والقرامطة والباطنية

وغيرهم ... (١) .

يجدر بي في هذا المقام أن أذكر الركائز التي قام عليها معتقد أهل السنة والجماعة في باب الصفات .

ارتكز معتقد أهل السنة والجماعة - في باب الصفات - على ثلاث أسس رئيسة وكل واحد منها قد دل عليه كتاب الله ﷻ، وهذه الأسس هي (٢) :

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتاً ونفياً .

فأهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ وينفون ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، وقد سبق نقل كلام بعض أئمة السنة في ذلك .

وكلام أئمة السنة في الإثبات يرتكز على قاعدتين عظيمتين ذكرهما فارس المعقول والمنقول حقاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(١) انظر: التدمرية لشيخنا ابن عثيمين (٢٢-٣٦) .

(٢) انظر: الأسماء والصفات للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (٦، ٤٨)، والصفات الإلهية في الكتاب والسنة لشيخ محمد بن أمان الجامي رحمه الله (٦٥)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات للتميمي (٨٧) .

القاعدة الأولى : القول في بعض الصفات كالقول في بعض ^(١).

(فمن يقر بأن الله حي ب حياة، عليم بعلم، قدير بقدره، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه، وغضبه، وكراهيته، ونحو ذلك، فيجعل ذلك مجازاً ويفسره، إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات) ^(٢).

فيقال له: لا فرق بين ما نفите وما أثبتته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

وتتضح هذه القاعدة بمثال: وهو إذا كان المخاطب يثبت لله تعالى حقيقة الإرادة وينفي حقيقة الغضب ويفسره، إما بإرادة الانتقام، وإما بالانتقام نفسه.

فيقال له: لا فرق بين ما أثبتته من حقيقة الإرادة وما نفите من حقيقة الغضب فإن إثبات حقيقة الغضب يستلزم التمثيل، فإثبات حقيقة الإرادة يستلزمه أيضاً، لأن القول في أحدهما كالقول في الآخر.

وعلى هذا يلزمك إثبات الجميع، أو نفي الجميع، فإن قال: الإرادة التي أثبتتها لا تستلزم التمثيل لأنني أعني بها إرادة تليق بالله ﷻ لا تماثل إرادة المخلوق.

قيل له: فأثبت لله غضباً يليق به ولا يماثل غضب المخلوق .

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطالب الانتقام وهذا لا يليق بالله تعالى.

(١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق السعدي (٣١)، والفتاوى (١٧/٣) .

(٢) التدمرية لابن تيمية (٣١) .

قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة وهذا لا يليق بالله ﷻ .

فإن قال: هذه إرادة المخلوق، وأما إرادة الله فتليق به .

قيل له: والغضب بالمعنى الذي قلت غضب المخلوق، وأما غضب الله فيليق به، وهكذا القول في جميع الصفات التي نفاها يقال له فيها ما يقول هو فيما أثبتته (١) .

وبهذه القاعدة نرد على الأشاعرة والماتريدية الذين أثبتوا بعض الصفات ونفوا أكثرها .

القاعدة الثانية : القول في الصفات كالقول في الذات (٢) .

فمن أثبت لله ﷻ ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين لزمه أن يثبت له صفات لا تماثل صفات المخلوقين، لأن القول في الصفات كالقول في الذات. وبهذه القاعدة نرد على أهل التمثيل وأهل التعطيل من المعتزلة ونحوهم.

الأساس الثاني :

تنزيه الله تعالى عن أن يماثل شيء من صفاته، شيئاً من صفات المخلوقين (٣)، وهذا الأساس يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

(١) تقريب التدمرية (٣٩-٤٠) .

(٢) التدمرية (٤٣)، والفتاوى (٢٥/٣) .

(٣) انظر: التدمرية لابن تيمية (٨)، والفتاوى (٣/٤-٣)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٦٩/١)، والأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات للتميمي (٨٧، ١٠٧) .

شَيْءٌ^(١)، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ^(٢)﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى^(٣)﴾، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا^(٤)﴾، ونحو ذلك من الآيات الدالة على تنزيه الرب ﷻ عن مماثلة خلقه .

والتنزيه عند السلف مبني على أصول هي :

(أ) تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب مع إثبات الصفات السواردة في الكتاب وصحيح السنة إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(٥)﴾، فينزه الله عن كل ما يوجب النقص أو العيب سواء أكان متصلاً كالموت والعجز والسنة والنوم والنسيان ونحو ذلك، أو كان منفصلاً كالشريك والظهير والشفيع بدون إذنه والولد والوالد والكفو والند ونحو ذلك^(٦).

(ب) التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي^(٧).

فثبت لله تعالى جميع ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ بالتفصيل من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل لأن الله تعالى أعلم بنفسه، ثم رسوله ﷺ أعلم الناس بالله وأفصح الخلق في بيان العلم والتعريف والدلالة والإرشاد،

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) سورة النحل، آية (٧٤) .

(٣) سورة النحل، آية (٦٠) .

(٤) سورة مريم، آية (٦٥) .

(٥) سورة الشورى، آية (١١) .

(٦) انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين للعلامة ابن سعدي (١٤-٢٣)، وشرح

العقيدة النونية للهراس (٥٩-٥٥/٢) .

(٧) التدمرية (٨-١٦)، والفتاوى لابن تيمية (٣-٤/٧) .

وأما النفي فهو مجمل فننفي عن الله ﷻ كل نقص وعيب قال تعالى:
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢).

والمراد بالنفي المجمل هو الذي لا يُتعرض فيه لنفي عيوب ونقائص معينة
كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣)، هذا نفي مجمل لأنه نفي للمماثلة في
جميع الصفات فلم يقل جل وعلا ليس كمثله شيء في سمعه أو في علمه أو في
قدرته ونحو ذلك، بل أجمل في النفي ولم يفصل .

وهذه القاعدة - أعني التفصيل في الإثبات والإجمال في النفي - إنما هي في
الغالب وإلا فقد يرد في النصوص الإثبات المجمل والنفي المفصل .

فمثال الأول : قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٤)،
﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

ومثال الثاني : قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٦)، ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾^(٧).

ولكن قد يُقال إن هذه الأمثلة من الإثبات المفصل، لأن النفي إذا ورد في
القرآن فإنما يراد به كمال الضد - كما سوف يتضح في الأصل الثالث بمشيئة الله -

(١) سورة الشورى، آية (١١) .

(٢) سورة الإخلاص، آية (٤) .

(٣) سورة الشورى، آية (١١) .

(٤) سورة الأعراف، آية (١٨٠) .

(٥) سورة الفاتحة، آية (٢) .

(٦) سورة الإخلاص، آية (٣) .

(٧) سورة الكهف، آية (٤٩) .

وعلى هذا فتكون الآيات التي ورد فيها النفي المفصل محمولة على الإثبات المفصل لأن المراد بالنفي إثبات كمال الضد، وكمال الضد في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(١) هو صفة الغنى التام، فلكمال أحديته وكمال صمديته لم يلد ولم يولد، وهذا من الإثبات المفصل، وهكذا في بقية الآيات التي فيها تفصيل، فليس المراد بها تفصيل النفي وإنما المراد به إثبات كمال الضد .

(ج) أن الله لا يوصف بالنفي المحض^(٢) .

إن الاعتبار في النفي ثبوت كمال الضد، لأن مجرد النفي دون إثبات الكمال لا مدح فيه بل هو إساءة أدب مع الله جل وعلا. فالله عز وجل لا يوصف بالنفي المحض وذلك للأمور الآتية :

الأول : أن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً^(٣) .

الثاني : أن نفي الشيء عن الشيء قد يكون لعدم قابليته له لا لكمالـه الذي أوجب أن ينتفي عنه^(٤)، مثل قولنا: الجدار لا يظلم .

الثالث : أن النفي قد يكون للعجز عن هذا المنفي فيكون النفي حينئذٍ نقصاً^(٥)، ولهذا يقول الإمام ابن أبي العز^(٦) - رحمه الله - موضحاً منهج السلف

(١) سورة الإخلاص، آية (٣) .

(٢) انظر: التدمرية (٥٧) .

(٣) المصدر السابق (٥٧) .

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لشيخنا ابن عثيمين (٢٣) .

(٥) المصدر السابق .

(٦) هو العلامة صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي

في التنزيه ويرد على طريقة أهل الكلام المذموم (... وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١) لكمال عدله، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) لكمال علمه، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٣) لكمال قدرته، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٤) لكمال حياته وقيوميته، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٥) لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصَّرف لا مدح فيه، ألا يُرى أن قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بدمّة ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله "قبيلة" علم أن المراد عجزهم وضعفهم لا كمال قدرتهم.

وقول الآخر :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ

ليسوا من الشر في شيء وإن هانا^(٦)

==

الصالحى، ولد سنة (٧٣١هـ)، واشتغل بالعلم فمهر ودرس، وأفتى. مات سنة (٧٩٢هـ).

انظر: شذرات الذهب (٥٥٧/٨)، ومقدمة المحقق على شرح ابن أبي العز لأرنأوط

(٦٧/١) وما بعدها.

(١) سورة الكهف، آية (٤٩) .

(٢) سورة سبأ، آية (٣) .

(٣) سورة ق، آية (٣٨) .

(٤) سورة البقرة، آية (٢٥٥) .

(٥) سورة الأنعام، آية (١٠٣) .

(٦) انظر: خزانة الأدب (٤٤٦/٧)، وشرح أبيات مغني اللبيب (٨٧/١) .

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يرد على ذمهم عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضاً، ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً والنفي مجملاً عكس طريقة أهل الكلام المذموم فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل ... (١).

الأساس الثالث :

قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بصفاته (٢) (عدم إدراك الكيفية).

إن إدراك حقيقة كيفية الصفات مستحيل، لأن الله تعالى قال ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا تُحِيطُونَ بِهِءَ عِلْمًا﴾ (٣).

قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى: نفى الإحاطة بالله علماً شاملاً للإحاطة بذاته وصفاته فلا يعلم حقيقة ذاته وكنهها إلا هو وكذلك صفاته . أهـ

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى: (قوله ﴿تُحِيطُونَ بِهِءَ﴾ فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن كما قال ابن مالك في الخلاصة.

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز (٦٨/١-٦٩) .

(٢) الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي رحمه الله (٤٤) وما بعدها.

وانظر: القواعد المثلى (٢٧)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات للتميمي (١٢٩) وما بعدها .

(٣) سورة طه، آية (١١٠) .

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن
وقد قرر علماء البلاغة من مبحث الاستعارة التبعية أنه ينحل عن مصدر
وزمن ونسبه، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً فيحيطون في مفهومها
"الإحاطة" فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة
المبنية على الفتح فيصير المعنى لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض
فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كیفيتها فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن
رب العالمين (١).

فإدراك حقيقة كيفية الصفات لا علم لنا به لأنه جل وعلا لم يخبرنا
بذلك بل أخبرنا بصفاته ولم يخبرنا عن كيفية صفاته، ولم يتعبدنا بذلك ولا
أراد منا، فالصفات تثبتها لله ﷻ لورود النصوص بها، فالله جل جلاله أراد أن
يعرف عبادته بنفسه وبما له من صفات الجلال والكمال، فجاءت النصوص تبين
ذلك. فنحن ثبت ما جاءت به النصوص ونفهم المعاني، ولكن كيفية هذه
الصفات لا يعلمها إلا الله - جل وعلا - فلا يجوز أن نكيفها كما أنه لا يجوز
أن نشبهها بصفات أحد من خلقه كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢)، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (٣).

* * * * *

(١) الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي (٤٤-٤٥).

(٢) سورة الشورى، آية (١١).

(٣) سورة الإسراء، آية (٣٦).

المبحث الثاني:

مجمال كلام القاري في نصوص الصفات.

القاري مضطرب في باب الصفات، فتارة يذكر مذهب أهل التأويل من الماتريدية ونحوهم وينتصر لهم، بل وينتسب إلى الماتريدية، ويزعم كما زعم أهل التأويل من قبله أن حمل نصوص الصفات على ما تداولته العرب يوقع الناس في التجسيم والتشبيه .

وتارة يذكر مذهب أهل التفويض ويزعم أنه مذهب السلف.

وتارة يذكر مذهب السلف الحق، وينتصر له، بل ويذكر ردود أهل السنة على من ينكر الصفات، ويدافع عن أعلامهم - كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله - الذين لهم قدم صدق في بيان عقيدة التوحيد .

وهذا الاضطراب الذي وقع فيه القاري ليس في كتاب متقدم، وآخر متأخر.

لا.. لأن الأمر لو كان كذلك لأخذنا كلامه المتأخر دون المتقدم.

ولكن هذا الاضطراب الذي وقع فيه القاري يكون أحياناً في الكتاب الواحد، ولا يكون بين ما قرره في كلامه السابق وكلامه اللاحق إلا صفحات.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن القاري ينقل عن غيره من غير تمحيص، وإليك البيان على ذلك من كلام القاري .

أ (نسبته نفسه إلى علماء الماتريدية .

قال القاري: (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري من أن الصفات الفعلية إضافات، ولا كما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر بكون كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية فإن فيه تكثير القدماء جداً، وإن لم تكن متغايرة فالأولى أن يقال إن مرجع الكل إلى التكوين ...) (١).

القاري تارة ينسب نفسه إلى الماتريدية فيعبر بقوله (عندنا) ويعني بذلك عند الماتريدية، كما في هذا النص الذي بين أيدينا، وتارة يقول (أصحابنا الماتريدية) (٢)، وتارة يقول (مذهب أئمتنا الحنفية) (٣).

ففي هذا النص الذي بين أيدينا نجد القاري ينسب نفسه إلى الماتريدية الذين لا يثبتون إلا ثمان صفات ويرجعون الصفات الفعلية إلى صفة التكوين. وسوف يأتي بمشيئة الله بيان رأيهم في الصفات الفعلية في مبحث مستقل .

ب (ذكره لمذهب أهل التفويض وزعمه بأنه مذهب السلف .

سبق في المطلب الأول من المبحث الأول أن القاري زعم أن مذهب السلف التفويض واعتبر هذا منقبة من مناقب السلف، ولهذا يقول: (فالتفويض إلى الله والاعتقاد بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده من كمال العبودية في العبد ولذا اختاره السلف، والتعرض إلى تفسير المتشابهات وتأويلها كما اختاره الخلف غير جازمين بأنه مراده سبحانه عبادة في العبد، إلا أن العبودية أقوى من

(١) شرح الفقه الأكبر (٤٣)، وشرح ضوء المعالي (٣٦) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٧٠) .

(٣) شرح ضوء المعالي (٤٢) .

العبادة، لأن العبودية هي الرضا بما يفعل الرب، والعبادة هي فعل ما يرضي به الرب، والرضا فوق العمل ... (١).

فكلامه هنا يفهم منه أنه يرجح مذهب التفويض الذي نسبه إلى السلف وقد تقدم بيان بطلان هذه النسبة .

(ج) ذكره مذهب السلف وانتجاره له .

تعرض القاري لتشنيع شيخه الهيثمي على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية حيث رماه الهيثمي بأبشع التهم من التجسيم ونحو ذلك، فدافع عنهما القاري، ورد على شيخه، وقرر ما قرراه في باب الصفات، بل إن القاري عد الشيخين من أئمة السنة الذابين عن دين الله تعالى، ثم حقق أن عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية هي بعينها عقيدة الإمام أبي حنيفة. وإليك نص عبارته.

قال القاري: (قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: إنه ذكر شيئاً بديعاً وهو أنه ﷺ لما رأى ربه واضعاً^(٢) يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة. قال العراقي: لم نجد لذلك أصلاً. قال ابن حجر: بل هذا من قبـح رأيهما وضلالهما إذ هو مبني على ما ذهبوا إليه وأطالا في الاستدلال له والخط على أهل السنة في نفهم له وهو إثبات الجهة والجسمية لله تعالى، ولهما في هذا المقام من القبائح وسوء الاعتقاد ما تصم عنه الآذان ويقضي عليه بالزور

(١) ضوء المعالي (٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وصححه الأرناؤوط انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/١٣٦)، وهذا الحديث شرحه ابن رجب الحنبلي في جزء سماه (اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى).

والبهتان قبحهما الله، وقبح من قال بقولهما، والإمام أحمد وأجلاء مذهبه مبرؤن عن هذه الوصمة القبيحة كيف وهي كفر عند كثيرين .

أقول -القاري- صاهما^(١) الله من هذه السمة الشنيعة والنسبة الفظيعة ومن طالع شرح منازل السائرين^(٢) تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة والجماعة ومن أولياء هذه الأمة، ومما ذكره في الشرح المذكور قوله على ما نصه، وهذا الكلام من شيخ الإسلام -يعني الشيخ عبدالله الأنصاري الحنبلي قدس الله سره الحلبي- تبين مرتبته من السنة ومقداره في العلم وأنه برئ مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل على عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب، والناصبية بأنهم روافض، والمعتزلة بأنه نواصب حشوية، وذلك ميراث من أعداء رسول الله ﷺ في رميهم، ورمى أصحابه بأنه صباة قد ابتدعوا ديناً محدثاً، وهذا الميراث لأهل الحديث والسنة من نبههم بتلقيب أهل الباطل لهم بالألقاب المذمومة، وقدس الله روح الشافعي حيث يقول وقد نسب إلى الرفض:

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ورضي الله عن شيخنا أبي عبدالله بن تيمية حيث يقول:

إن كان نصيباً حب محمد فليشهد الثقلان أني ناصبي

وعفا الله عن الثالث^(٣) حيث يقول:

(١) يعني به الشيخين ابن تيمية وابن قيم الجوزية رحمهما الله .

(٢) يعني مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .

(٣) يقصد به نفسه وهو العلامة ابن قيم الجوزية. وهذان البيتان ظن الباحث شمس الأفغاني رحمه الله تعالى أنهما من كلام القاري، وليس الأمر كذلك، بل لا زال الكلام موصولاً
=

فإن كان تجسيمياً ثبوت صفاته وتنزيها عن كل تأويل مفتر
فإني بحمد الله ربي محسبهم هلموا شهوداً واملأوا كل محضر^(١).

ثم ذكر - يقصد به ابن قيم الجوزية - في الشرح المذكور ما يدل على براءته من التشنيع المسطور وهو (أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى إفهام العامة ولا نعني بالعامة الجهال بل عامة الأمة كما قال مالك رحمه الله. وقد سئل عن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) كيف استوى فأطرق مالك حتى علاه الرخصاء ثم قال: الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة^(٣).

وفرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة وبين الكيف الذي لا يعقله البشر، وهذا الجواب من مالك رحمه الله شاف عام في جميع مسائل الصفات من السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرحمة والضحك فمعانيها كلها معلومة وأما كيفياتها فغير معقولة إذ تعقل الكيف فرع العلم بكيفية الذات وكنهها فإذا كان ذلك غير معلوم فكيف تعقل لهم كيفية الصفات، والعصمة من هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه

==

لابن قيم الجوزية. انظر: الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات للشمس الأفغاني رحمه الله (٤٩٥/١).

(١) انظر: مدارج السالكين (٨٦-٨٧).

(٢) سورة طه، آية (٥).

(٣) سبق تخريجه (٣٧٨).

وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يثبت له الأسماء والصفات وينفي عنه مشابهة المخلوقات فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه ونفيك منزهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل ومن قال هو استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه^(١).

انتهى كلامه وتبين مرامه وظهر أن معتقده موافق لأهل الحق من السلف وجمهور الخلف، فالطعن الشنيع والتقيح الفظيع غير موجه عليه ولا متوجه إليه فإن كلامه بعينه مطابق لما قاله الإمام الأعظم والجهت الأقدم في فقهه الأكبر ما نصه (وله تعالى يد ووجه ونفس فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته فإن فيه إبطال الصفة ... ، فإذا انتفى عنه التجسيم فالمعنى البديع الذي ذكره في الحديث الكريم له وجه ظاهر وتوجيه باهر ...)^(٢).

فالقاري هنا نجده يدافع عن إمامين من أئمة السنة - وهما شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية - بل ويقرر ما قرراه في هذا الباب وهو أن يوصف الله ﷻ بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(٣)، بل وحقق أن عقيدة الشيخين موافقة لأهل الحق من السلف، وأن كلام الشيخين هو بعينه مطابق لما قرره الإمام الأعظم في

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٨٤-٨٥).

(٢) جمع الوسائل (١/٢٠٧-٢٠٩)، والمرقاة (٨/٢٥١-٢٥٢).

(٣) سورة الشورى، آية (١١).

باب الصفات حيث قال الإمام (وله يد ووجه ونفس ...) .

وليت القاري ثبت على هذا المعتقد الذي قرره من كلام ابن قيم الجوزية رحمه الله الذي هو بعينه عقيدة سلف هذه الأمة، ولكن نجد القاري بعد هذا الكلام النفيس الذي هو زبدة كلام السلف في باب الصفات - يقرر خلافه ويزعم أنه لو حمل ما في القرآن العظيم على ما تداولته العرب فيما بينهم من اليد والعين والاستواء وغيرها لوقع جميع الناس في فساد الاعتقاد من التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة وغير ذلك مما ينزه عنه رب العالمين، وهذه الشبهة التي رد بها القاري نصوص الصفات هي بعينها شبهة الجهمية، وإليك نص عبارته.

قال القاري :

(قلت لو حمل ما في القرآن العظيم على ما تداولته العرب فيما بينهم من اليد والعين والاستواء وغيرها لوقع جميع الناس في فساد الاعتقاد من التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة وغير ذلك مما ينزه عنه رب العالمين، فالمخلص من مثل هذا في الآية والحديث أحد أمرين، إما التفويض والتسليم كما هو طريق أكثر السلف، أو التأويل اللائق بالمقام دفعا لتوهم فهوم العوام كما هو سبيل غالب الخلف، والثاني أضبط وأحكم، والأول أحوط وأسلم والله سبحانه أعلم)^(١).

فهذا مثال واحد لاضطراب القاري في كتاب واحد وهو جمع الوسائل في شرح الشمائل وليس بين كلامه المتقدم الذي فيه يقرر عقيدة السلف الصالح

(١) شرح الشمائل (٢/٢٥)، وانظر (١/٢٦٤-٢٦٥) من شرحه على الشمائل .

وكلامه المتأخر الذي يقرر فيه عقيدة الخلف إلا صفحات .

ففي النص الأول -الذي دافع فيه عن الشيخين- يوافق القاري ويقرر ما قرره ابن قيم الجوزية على أن العصمة في باب الصفات أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، وأن حرمة نصوص الأسماء والصفات بأن تجرى على ظواهرها واعتقاد مضمونها المتبادر إلى أفهام عامة الأمة.

وفي هذا النص الثاني -الذي يقرر فيه عقيدة الخلف- يخالف القاري ابن قيم الجوزية في تقريره السابق لعقيدة السلف في باب الصفات .

بل ويزعم القاري بأنه لو حمل ما في القرآن العظيم على ما تداولته العرب فيما بينهم من اليد والعين ... إلخ لوقع الناس في فساد الاعتقاد، وهذا الكلام من القاري غريب وعجيب وهو قدح في القرآن لأن هذا الكلام يتضمن أن القرآن الذي نزل بلغة العرب والذي أنزله الله لهداية الناس وأمر العباد بتدبره وتعقله. يوصل إلى فساد الاعتقاد والتجسيم.

وهذا معلوم بطلانه، لأن تدبر القرآن الذي نزل بلغة العرب وفهمه وتعقله يوصل إلى الهدى وإلى الرشاد وإلى الطريق المستقيم -سيما فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته فهو لا يوصل إلى فساد الاعتقاد كما زعم القاري- ذلك لأن الله ﷻ أنزل هذا القرآن بلغة العرب وأمر بتدبره وتعقله قال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(١)، وقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٢)، إلى غير ذلك من الآيات التي

(١) سورة ص، آية (٢٩) .

(٢) سورة يوسف، آية (٢) .

تحت العباد على تدبر هذا القرآن وتعقله وفهمه.

والنصوص التي تدل على اضطراب القاري في هذا الباب كثيرة، ولعل فيما ذكرت كفاية^(١) وسوف يأتي -بمشيئة الله- زيادة بيان في الصفات التفصيلية.

* * * * *

(١) انظر على سبيل المثال رده على القائلين بوحدة الوجود (٢٣) فقد أول حديث الجارية الذي فيه إثبات صفة العلو ثم بعده بصفحات يذم التأويل ويقول إنه هو الذي أفسد الدين والدنيا (٤٦)، وقارن بينه كلامه في المرقاة (٢٥١/٨-٢٥٢) و(٤٥٩/٩، ٤٦١-٤٦٢)، وقارن بين ما ذكره في شرحه على الفقه الأكبر (٧٠-٧٢)، وتتميم المقاصد الملحق بشرح على الفقه الأكبر (١٩٦-٢٠٠).

المبحث الثالث : تقسيم الصفات عند القاري .

يقسم القاري الصفات إلى قسمين : ذاتية وفعلية .

قال القاري في شرحه ضوء المعالي :

(... أطلق الناظم صفات الله، فشملت صفات الذات وصفات الأفعال)^(١).

وقال أيضاً في شرحه على الفقه الأكبر :

(... منعوتاً - أي الله جل جلاله - بأسمائه "وصفاته الذاتية" كالعلم والحياة والكلام وهي قديمة بالاتفاق "والفعلية" أي موصوفاً بصفاته الفعلية كالخلق والرزق ونحوها، فمذهب الماتريدية أنها قديمة، ومذهب الأشاعرة أنها حادثه، والنزاع لفظي عند أرباب التدقيق ...)^(٢).

وقال أيضاً : (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري من أن الصفات الفعلية إضافات، ولا كما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر بكون كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية فإن فيه تكثير القدماء جداً ... فالأولى أن يقال: إن مرجع الكل إلى التكوين فإنه إن تعلق بالحياة يسمى إحياء ...)^(٣).

يتبين لنا من كلام القاري السابق أنه تضمن ثلاث مسائل : -

(١) ضوء المعالي (٤٠) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٣٣) .

(٣) شرح الفقه الأكبر (٤٣)، وانظر: ضوء المعالي (٤٢) .

المسألة الأولى : تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية .

المسألة الثانية : حصر القاري الصفات الذاتية في ثمان صفات .

المسألة الثالثة : جعله الصفات الفعلية ليست صفات لله تعالى على الحقيقة، بل جعلها داخله تحت صفة التكوين .

وسأورد هذه المسائل في مطالب وسيكون مناقشته -بمشيئة الله- من خلالها.

* * * * *

المطلب الأول : تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية .

قسم القاري نصوص الصفات إلى ذاتية وفعلية وهذا التقسيم قال به بعض أئمة أهل السنة .

(فالصفات الذاتية: هي التي لا تنفك عن الرب جل وعلا بحال فهي ملازمة لذاته ﷻ ولا تعلق لها بالمشيئة والاختيار كالغنى والقدرة والعلو والرحمة والسمع والبصر ونحو ذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته. والصفات الفعلية: هي كل صفة تعلق بمشيئته وإرادته ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية كالاستواء والحيء والنزول ونحو ذلك .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبار وذلك مثل صفة الكلام فهي صفة ذاتية باعتبار الأصل إذ أنه جل وعلا لم يزل ولا يزال متكلماً، وصفة فعلية باعتبار آحاد الكلام لتعلقه بمشيئته واختياره فالله جل وعلا يتكلم متى شاء بما

شاء وكيف شاء) ^(١).

فهذا التقسيم الذي ذكره القاري ومن قبله بعض أئمة أهل السنة تقسيم صحيح وهو مبني على الاستقراء، والتتبع لنصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة .

وهو كالحال تماماً في تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وكالحال تماماً في استقراء كلام العرب، وأنه لا يخرج عن ثلاثة أشياء: فعل، واسم، وحرف. فهذا التقسيم صحيح ولا إشكال فيه . والله أعلم .

* * * * *

المطلب الثاني: حصر القاري الصفات الذاتية في ثمان صفات.

حصر القاري الصفات الذاتية في ثمان صفات، وهي: العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والتكوين .

ولهذا يقول: (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري...) ^(٢).

وهذا الحصر الذي ذكره القاري هو ما عليه الماتريدية ^(٣).

وهو حصر ترده نصوص الكتاب والسنة، فصفات الله جل وعلا لا

(١) انظر: التنبيهات السننية للشيخ عبدالعزيز الرشيد (٢٠)، والفتاوى لابن تيمية (٢٤٤-٢١٧/٦)، (٢٦٨-٢٧٢)، (٩٩/٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية (٣٠١-٣٠٠) .

(٢) شرح الفقه الأكبر (٤٣). وانظر: شرح ضوء المعالي (٤٢) .

(٣) انظر: الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات لشمس الأفغاني (٤٣٠/٢) وما بعدها .

يُعدها العاد، ولا يحصيها إلا رب العباد. ولهذا جاء في الحديث ^(١) « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ^(٢).

وذكره بأسمائه وصفاته من الثناء عليه، فدل ذلك على أن أسماء الله وصفاته لا حصر لها .

ولعلي هنا أذكر بعض النصوص الدالة على أن الصفات الأزلية أكثر مما ذكره القاري. فمن تلك النصوص الدالة على الصفات الذاتية الأزلية .

١ (صفة العزة :

قال تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ^(١)، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢)، ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(٣).

٢ (صفة العلم :

قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓيَسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ ^(٥)، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ^(٦).

(١) يأتي تخرجه قريباً بمشيئة الله تعالى .

(٢) سورة فاطر، آية (١٠) .

(٣) سورة المنافقون، آية (٨) .

(٤) سورة ص، آية (٨٢) .

(٥) سورة فاطر، آية (١٠) .

(٦) سورة آل عمران، آية (٥٥) .

(٧) سورة النساء، آية (١٥٨) .

٣ < صفة اليدين :

قال تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ^ط ۖ ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ^ع ۖ ﴾^(٢).

٤ < صفة الوجه :

قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ^ع ۖ ﴾^(٣)، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ^ع ۖ ﴾^(٤).

فهذه بعض النصوص الدالة على أن الصفات الذاتية الأزلية ليست محصورة فيما ذكره القاري، بل إنه لا حصر لها، وقد ذكرنا جملة من تلك الصفات في المبحث الرابع من هذا الفصل .

* * * * *

المطلب الثالث: الصفات الفعلية .

القاري يرجع جميع الصفات الفعلية إلى صفة التكوين، ويقول إن صفة التكوين صفة أزلية، وإن الصفات الفعلية كلها من متعلقات التكوين وليست صفات حقيقية .

وإليك نص عبارته: قال القاري عند شرحه لكلام الإمام أبي حنيفة:

(١) سورة ص، آية (٧٥) .

(٢) سورة المائدة، آية (٦٤) .

(٣) سورة الرحمن، آية (٢٧) .

(٤) سورة القصص، آية (٨٨) .

(قال الإمام: ... فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل ...).

قال القاري: (كالإحياء، والإفناء، والإثبات، والإنماء، وتصوير الأشياء، والكل داخل تحت صفة التكوين، فالصفات الأزلية عندنا ثمانية لا كما زعم الأشعري ...)^(١).

وقال أيضاً: (والتحقيق أن التكوين صفة أزلية لله تعالى لإطباق العقل والنقل على أنه خالق العالم ومكون له، وامتناع إطلاق اسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفاً له قائماً به، فالتكوين ثابت أزلاً وأبداً، والمكوّن حادث بحدوث التعلق ...)^(٢).

وقال أيضاً: (والحاصل أنا نقول: التكوين قديم، والمتعلق به هو المكوّن وهو حادث ... على أن التكوين في الأزل لم يكن ليكون العالم به في الأزل، بل ليكون وقت وجوده فتكوينه باقٍ أبداً فيتعلق وجود كل موجود بتكوينه الأزلي ...)^(٣).

وقال أيضاً بعد تقسيمه الصفات إلى ذاتية وفعلية :

(... وأما الفعلية: وهي التكوين المعبر عنه بخلق الأشياء، ورزق الأحياء، والإبداع، والإنشاء، والإحياء، والإفناء، والإنبات، والإنماء، وأمثال ذلك. ففي كونها قديمة نزاع، فمذهب أئمتنا الحنفية أنها قديمة، ومذهب

(١) شرح الفقه الأكبر (٤٣) .

(٢) المصدر السابق (٤٤) .

(٣) شرح الفقه الأكبر (٤٢) .

الأشاعرة أنها حادثة، وقيل: المنازعة في القضية لفظية لا حقيقية (١).

المراد بالتكوين عند القاري -والماتريدية- الإخراج من العدم إلى الوجود (٢).

وصفات الأفعال كلها يرجعونها إلى هذه الصفة .

نلاحظ هنا في نصوص القاري التي سقتها من كلامه أنه يقول: إن صفة التكوين صفة أزلية لا تعلق لها بمشيئة الله وقدرته، وإن المتجدد إنما هو المفعول المخلوق فقط من غير تجدد الفعل ولهذا يقول: (فالتكوين ثابت له أزلاً وأبداً والمكوّن حادث بحدوث التعلق...) (والحاصل أنا نقول التكوين قديم...) .

فالتكوين عند القاري صفة أزلية، وأن الصفات الفعلية كلّها من متعلقات التكوين وليست صفات حقيقية ولهذا يقول: (فالصفات الأزلية عندنا ثمانية ... لا كما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر بكون كل من الصفات الفعلية صفة حقيقية أزلية فإن فيه تكثير القدماء جداً ...) (٣).

فالشبهة عند القاري في منعه لصفات الأفعال هو أن إثباتها يلزم منه قيام الحوادث بذات الرب، أو يلزم منه تكثير القدماء -وهذا الكلام باطل كما يتبين في الرد بمشيئة الله تعالى- .

ونلاحظ أيضاً أن القاري لا يرى أن ثمة خلافاً بين الأشاعرة والماتريدية في صفة التكوين ويقول بأن الخلاف بينهما خلاف لفظي ولهذا يقول:

(١) شرح ضوء المعالي (٤٢) .

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية للفتازاني (٦٨) .

(٣) شرح الفقه الأكبر (٤٣) .

(فمذهب الماتريدي أنها قديمة، ومذهب الأشاعرة أنها حادثة والنزاع لفظي عند أرباب التدقيق كما يتبين عند التحقيق ...)^(١).

فالماتريدية يقولون بصفة التكوين ويعتبرونها صفة أزلية، وأن الصفات الفعلية كلها من متعلقات التكوين وليست صفات حقيقية^(٢)، بينما الأشاعرة لا يعترفون بهذه الصفة، فصفات الأفعال عندهم كلها حادثة وهي ليست من صفات الله تعالى، بل هي إضافات واعتبارات، وليس التكوين صفة أخرى غير القدرة والإرادة، فمرجع صفات الأفعال عندهم مجموع القدرة والإرادة.

وعلى كل حال سواء أكان الخلاف لفظياً أم معنوياً فكل من قول الماتريدية والأشاعرة باطل، لأن الدافع لهم جميعاً على ما قالوه الفرار عن القول بقيام الصفات الاختيارية بالله تعالى وهو ما يسمونه بحلول الحوادث.

وخلاصة كلام القاري السابق أجمله في قضيتين وسيكون مناقشة القاري من خلالهما بمشيئة الله تعالى :

القضية الأولى : أن التكوين غير المكوّن أو الفعل غير المفعول .

القضية الثانية : القول بأزلية التكوين وعدم تعلقه بمشيئة الله تعالى وقدرته.

* * * * *

(١) نفس المصدر (٣٣). وانظر: شرح ضوء المعالي (٤٢-٤٣) .

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية للتفتازاني (٦٨-٧٣) .

القضية الأولى: أن التكوين غير المكون أو الفعل غير المفعول

القاري يرى مغايرة الفعل للمفعول أو الخلق للمخلوق وهذا هو الحق الذي عليه سلف هذه الأمة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض ذكره للنزاع بين الناس في معنى حديث النزول وما أشبهه في الكتاب والسنة من الأفعال المضافة إلى الرب ﷻ (... إن الرب تعالى هل يقوم به فعل من الأفعال، فيكون خلقه للسموات والأرض فعلاً فعله غير المخلوق، أو أن فعله هو المفعول، والخلق هو المخلوق؟ على قولين معروفين :

الأول : وهو المأثور عن السلف وهو الذي ذكره البخاري في كتاب خلق أفعال العباد عن العلماء مطلقاً، ولم يذكر فيه نزاعاً، وكذلك ذكره البغوي وغيره مذهب أهل السنة، وكذلك ذكره أبو علي الثقفى ... وهو قول السلف قاطبة، وجماهير الطوائف، وهو قول جمهور أصحاب أحمد، متقدميهم كلهم وأكثر المتأخرين منهم وهو أحد قولي القاضي أبي يعلى، وكذلك هو قول أئمة المالكية والشافعية وأهل الحديث ... (١).

والقول بأن الخلق غير المخلوق والفعل غير المفعول قد دل عليه صحيح المنقول وصريح المعقول، فمن ذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوافعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: "اللهم

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٨-٥٢٩، ٣٧٨) و(٦/٢٢٩) و(١٦/٣٧٣) وما بعدها، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/٢٦٤) .

أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، (فالنبي ﷺ في هذا الحديث استعاذ بأفعال الرب وصفاته، فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره على أن "كلام الله غير مخلوق" بأنه استعاذ به فقال: "من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل منه"^(٢)، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة لأنه استعاذ بهما، والعافية القائمة بيد العبد مخلوقة فإنها نتيجة معافاته^(٣) .

وقد دلّ عليه أيضاً صريح المعقول :

(فإنه قد ثبت بالأدلة "العقلية والسمعية" أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، وأن الله انفرد بالقدم والأزلية، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^(٤)، فهو حين خلق السموات ابتداءً، إما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقاً للسموات والأرض، وإما أن لا يحصل منه فعل، بل وجدت المخلوقات بلا فعل، ومعلوم أنه إذا كان الخالق قبل خلقها ومع خلقها سواء وبعده سواء، لم يجز تخصيص خلقها بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٣٥٢/١/رقم ٤٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٠٨٠-٢٠٨١/رقم ٢٧٠٨).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢٩/٦-٢٣٠).

(٤) سورة الفرقان، آية (٥٩) .

وأيضاً: فحدوث المخلوق بلا سبب حادث ممتنع في بداية العقل، وإذا قيل: الإرادة والقدرة خصصت. قيل: نسبة الإرادة القديمة إلى جميع الأوقات سواء، وأيضاً فلا تعقل إرادة تخصيص أحد المتماثلين إلا بسبب يوجب التخصيص، وأيضاً فلا بد عند وجود المراد من سبب يقتضي حدوثه وإلا فلو كان مجرد ما تقدم من الإرادة والقدرة كافياً، للزم وجود قبل ذلك، لأنه مع الإرادة التامة والقدرة التامة يجب وجود المقدور^(١).

فقول القاري بأن التكوين غير المكون صحيح وهو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وقد دل على ذلك صحيح المنقول وصريح المعقول كما سبق بيانه.

* * * * *

القضية الثانية: القول بأزلية التكوين وعدم تعلقه بمشيئة الله وقدرته.

القاري يرى أن التكوين أو الفعل قديم أزلي لازم لذات الرب تعالى، وأنه لا تعلق له بمشيئة الرب وقدرته، وأن المتجدد إنما هو المفعول المخلوق فقط من غير تجدد الفعل، ولهذا جميع الصفات الفعلية عنده من متعلقات التكوين، وليست صفات حقيقية.

والشبهة عند القاري في منعه قيام صفات الأفعال بذات الرب هو أن إثباتها يستلزم قيام الحوادث بذات الرب، أو يلزم منه تكثير القدماء.

(١) مجموع الفتاوى (٢٣٠/٦-٢٣١)، وجامع الرسائل (٢/١٩-٢١).

الرد :

هذه الشبهة التي أوردها القاري تجاه الصفات الفعلية هي شبهة الكلامية والأشاعرة والماتريدية من قبل. والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :

الأول : يقال للقاري: نفيك للصفات الفعلية لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة بل إن الكتاب والسنة على خلاف قولك .

فكتاب الله ﷻ قد دل على هذا الأصل في أكثر من مائة موضع ^(١).

فمن ذلك ..

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝﴾ ^(٢).

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝﴾ ^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝﴾ ^(٤).

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ۝﴾ ^(٥).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣٣/٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (١١٦/٢) .

(٢) سورة البقرة، آية (١٨٦) .

(٣) سورة البقرة، آية (١١٧) .

(٤) سورة البقرة، آية (١٧٤) .

(٥) سورة المجادلة، آية (١) .

وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١).

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(٢).

وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَأَرَىٰ﴾^(٣).

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلَ بِهِ حَبِيرًا﴾^(٤).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها اتصاف الرب بالأفعال الاختيارية القائمة به^(٥).

وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب ولكن لعلني أن أذكر بعض هذه الأحاديث التي فيها دلالة على اتصاف الرب بالأفعال الاختيارية القائمة به .

فمن ذلك.. ما جاء في الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية -على أثر سماء كانت من الليلة- فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من

(١) سورة آل عمران، آية (١٨١) .

(٢) سورة الأعراف، آية (١٤٣) .

(٣) سورة طه، آية (٤٦) .

(٤) سورة الفرقان، آية (٥٩) .

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١١٦/٢-١٢١) .

قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب^(١).

ومن ذلك أيضاً.. ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة وفيه "... فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ..."^(٢).

ومن ذلك أيضاً.. قوله ﷺ: "إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة"^(٣).

ومن ذلك أيضاً.. ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفري فأغفر له"^(٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان باب يستقبل الناس الإمام إذا أسلم (١/٢٧٢/رقم ٨٤٦).

ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/٨٣-٨٤/رقم ٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٣/٢٥٠-٢٥١/رقم ٤٧١٢).

ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزله فيها (١/١٨٤-١٨٦/رقم ١٩٤).

(٣) يأتي تحريجه قريباً.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ (٤/٤٠٣/رقم ٧٤٩٤).

ومسلم في صحيحه في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (١/٥٢١/رقم ٧٥٨).

والأدلة على هذا الأصل أكثر من أن تحصر، ولكن المقصود هنا أن يبين أن الكتاب والسنة فيها من الدلالة على هذا الأصل ما لا يكاد يحصر، فمن له فهم في كتاب الله يستدل بما ذكر من النصوص على ما ترك^(١).

الثاني : يقال للقاري: إن نفي حلول الحوادث بذات الرب فيه إجمال، وهو من الكلمات المستحدثة الحملة التي أحدثها علماء الكلام وهي تحتل معنى حقاً ومعنى باطلاً، وقاعدة السلف في مثل هذه عدم الحكم عليها نفياً أو إثباتاً حتى يعلم مراد قائلها^(٢).

فيقال: إن أراد بنفي حلول الحوادث أن الله تعالى لا يحل في ذاته شيء من مخلوقاته كما لا يحل هو في مخلوقاته فهذا النفي حق وواجب .

وإن أريد به نفي صفات الله الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء متى شاء ولا يغضب ولا يرضى ولا أنه يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان ... ونحو ذلك، فهذا نفي باطل .

وهذا ما يزعمه القاري بنفيه حلول الحوادث ولهذا نفي صفة أن الرب يتكلم بحرف وصوت - كما سيأتي بمشيئة الله - في مبحث الكلام .

الثالث : يقال للقاري إن (التكوين القديم إما أن يكون بمشيئته، وإما أن لا يكون بمشيئته، فإن كان بغير مشيئته لزم أن يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته، وإن كان بمشيئته لزم أن يكون القديم مراداً وهذا باطل.

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/١٢٣) .

(٢) انظر: التدمرية (٦٥-٦٨)، وضمن مجموع الفتاوى (٣/٤١-٤٢) (٦/٣٨-٤٠)، ومنهاج

السنة (١/٢٤٩)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/٢٨٠) .

ولو صح لأمكن كون العالم قديماً، مع كونه مخلوقاً بخلق قديم بإرادة قديمة، ومعلوم أن هذا باطل، ولهذا كان كل من قال القرآن قديم يقولون تكلم بغير مشيئته وقدرته .

فالمفعول المراد لا يكون إلا حادثاً، وكذلك الفعل المراد لا يكون إلا حادثاً^(١).

الرابع : يقال للقاري -ومن سلك سبيلهم من الماتريدية- (إذا عرض على العقل الصريح ذات يمكنها إن تتكلم بقدرتها، وتفعل ما تشاء بنفسها، وذات لا يمكنها أن تتكلم بمشيئتها ولا تتصرف بنفسها البتة، بل هي بمنزلة الزمن الذي لا يمكنه فعل يقوم به باختياره، قضى العقل الصريح بأن هذه الذات أكمل، وحينئذٍ فأنتم الذين وصفتم الرب بصفة النقص، والكمال في اتصافه بهذه الصفات، لا في نفي اتصافه بها)^(٢).

الخامس : يقال للقاري: كل ما كان بعد عدمه فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته، وهو سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فما شاء وجب كونه، وهو تحت مشيئة الرب وقدرته، وما لم يشأ امتنع كونه مع قدرته عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا ﴾^(٣)، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾^(٤)، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾^(٥). فكون الشيء

(١) مجموع الفتاوى (٦/٣٧٨-٣٧٩) .

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٦/٢٤٢) . وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/٢٢٠) .

(٣) سورة السجدة، آية (١٣) .

(٤) سورة البقرة، آية (٢٥٣) .

(٥) سورة الأنعام، آية (١١٢) .

واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على أنه لا بد من كونه لا يمتنع أن يكون واقعاً بمشيئته وقدرته وإرادته وإن كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه، فإن إرادته للمستقبلات هي مسبقة بإرادته للماضي ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١)، وهو إنما أراد هذا الثاني بعد أن أراد قبله ما يقتضي إرادته فكان حصول الإرادة اللاحقة بالإرادة السابقة^(٢).

السادس : يقال للقاري -ومن سلك سبيلهم من الماتريديّة- إنه من المعلوم بصريح العقل أنه إذا خلق السموات والأرض، فلا بد من فعل يصير به خالقاً، وإلا فلو استمر الأمر على حال واحد - لم يحدث فعل - لكان الأمر على ما كان قبل أن يخلق، وحينئذٍ فلم يكن المخلوق موجوداً، فكذلك يجب أن لا يكون المخلوق موجوداً، إن كان الحال في المستقبل مثل ما كان في الماضي، لم يحدث من الرب فعل هو خلق السموات والأرض. وقد قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾^(٣).

ومن المعلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق فدل على أن الخلق لم يشهدوه وهو تكوينه لها وإحداثه لها غير المخلوق الباقي .

وأيضاً فإنه قال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾^(٤)، فالخلق لها كان في ستة أيام، وهي موجودة بعد المشيئة، فالذي اختص بالمشيئة غير الموجود بعد المشيئة .

(١) سورة يس، آية (٨٢) .

(٢) جامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٨/٢-٣٩) .

(٣) سورة الكهف، آية (٥١) .

(٤) سورة الأعراف، آية (٥٤) .

وكذلك ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، فإن الرحمن الرحيم هو الذي يرحم العباد بمشيئته وقدرته، فإن لم يكن له رحمة إلا نفس إرادة قديمة، أو صفة أخرى قديمة، لم يكن موصوفاً بأنه يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ^(٣)، فالرحمة ضد التعذيب، والتعذيب فعله، وهو يكون بمشيئته، كذلك الرحمة تكون بمشيئته كما قال ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) .

السابع : يقال للقاري: إن الملك هو الذي يتصرف بأمر فيطاع، ولهذا إنما يقال "ملك" للحي المطاع الأمر، لا يقال في الجمادات لصاحبها "ملك"، إنما يقال له "مالك"، ويقال ليعسوب النحل "ملك النحل" لأنه يأمر فيطاع، والمالك القادر على التصريف في المملوك .

وإذا كان الملك هو الأمر الناهي المطاع، فإن كان يأمر وينهى بمشيئته كان أمره ونهيه من الصفات الاختيارية، وبهذا أخبر القرآن قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ تَحَكُّمٌ مَا يُرِيدُ﴾^(٥).

وإن كان لا يأمر وينهى بمشيئته بل أمره لازم له حاصل بغير مشيئته ولا قدرته لم يكن هذا مالكاً أيضاً، بل هذا أولى أن يكون مملوكاً، فإن الله تعالى

(١) سورة الفاتحة، آية (٣) .

(٢) سورة العنكبوت، آية (٢٠، ٢١) .

(٣) الفتاوى (٦/٢٦٠-٢٦١) .

(٤) سورة المائدة، آية (١) .

خلق الإنسان وجعل له صفات تلزمه، كاللون والطول ... ونحو ذلك مما يحصل لذاته بغير اختياره، فكان باعتبار ذلك مملوكاً مخلوقاً للرب فقط، وإنما يكون ملكاً إذا كان يأمر وينهى باختياره فيطاع وإن كان الله خالقاً لعقله ولكل شيء .

ولكن المقصود أنه لا يكون ملكاً إلا من يأمر وينهى بمشيئته وقدرته بل من قال إنه لازم له بغير مشيئته أو قال إنه مخلوق له، فكلاهما يلزمه أن لا يكون ملكاً. وإذا لم يمكنه أن يتصرف بمشيئته لم يكن مالكاً أيضاً، فمن قال: إنه لا يقوم به فعل اختياري لم يكن في الحقيقة مالكاً لشيء، وإذا اعتبرت سائر القرآن وجدت أنه من لم يقر بالصفات الاختيارية لم يقم بحقيقة الإيمان ولا القرآن (١).

وبهذا البيان يتبين لنا أن الصفات الاختيارية ثابتة لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته خلافاً لما ذهب إليه القاري .

* * * * *

(١) الفتاوى (٢٦٢/٦-٢٦٣)، جامع الرسائل (٦١/٢-٦٣) .